روجات

الغ

جيده

N.O.

843:G45mAS

جيد، اندريه

مدرسة الزوجات

DATE	Borrower's Number	DATE	Borrower's Number

843
G45mAs

29 Jan 69

FEB [illegible] '6[illegible]

MY 24

OCT [illegible] '61

JA 6

2 Jun 70

AP 19 '56

JA 11 '57

AP 13 '57

AG 12 '58

NO 27 '58

[illegible]

مدرسة
الزوجات

كتب أخرى لأندريه چيد
أصدرتها دار الكاتب المصرى

أوديب ـ ثيسيوس
ترجمة طه حسين

الباب الضيق (تعريب نزيه الحكيم)
مع مقدمة لأندريه چيد وطه حسين

843
G453eA

اندريه چيد

مدرسة الزوجات

يليها

روبير و چنفييف

تعريب صبري فهمي

دار الكاتب المصري

الطبعة الأولى . . . مارس ١٩٤٧

العنوان الأصلى للكتاب
بالفرنسية

ANDRE GIDE
L'ECOLE DES FEMMES
—
ROBERT
—
GENEVIEVE

جميع الحقوق محفوظة لدار الكاتب المصرى ١٩٤٧

فهـــــرس

مدرسة الزوجات

صفحة

مقدمة ٩

الجزء الأول ١١

الجزء الثانى (بعد عشرين سنة) ٦٥

خاتمة ١٢٣

روبير

مقدمة ١٣٣

الجزء الأول ١٣٥

الجزء الثانى ١٦٥

چنفييف

مقدمة ١٩١

الجزء الأول ١٩٧

الجزء الثانى ٢٦٥

إلى إدمون چالو

ذكرى ودية لمحادثاتنا عام ١٨٩٦

أول أغسطس ١٩٢٨

سيدى

بعد تردد كثير ، قررت أن أرسل إليك هذه الكراسات ؛ وهى صورة على الآلة الكاتبة من اليوميات التى تركتها لى والدتى وقد توفيت فى ١٢ أكتوبر سنة ١٩١٦ بمستشفى *** حيث كانت تتولى العناية بالمصابين بأمراض معدية .

لم أسمح لنفسى بتغيير شىء منها فيما عدا الأسماء ؛ وأنا أترك لك حرية نشر هذه الصفحات إذا رأيت أن قراءتها قد لا تخلو من الفائدة لبعض الزوجات الفتيَّات .

وفى هذه الحالة يسرنى أن يكون عنوان هذه المذكرات « مدرسة الزوجات » إذا لم تر أن استعمال هذا التعبير من بعد « موليير » أمر نابٍ .

وبديهى أن تقسيم اليوميات إلى جزئيها الأول والثانى والخاتمة إنما هو تقسيم من عندى .

لا تحاول معرفتى ، واسمح لى ألا أوقع كتابى بتوقيعى الحقيقى .

جنفييف د . .

الجزء الاول

٧ أكتوبر ١٨٩٤

صديقى

يخيَّل إلىَّ أننى إليك أنت أكتب ، فأننى لم أسطر يوميات من قبل ، ولم أفلح إلا فى كتابة بعض الخطابات ؛ ولولا أننى أراك كل يوم لكنت ولا ريب قد كتبت إليك .

على أنه إذا قدِّر لى الموت قبلك ، وهذا ما أرجوه لأن الحياة دونك لا تبدو لى إلا جرداء ، فسوف تقرأ هذه السطور . وسوف يخيل إلىَّ أننى اذ أتركها لك لا أفارقك الفراق كله . ولكن كيف نفكر فى الموت ، والحياة كلها أمامنا ؟ مذ عرفتك ، أعنى مذ أحببتك ، تتراءى لى الحياة جميلة نافعة وقيِّمة حتى أننى لا أريد أن أضيِّع منها شيئاً . سأحفظ فى هذه الكراسة كل فتات سعادتى ، وهل لى من عمل يومى ، بعد انصرافك عنى ، سوى أن أعود فأحيا خاطف اللحظات الماضيات وسوى أن أتمثلك حاضراً ؟ قبل أن ألتقى بك كنت أتألم ، وقد ذكرت لك

ذلك ، كنت أتألم لشعورى بأن حياتى تتقضَّى بلا عمل ؛ لم يكن عندى ما هو أشد عبثاً من مشاغل هذه الحياة الإجتماعية التى كان يدفعنى إليها والداى دفعا والتى ما أزال أرى صديقاتى يسعدن بها السعادة كلها . حياة كهذه لا إيثار فيها ولا غاية لها لم تكن من المحتمل أن ترضينى . أنت تعرف أننى فكرت جدِّياً فى أن أكون ممرضة أو راهبة أقف نفسى على خدمة المساكين ؛ كان والداى يهزان كتفيهما إذا ما حدثتهما فى ذلك ، وكانا على حق فى أن يفكرا فى أن هـذه النزعات سوف تتلاشى متى لقيتُ الرجل الذى يمكننى التعلق بحبه . لِمَ يأبى اليوم والداى الأقرار بأنك ذلك الرجل ؟ أترى كيف لا أحسن التعبير ! هذه العبارة التى أكتبها باكية تبدو لى مروِّعة . لمَ استعدت قراءتها ؟ لا أدرى أكنت فى يوم ما قد أحسن الـكتابة ، على أية حالٍ لن يكون ذلك وأنا أتلمَّس الاتقان .

قلتُ أننى قبل التقائى بك كنت أبحث لحياتى عن هدف ، والآن أنت هدفى وشغلى بل حياتى ، ولم يعد لى مطلب عداك . أنا أعلم أننى منك وبك أستطيع أن أستخلص من نفسى أحسن ما بها ، فعليك إذن ارشادى وهدايتى إلى الجميل والخير ، وإلى الله وأسأله أن يمدَّنى بعونه كيما أنتصر على معارضة والدىّ ؛

وحتى يكون لسؤالى إيَّاه أوقع الأثر ، هأنا أدون صلاتى الضارعة هذه : « ربِّ لاتلزمنى معصية والدىّ . أنت تعلم أننى أحب روبير وليس فى طاقتى أن أكون لسواه » .

الحق أننى لم أدرك ما قد يكون هدف حياتى إلا منذ الأمس فقط ؛ نعم لم أدرك ذلك إلا بعد هذا الحديث الذى جرى بيننا فى حديقة التويلرى إذ أظهرنى على الدور الذى تقوم به المرأة فى حياة عظماء الرجال . لشدَّ ما أنا جاهلة . . . فلقد نسيت لسوء حظى ما ضربه لى من أمثلة لذلك ؛ على أننى أذكر هذا وهو أن حياتى كلها يجب أن تخصص له من الآن حتى تهيىء له أداء رسالته المجيدة . ليس هذا بطبيعة الحال ما قاله لى ، لأنه متواضع ؛ ولكنَّ هذا ما فكرت أنا فيه فأننى به فخورة . ثم إنَّنى أعتقد أنه على تواضعه يعرف تماماً قدر نفسه ولم يخف عنى أنه واسع الطموح .

قال لى فى ابتسامة ساحرة : ليس غرضى أن أبلغ مطامعى وإنما غرضى العمل على أن تنتصر المبادىء التى أمثلها .

ليته أتيح لوالدى أن يسمعه . ولكن والدى فى كل مايتصل بروبير ، شديد العنت حتى لقد يرى فى قول روبير

ما يسميه . . . لا ! لا أريد حتى أن أكتب ذلك . كيف لايدرك أن عبارات كهذه لاتسىء إلى روبير وإنما تسىء إليه ؟ إن ما أحبه بصفة خاصة فى روبير ، هو أنه لايتهاون مع نفسه قط ، ولا يفوته مطلقاً ما يتحتَّم عليه نحوها ؛ ويخيَّل الى أن الغير جميعاً بالقياس إليه يجهلون ماهو حرىٌّ أن يدعى كرامة ؛ وفى وسعه بها أن يسحقنى ان شاء ، إلا أنه يعنى إذا ما خلونا إلى أنفسنا بألاَّ يشعرنى بها قط ؛ بل أراه أحياناً يسرف بعض الاسراف إن خاف أن أشعر أننى فتاة صغيرة بالقياس إليه فاذا به فى هذه الحال يهزل كالأطفال . ولقد لمته بالأمس على ذلك وإذ ذاك اتخذ مظهراً فيه جدٌّ كثير ، وتمتم فى شىء من الحنين فاتن :

— ما الرجل إلا طفل هرم . وكان قد جلس ازاء قدمىَّ ووضع رأسه على ركبتىّ .

من دواعى الأسى حقاً أن تذهب هباءً عبارات بهذا الظرف ، عبارات أحياناً ما تكون بعيدة المرمى ، مليئة المعنى . وعهدٌ علىَّ أن أضمِّن هذه الكراسة جلَّ ما أمكن تدوينه منها ، وأنا واثقة من أنه سوف يسرُّ إذا ما وجدها فيما بعد .

لقد فكرنا فى كتابة هذه اليوميات على أثر هذا الحديث خاصة . لا أدرى لم أقول ذلك فى صيغة الجمع فهذه الفكرة ،

كغيرها من جيد الفكر ، إنما ترجع إليه هو . وموجز القول أننا تعاهدنا على أن يكتب كل منا على حدة ما أسماه هو قصتنا ؛ فأما فيما يتعلق بى فان الأمر يسير لأننى لا أحيا إلا به ، وأما فيما يتعلق به فلا ثقة عندى فى أن يبلغ مايريد ، وان توفر له الوقت ، وإنى لأكره أن يشغل فكره بهذه اليوميات أكثر مما ينبغى . ولقد حادثته طويلا فى أننى أدرك تمام الادراك أن له مهنته وآراءه وحياته العامة ، وفرضٌ على حبى ألاَّ يقف فى سبيلها ، وأنه إن صحَّ أن يكون هو كل حياتى فليس بسائغ أن أكون أنا كل حياته . يشوقنى أن أطلع على مادوَّنه بيومياته فى هذا الصدد ؛ ولكننا أقسمنا قسماً عظيماً ألا يطلع أحدنا الآخر على يومياته .

قال وهو يقبِّلنى ، لا على جبينى وإنما تماماً فيما بين عينىَّ كما يروقه أن يفعل : أنه على هذا الشرط فقط يمكنه أن يكون صادقاً فيما يكتب .

على أننا اتفقنا أن من مات منا أولاً خلَّف الآخر يومياته ؛ ولما قلت فى شىء من البلاهة : « إن هذا أمر طبيعى » قال هو بلهجة فيها جد كثير : « لا ، لا ، إنما علينا أن نتفق فقط على ألا نتلف هذه اليوميات » .

كنت تبسم حين قلتُ أننى لن أجد ما قد أدوّنه فى هذه اليوميات . وها أنا قد ملأت بها فعلا أربع صفحات . أجد مشقة جسيمة فى أن أردَّ نفسى عن استعادة قراءتها ، فاذا ما استعدتها وجدت مشقة أكبر فى أن أردَّ نفسى عن تمزيقها . وما تدهشنى حقاً إنما هى هذه المتعة التى بدأت ألقاها فى كتابتها .

١٢ أكتوبر ١٨٩٤

لقد استدعى روبير فجأة إلى پيرپيان إلى جوار والدته وكان قد وصلته عن صحتها أخبار سيئة .

قلتُ له : أرجو ألاَّ يكون هناك أمر ذو بال .

وأجاب فى ابتسامة جادَّة تنم عما فى قرارة نفسه من قلق : « هذا ما يقال دائماً » . فلمت نفسى فى الحال على عبارتى السخيفة هذه .

وإذا اقتضى الأمر أن أتجرد فى حياتى من كل الحركات التى تصاحب حديثى وكل العبارات الدارجة التى ألوكها لمجرد الكلام فأننى لا أدرى ما قد يتبقَّى بعد ! كان لابد لى من الاتصال برجل متفوق حتى أتبين ذلك جلياً . وإنه ليعجبنى من روبير

أنه لا يقول ولا يفعل شيئاً كما يقول ويفعل سائر الناس ؛ ومع ذلك لن تجد فى قوله أو فعله أثراً للادعاء أو التكلف . فكرت طويلاً فى النعت المناسب الذى يميزه من الآخرين فى مرآه وزيّه وفى حديثه وحركاته ؛ فلفظ «غريب» أرى فيه غلواً ، أأقول «فريداً» أو «وحيداً» ؟ لا ... ، إنما أعود إلى لفظ «ممتاز» كم أودّ لو أن هذا اللفظ لم ينعت به سواه . وفى رأيى أنه لا يدين إلا لنفسه بهذا الامتياز غير العادى ، فى شخصيته وفى مسلكه ، لأن أسرته ، على ما فهمت منه ، كانت إلى حدّ ما من عامة الناس. قال إنه لا يخجل من أهله وفى ذلك ما يحمل على الاعتقاد بأن هناك نفوساً ، تقل عنه استقامة وكرماً ، وقد تجد فى هذا النسب ما تستحى منه . كان والده على ظنى ، يشتغل بالتجارة وكان روبير صغيراً جداً حين فقده ؛ هو لا يحب أن يتكلم عنه وأنا لا أجرؤ على سؤاله ، وعندى أنه يحب والدته كل الحب ؛ قال لى يوماً ، قبل أن تزول بيننا الكلفة : « إن حقّ لك أن تغارى كان ذلك منها دون سواها » . وكانت له أيضاً أخت تصغره وتوفيت .

أريد أن أغتنم فرصة تغيبه ، بما تتيحه لى من فراغ ، لأروى هنا كيف تعارفنا . كانت والدتى تودّ لو أننى صحبتها إلى حفلة

شاى تقيمها أسرة دار بليه ويعزف فيها على الكمان موسيقى مجرى يقال إنه ماهر كل المهارة ، ولكننى تعللت بصداع حاد انتابنى وذلك كيما أترك فى هدوء وحدى . . . مع روبير . أنا لا أدرك الآن كيف ظللت مفتونة بمسرات المجتمع ولهوه طول المدة التى كنت فيها كذلك . أو بالأحرى أنا أدرك الآن فى حسرة أن ما كان يفتننى منهـا هو ما كان يرضى غرورى . الآن لا أتطلب سوى رضاء روبير ولا يعنينى أن يرضى الغير عنى ، أو هو إن عنانى فمن أجل روبير وما ألمسه من سروره برضى الغير عنى . فى ذلك الوقت ، الذى على قربه يبدو لى الآن بعيداً كل البعد ، كنت أعلّق أهميـة كبرى على ابتسامات الرضى وعبارات التقريظ ، بل على أمارات الحسد والغيرة التى كانت تبدو من بعض أترابى . وأرانى وأنا جالسة إلى بيان ثان أعزف — فى شىء كثير من النجاح ، وبه أقر — مقطوعة الأوركسترا المفروضة علىّ من كونشرتو الخامس لبتهوفن بينما كانت روزيتا تقوم «بالسولو» . وكنت أتكلف التواضع الجم فى حين كان اغتباطى على أشده لأن أرى ثناء الناس علىّ يزيد عن ثنائهم عليها. كان الناس يقولون : « روزيتا هذا لا يدهشنا منها والموسيقى حرفتهـا أما إيفلين . . . » . أما الذين كانوا يصفقون لنا أشد

التصفيق فكانوا قوماً لا يفقهون شيئاً فى الموسيقى ؛ كنت أعرف ذلك ولكننى كنت أتقبل منهم اطراءهم وكان الأحرى أن أضحك من هذا الاطراء ، بل لقد ذهبت إلى أن أولئك القوم ربما كان تذوقهم للموسيقى أكثر مما كنت أظن . وعلى هذا كنت أترك نفسى تنقاد إلى هذا العبث السخيف ... بلى ، أرى الآن نوع التسلية التى يمكن أن نتسلّى بها فى هذه المجتمعات وأقصد التفكه على الناس والسخرية منهم ؛ غير أننى ما وُجدت فى مجتمع إلا وشعرت أننى أكثر الموجودين مدعاة للتفكه والسخرية ... أنا أعرف أننى لست جميلة جداً ولا ذكية جداً ولست أدرى أى شىء عندى رآه روبير جديراً بالحب . لم تكن لى من أسباب النجاح فى المجتمع إلا بعض المهارة فى العزف على البيان ؛ ولكننى انصرفت عن البيان منذ بضعة أيام انصرافاً لا شك فى أنه نهائى . فَلِم العزف وروبير لا يميل إلى الموسيقى ؟ هذا عيبه الوحيد فيما أرى ، ولكنه على النقيض من ذلك ، يهتم اهتماماً نابهاً بالتصوير حتى لأتساءل لمَ لا يحاول التصوير . ولما حدثته فى ذلك ابتسم قائلا : « إذا ما المرء « ابتُلى » (وهذا هو اللفظ الذى استعمله) بمواهب متعددة متباينة تعذّر عليه توجيه عنايته إلى ما كان منها أحق بالعناية » . فأنه حتى يعنى عناية

جدِّية بالتصوير كان لزاماً عليه أن يضحِّى بأشياء أخرى . وقال إنه يقدّر أنه إذا وجَّه عنايته للتصوير فلن يتاح له أن يؤدى أكثر ما يستطيعه من خدمات . أظنه يريد أن يشتغل بالسياسة ولو أنه لم يذكر لى ذلك فى صراحة ، على أية حال أنا واثقة من أنه سينجح مهما كان ذلك العمل الذى يتخيره ، حتى أنه قد يحزننى بعض الحزن أن أشعر أن حاجته إلىَّ لكى ينجح فى أى عمل ضئيلة تكاد لا تذكر ؛ ولكنه طيب القلب إلى حدّ بعيد حتى ليدَّعى أنه لا يمكنه الاستغناء عنى . ولدعواه هذه فى نفسى أعذب الوقع فتراتى أتقبل كلامه دون أن أومن به .

ها أنا أنساق إلى الكلام وكنت عاهدت نفسى ألا أتكلم عنها ؛ ولقد أصاب الأب بريدل فى تحذيرنا من شراك الاثرة إذ يقول إن الاثرة قد تستخفى أحياناً بقناع الإخلاص والحب فتحسن التستر .

نحب أن نخلص للذة التفكير فى أننا صالحون ، ونحب أن نسمع الناس يقولون لنا ذلك ؛ فأن الاخلاص التام هو الذى لا يعلم به أحد إلاالله والذى لا ينتظر رعاية أو ثواباً إلاّ منه . على أننى اعتقد أنه ما من شىء يعلِّم التواضع أحسن التعليم سوى أن نحب شخصاً جديراً بالتقدير . وأننى لا أتبيَّن فعلا مدى قصورى

إلا بجانب روبير وأود لو أستطيع أن أضم قليل نفسي إلى كثيره . كنت قد بدأت حديثي وفي نيتي أن أروي حديث قصتنا وفي البدء كيف كان لقاؤنا .

كان ذلك من ستة أشهر وثلاثة أيام ، في ٩ ابريل ١٨٩٤ ، وكان والدي قد وعدني برحلة إلى إيطاليا احتفالا بالجائزة التي حصلت عليها في معهد الموسيقى ؛ ولكنّ وفاة عمي ومشاكل الإرث لوجود أولاد قصّر أخرت سفرنا . كنت قد نبذت فكرة السفر جانباً وإذا بوالدي يقرر فجأة ترك والدتي مع بنات عمّي الصغيرات في باريس واصطحابي إلى فلورنسا لقضاء عطلة عيد الفصح ؛ وفي فلورنسا نزلنا « بنسيون جيرار » الذي تبين أن السيدة دي ت . . . كانت صائبة إذ نصحت به .

كان النزلاء كلهم من صفوة المجتمع حتى أن الاجتماع بهم إلى المائدة المشتركة كان أمراً غير ثقيل . كانوا ثلاثة من السويديين وأربعة من الأمريكيين والجلزيين وخمسة من الروسيين وسويسرياً واحداً ، ولم يكن هناك فرنسيون غيرنا وروبير . كنت تسمع كل اللغات ولكنك كنت تسمع الفرنسية بصفة خاصة لأن الروسيين كانوا يتكلمونها وكذلك السويسري ثم نحن الثلاثة وبلجيكي نسيت أن أذكره . لم يكن أحد من النزلاء ثقيلا

ولـكن روبير كان يفوقهم جميعاً . وكان يجلس إزاء والدى ، ومن عادة والدى أن يبـدى بعض التحفظ لمن كانوا من غير مجتمعه بل كثيراً ما يظهر الجفاء لهم . ولمـا كنا آخر الوافدين إلى البنسيون كان طبيعياً ألا نشـترك فى الحديث تواً ؛ أما من ناحيتى فإن رغبتى فى الـكلام كانت شديدة جداً غير أنه لم يكن من الحياء أن أبدى تلطفاً لم يظهره والدى فحاكيت تحفظه . وإذ كنت أجلس إلى جانبه ، كان سكوتنا وسط هـذه الضوضاء العامة يخلق شبه جزيرة صغيرة من الصقيع . وكان مما يبعث على الفكاهة أننا كنا لانستطيع أن نذهب إلى مكان ما دون أن نلتقى ببعض نزلاء البنسيون ، وكان والدى يرى نفسه مضطراً إلى الرد على تحياتهم وابتساماتهم ، فإذا ما جلسنا بعد ذلك إلى المائدة عرف الجميع أننـا عائدان من سانتا كروس أو من قصر بيتى . وكان والدى يقول : « هذا لا يطاق » ؛ ولـكن تحفظه كان يزول شيئاً فشيئاً . أما روبير فكنا نلتقى به فى كل مكان ، فإذا دخلنـا كنيسة أو متحفاً كان نظرنا يقع أول ما يقع على روبير . فكان والدى يصيح : « ها ! مرة أخرى ! » . وكان روبير ، فى بدء الأمر ، يتظاهر بأنه لايرانا حتى لايثقل علينا ، فقد كان أزكى من أن تفوته أن هذا اللقاء المتتالى كان يثير سخط والدى ، فكان

يتريث إلى أن يتفضّل والدى بالتعرف إليه ، ثم هو لا يبدأه التحية تحرجاً منه وكان لذلك يتكلف الانهماك فى مشاهدة تحفة من التحف . وكان والدى ، فى بعض الأحيان ، لا يحييه إلا بعد فترة طويلة لأنه كان إزاء روبير بصفة خاصة يتكلف أشد التحفظ وكنت أشعر ببعض الحرج من ذلك ، فإن تحفظه هذا كان يبلغ حداً يدنيه من القحة — يمكننى أن أقول ذلك حقاً . ولولا أن روبير كان طيب الخصال لرأى فى مسلك والدى ما يؤاخذ عليه . وإذ كنت لا أستطيع أن أمنع نفسى من الابتسام كان يفهم أنه لم تكن هناك نية سيئة من جانبى ، أنا على الأقل . وكان يتعذر علىَّ ألا أبتسم لأن والدى كان أشد جفاء نحوه ؛ ولحسن الحظ كان والدى لا يفطن إلى شىء لأن ذلك كان يحدث من وراء ظهره . وكان روبير كيِّس التصرف إذ كان يحرص ألا يبين لوالدى أنه يراه وألا يوجه إلىَّ الكلام مباشرة ، ولو أنه فعل لأغضب والدى . كنت ألوم نفسى بعض اللوم على هذا اللعب الذى كان يخلق فيما بينى وبين روبير ، وفى خفية عن والدى ، نوعاً من التخاطب الصامت ؛ ولكن لم تكن هنالك سبيل لتجنب هذا اللعب .

كان يزيد من تحفظ والدى أن روبير لم يكن من نفس آرائه .

لم أكن أدرك تماماً ما كانت آراء والدى ، لأننى لا أفقه فى السياسة شيئاً ، ولـكننى أعرف أن والدتى تؤاخذه على ما تسميه «ماديته» وأن والدى لا يحب «القساوسة» كثيراً . حينما كنت أصغر سناً كنت أدهش كيف يكون والدى طيب القلب جداً ، ثم هو لا يذهب إلى الـكنيسة لحضور الصلاة . ولست أحسب من الصواب قوله: « إن الدين لا يجعل الناس خيراً مما هم » . تراه والدتى عنيداً ولـكننى أعتقد أنه أطيب منها قلباً ، فانهما إذا ما تجادلا ، وهذا ما كان يحدث أكثر مما تقتضيه الضرورة ، خاطبته والدتى فى لهجة مثيرة ، فإذا بعطفى كله يتجه إليه ، وإن كنت لا أوافقه فى رأيه . وهو يقول إنه لا يؤمن بالجنّـة ، إلا أن الأب بريدل يجيبه بأنه سوف يتحتم عليه الايمان بها ، لأنه سوف يذهب إليها فتسلم روحه رغماً عنه ، وهذا ما أومن به من كل قلبى .

هذا الانقسام فى أسرة كأسرتى ، يسودها أوثق التآزر ، يبعث فى النفس الأسى . . . وفيم الانقسـام ! فى أمور قد يكون من اليسير التفاهم فيها لو أن كلاً أبدى بعضاً من الهوادة . ! على أية حال أنا لا أخشى من ذلك شيئاً على علاقتى برويير لأننى ما رأيته قط يدخل كنيسة إلا صلىَّ فيها ، ثم إن آراءه ليس فيها

إلا كل كريم نبيل . لا أعتقد أن جريدة « لا ليبر پارول » جريدة رديئة كما يزعم والدى ، وهو لا يقرأ إلا جريدة « الطان » ولقد حسبت أن الأمر كاد يفسد بينهما فى اليوم التالى لحضورنا إلى « پنسيون چيرار » إذ جلس روبير ووالدى فى غرفة التدخين أحدهما إزاء الآخر ؛ كان باب الغرفة مفتوحاً على مصراعيه واستطعت أن أراهما ، كلا منهما فى مقعده وأمامه جريدته ، ولما أن أتمَّ روبير تصفح جريدته ناولها دون وعى إلى والدى موجهاً إليه كلمات لم أسمعها . عندئذ ثارت ثائرة والدى حتى أنه قلب على سرواله الفاتح اللون قدح القهوة الذى كان قد وضعه على ذراع مقعده . اعتذر إليه روبير وألحَّ فى الاعتذار ولو أنه لا ذنب له حقاً فيما كان . وبينما كان والدى يجفف سرواله بمنديله ، رآنى روبير وأنا جالسة فى غرفة الاستقبال ، فأومأ إلىَّ فى اشارات تكاد لا ترى ولكنها كانت على خفتها تعبر عن أسفه تعبيراً بليغا ؛ كانت هذه الاشارات مضحكة بحيث لم أتمالك من الضحك ، وأدرت رأسى فى سرعة حتى لا يتوهمَّ أحد أننى أهزأ بوالدى .

وفى اليوم السادس أصيب والدى بنوبة نقرس . . . ، أوه ! لا يليق بى أن أفرح بذلك ! طبيعى أننى عرضت عليه أن أظلَّ إلى

جانبه أقرأ له ، ولكن كان الجو جميلا جداً وقد ألزمنى هو أن أخرج ، فاغتنمت فرصة غيابه لأزور كنيسة الاسبان لأنه لا يحب المصورين الأولين . وبالطبع وجدت روبير هنالك ولم يكن بد من أن نتبادل الكلام . بعد أن أبدى دهشة من حضورى وحدى ثم بعد أن استفسر فى أدب عن صحة والدى ، لم نتحدث إلا عن التصوير . وكدت أكون سعيدة بجهلى إذ أتاح لى أن يتولى روبير شرح كل ما نرى . كان معه كتاب ضخم ولكنه لم يحتج لفتحه إذ كان يعرف عن ظهر قلب أسماء جميع المصورين القدماء . ولم أستطع أن أشاركه تواً فى إعجابه وتفضيله للوحات كانت تبدو لى حينئذ لا شكل لها تماماً ؛ غير أننى كنت أشعر أن كل ما يقوله عنها صحيح وأن عينىَّ كانتا تتفتحان على وجوه من الحسن ما كنت ألحظها لو كنت وحدى ، ثم رأيتنى أنقاد له وأتوجه معه إلى دير سانت مارك حيث خيِّل لى أننى أفهم التصوير لأول مرة . لشدَّ ما كان رائعاً أن نفنى ونذهل عن أنفسنا فى إعجاب مشترك حتى أننا لما بلغنا لوحة « أنجليكو » رأيتنى فى غير وعى أتأبط ذراعه ، ولم أتنبه إلى ذلك إلا بعد أن دخل بعض القوم الكنيسة الصغيرة حيث كنا وحدنا إلى تلك اللحظة . ومع أن روبير لم يقل شيئاً لا يصح أن يسمعه والدى فأننى مع ذلك لم أجرؤ

على أن أحدثه به بعد عودتى . لا شك فى أنه فعل ردىء تكتمى هـذه المقابلة التى تركت فى نفسى ذكريات لم أعد أستطيع أن أفكر فى سواها . على أننى لما آخذت نفسى على هذا « الكذب بالاغفال » ، وذلك فى أثناء اعترافى للأب بريدل فيما بعد ، طيَّب خاطرى . . . والحق أنى أخبرته بخطبتى فى الوقت نفسه . والأب بريدل يعرف أن والدى لا يوافق على هذه الخطبـة كما يعرف أن مانعه من الموافقة هى آراء روبير السياسية ؛ مع أن هذه الآراء نفسها هى التى تحمل أمى والأب بريدل على الموافقة عليها ؛ على أن والدى طيّب القلب إلى حدّ كبير فلم يستطع أن يمانع طويلا وكما يقول إن ما يهمه قبل كل شىء هو أن أكون سعيدة ، وهو لا يمكنه أن يشك فى سعادتى .

كان أحرى بى قبل حـديث خطبتنا أن أتكلم عن الأيام الأخيرة فى إيطاليا ، ولـكنى تركت قلمى يجرى فى سرعة إلى هذا اللفظ العجيب الذى تشحب أمامه باقى ذكرياتى . قبل أن نرحل من فلورنسا طلب روبير إلى والدى أن يسمح له بزيارتنا فى باريس . كنت وجلة كل الوجل من أن يرفض طلبه ، ولكن تصادف أن روبير كان يعرف أبنـاء عمى من أسرة بير فدعونا للعشاء معه ، وهذا ما يسَّر الأمور إلى حد بعيد . وفى الغداة حضر

روبير ليقدم احترامه لوالدتى، ثم عاد بعد بضعة أيام يطلب يدى (كم تبدو هذه العبارة سخيفة !) . أبدت والدتى فى أول الأمر بعض الدهشة ، وكانت دهشتى أشد حين أبلغتنى الأمر ، لأن روبير لم يكن بعد قد « فاتحنى » برغبته فى خطبتى . ولقد ضحك طويلا لما اعترفت له بذلك و « فاتحنى » بأنه لم يفكر فى هذا الأمر من قبل وأنه على أتم استعداد لهذه « المفاتحة » إن كنت لم أدرك بعد أنه يحبنى ، ثم أخذنى بين ذراعيه وشعرت أننى أيضاً فى غير حاجة إلى الكلام لكى يدرك أننى أهبه نفسى بأكملها .

وصلتنا الآن برقية ، تركت والدتى تفضها مع أنها موجهة إلىَّ . قالت : « لقد توفيت والدة روبير » ، ثم ناولتنى البرقية فلم أر فيها إلا أمراً واحداً : هو أن روبير سوف يعود إلىَّ فى يوم الأربعاء .

١٣ أكتوبر

كتاب من روبير ! ولكنه موجّه إلى والدتى ! وأعتقد أنها تأثرت تماماً بهذا الدليل على الاحترام . وأدرك أن والدتى

ترغب فى الاحتفاظ به لأنه جميل جداً ؛ ولما كنت أريد أن أتمكن من استعادة قراءته فيما بعد فأنا أنقله بنصه :

سيدتى

سوف تغتفر لى إيڤلين أنى أكتب إليك اليوم لا إليها . أريد ألا أعرِّض فرحها للتأثر بمشهد حزنى ، فإليك أنت ألجأ للبكاء . هذا الإسم الجميل ، وأعنى به أمى ، لم يعد يتاح لى أن أطلقه على أحد سواك من بعد الأمس . وسوف تسمحين لى إذن ، ولا شك ، أن أحوّل إليك عواطف التجلة والحنان التى كنت أكنها لمن بالأمس فقدتها.

نعم ، لقد ماتت أمس تلك التى وضعتنى حياً ، وفى إمكانى أن أقول إنها ماتت بين ذراعىَّ . لم تفقد حواسها إلا قبل وفاتها بساعات قليلة ، وكانت إلى هذا الصباح متيقظة حينما أدَّت على يد الكاهن الذى استدعيته آخر فروض دينها . كانت تستقبل الموت فى سكينة ، ويخيَّل لى أنها لم تكن تحزن لشىء سوى حزنى . ولقد قالت لى ان آخر ما يسعدها فى هذا العالم أن تعلم خبر خطبتى ، وأن تفكر فى أنها لا تتركنى فى هذه الدنيا وحيداً . أرجو أن تبلغى إيڤلين هذا القول ، وأن تذكرى لها أن سوف يكون أسفى الدائم أن والدتى لم يتح لها أن تعرفها .

وأرجو أن تتقبلى ياأماه تأكيدى لأخلاصى الدائم واحترامى البنوى .

روبير د.

ياصديقى المسكين ، كنت أود أن اشاركك فى الحزن ، ولكن عبثاً حاولت الشعور بالأسى ، فإن قلبى يغمره الفرح ، وكل ما أشعر به معك حتى الألم يسعدنى .

١٥ أكتوبر

عاد ورأيته فى حزنه جمال ووقار أعجب بهما . لقد بدأت الآن أفهمه أحسن من قبل . أعتقد أنه يمقت تماماً تلك العبارات المصنوعة فإنه يبدى فى حزنه نفس التحفظ الذى ابداه عند ما فاتحنى بحبه ، وتراه يتجنب كل ما يثير شجنه مخافة أن يظهر تأثره ، لذلك لم يتناول حديثنا سوى المسائل المادية . وكذلك كان حديثه مع والدتى ، فإنه جرى حول التركة وإجراءاتها وبيع العقار الذى آل إليه . عسير علىَّ أن أشغل ذهنى بهذه الأمور ، وأننى أترك لوالدتى أمر ترتيبها مع روبير . فهمت أننا سنكون

أثرياء ويكاد ذلك يؤسفنى ، فبودى لو أترك المال لأولئك الذين يعوزهم المال ليسعدوا . ولكن لا شأن للسعادة هنا . ويقول روبير فى هذا الصدد أن ما سيكون لديه من مال ، قلَّ أو كثر ، سوف يكفيه ، وأنه لا يقدِّر المال إلا من حيث إنه أداة تتيح له انتصار آرائه . ولقد جرى بينه وبين الأب بريدل حديث طويل فى هذا الشأن ، فقال الأب بريدل : « لاحق لنا فى رفض ما يأتينا من مال ولكن فرض علينا صرفه فى وجوه البرّ والإحسان » .

مسكين أبى ! كل ذلك يجرى وهو لا يدرى ؛ وما من مرة رأى فيها الأب بريدل داخلا المنزل إلا عاجله بقوله : « أنا آسف ! أنا مضطر للخروج اضطراراً » . ثم يحيي تحية خاطفة وينصرف . خوفى الدائم أن يتأثر الأب بريدل من هذا التصرف ؛ ولكنه طيب القلب جداً كثير الهوادة حتى ليتظاهر بتصديق هذا الاعتذار الواهى فيسأل والدتى : « هل كان السيد ديلابورد مشغولا هكذا دواماً ؟ » . وتبذل والدتى وسعها مضاعفة له ملاطفتها حتى تصلح من أثر هذا التصرف القبيح . وفى رأيى أن لو شاء والدى لكان من اليسير تفاهمه والأب بريدل لأن والدى هو الآخر طيب القلب جداً .

ولما تحدثت إلى والدى فى هذا الشأن ، محاولة إقناعه بضرورة

هذا التفاهم أجاب : « يا بنيتى إننى والقسس لا نعبد إلهاً واحداً. لا تلحى علىّ فإننى قد أغضب ، وهـذه أمور قد تفهمينها فيما بعد إن كنت لا تشبهين أمك كل الشبه » .

وأرانى عندئذ مدفوعة إلى القول له إن هـذه « الأمور » أرجو ألا أفهمها أبداً ، إذ لا يسعنى قبول آراء تدعو للتفرقة بين أبوين أحبهما حباً متكافئاً ، وذلك فضلا عن أن هـذه الآراء اللعينة هى نفسها الحائل الوحيد دون موافقته على خطبتى .

ولقـد أضاف والدى إلى سابق قوله : يا بنيتى أنا لا أرى لنفسى حقاً فى أن أعارض هذا الزواج ؛ ولئن كان لى هذا الحق فلا يسرنى استعماله . ولـكن أطلب إليك ألا تسألينى الموافقة على قرار أنا آسف أنك اتخذته . . وكل ما فى استطاعتى هو أن أتمنى ألا تندمى على قرارك هذا فى يوم قريب .

١٩ أكتوبر

فى هذا الصباح سألت والدى عما يأخذه على روبير ، فنظر إلىّ طويلا وزمّ شفتيه برهة ثم قال :

— يا بنـيّتى ، أنا لا آخذ عليه شيئاً ، الأمر بسـيط ، إنه

لا يعجبنى . إن أنبأتك السبب احتججتِ لأنك تحبينه ، وإذا أحببنا أحداً رأيناه غير ما هو .

فصحت به : بل أنا أحب روبير لأنه كما هو .

ولكنه قال :

— إن روبير يوهم الأب بريدل ، كما يوهم والدتك ويوهمك ، وأخشى أن يكون لنفسه أيضا موهماً وهذا أخطر ما فى الأمر .

قلتُ : أتعنى إنه لا يؤمن بما يقول ؟

قال : بلى ، بلى ، إنه يؤمن به ، ولكننى أنا الذى لا أرضاه .

قلتُ : أولاً يا أبتاه ، أنت لا تؤمن بشىء .

قال : وما العمل ؟ ترانى أمك شخصاً سىء الظن .

وعلى ذلك انتهى حديثنا ، لأن هذا النوع من الجدل لا يجدى ولا يعود إلا بالكدر . مسكين أبى ! عسى أن يوفّق روبير ، مع الزمن إلى إقناعه . على أن روبير ، فى تصرفه مع أبى ، يظهر كل الأناة والمرونة واللباقة . إن تحدث إليه جهد فى تجنّب كافة الموضوعات التى قد تثير الجدل ، وكذلك يفعل والدى . ويشبه روبير ما يجرى بينه وبين والدى برقصة البيض ، إذ يحتاج فى حديثه إليه إلى مهارة بالغة ليتسلّل بين دقيق المسائل دون أن

يمسّ إحداها . ليت والدى يسمعه يتحدث ، إذ يتحدث إلىّ حين يكون هو غير موجود ! فإننى أشعر أنه أمام والدى يلاحظ نفسه ويمسكها حتى إذا ما تركها على سجيتها انطلق لسانه فى أقوال جميلة بودى لو أننى أدونها على الفور . وهو على ذلك يستطيع أن يكون مداعباً أريباً ولعوباً طريفاً ، وكما قالت عنه إيفون دى بير : « إنّ الإنسان لا يملّ الإصغاء إليه » . قالت ذلك يوم الخميس الماضى ، وكنا قد تناولنا الغداء مع روبير عند أبناء عمى ، وخرج موريس دى بير ووالدى عقب الطعام مباشرة ، فأخذ روبير يحدثنا طويلاً عن مدينة بربينيان وحياة الريف وما فيها من صغائر الخصومات التى أتيحت له مشاهدتها ، كما حدثنا عن الوسط الذى عاش فيه ، ويقول عنه ، إنه لا يقبل أن يحيا فيه من جديد ، ولو ملك الكون أجمع . يؤسفنى أننى لم أتعرف إلى هذا الجيل العجيب الذى كان منه مجتمع والديه ؛ على أننى أدرك أن نفساً ممتازة ، كنفس روبير ، لا بد من أن تختنق فى جوٍّ كهذا ؛ فأنه ، رغبة فى الفرار من هذا الجو الخانق الذى كان يعيش فيه ، أراد فى مبدأ الأمر أن ينتظم فى سلك الرهبنة ، لأنه بطبعه تقىٌّ كل التقى ، ثم عاد فقدّر أن فى استطاعته أن يقوم بأكثر الخير إن هو ساهم فى الحياة العامة . ويوافقه الأب

بريدل على ذلك . وأنا أشارك الأب بريدل فى أنه لا ينبغى ألا « يحجب عن العالم نور كنوره » كما يقول الأب مستشهداً بالانجيل . إذا استمعت إلى روبير يتحدث ، رجوت رجاء لا سبيل إلى دفعه ، أن يتاح للكثيرين الاستماع إليه ؛ وإننى ، فى هذا الصدد ، لا يمكننى أن أغار ، بل أرى كفراً منى أن أمتع بهذا الكنز وحدى ، فإن هدف حياتى ينبغى أن يكون بذل ما فى وسعى حتى تنتج مواهبه .

علينا أن نقوم معا ، فى الأسبوع القادم ببعض الزيارات ، ويسعدنى أن أقدمه إلى أصدقائنا .

٢٦ أكتوبر

منذ بضعة أيام وأنا أحيا حياة مضطربة ... كنت آمل أن يسعفنى الوقت كل يوم للكتابة فى هذه الكراسة ولكن ليس الوقت وحده مايعوزنى ، فإننى ، حتى فى هذه اللحظات التى أختلى فيها ، لا أصل إلى ذلك التأمل الروحى الذى يتيح لأفكارى أن تستقر .

أنا غارقة فى تيار جارف من الزيارات والتنقلات ومآدب العشاء والملاهى ؛ وروبير ، رغم حزنه ، لا يخشى لحسن الاتفاق

أن يرافقنى إليها ؛ وعلى حدِّ قوله إن الشعور الصادق فى غنىً عن المصطلح من الأوضاع ، ثم إننى أظن أن السعادة، التى يشعر بها لإحساسه بأنه محبوب ، تطغى على حزنه . وهو يرافقنى إلى المتعهدين ، ويشترى لى أشياء عديدة ، يحاول أن يقنعنى بأننا سنكون فى حاجة ماسَّة إليها ، وهذا يسره كل السرور ؛ كما أنه يبدى كل الفرح فى تدليلى حتى أننى لا أحاول منعه من ذلك أكثر مما يقتضى الأمر . ولقد اشترينا معاً خاتماً أرقّ من الهوى لا يسعنى إلا الإقرار بأننى سررت به تماماً ولا أملُّ من الإعجاب به . ولكنه لما أراد أن يهدينى أيضا سواراً رفضت رفضاً قاطعاً بالرغم مما أبداه لى ليزيِّن لى قبوله . قال : إن شراء الحلى لا ينبغى اعتباره إنفاقاً بقدر ما هو « استثمار » ، وهذا هو اللفظ الذى استعمله . ثم وضَّح فكرته قائلاً إن الأحجار الكريمة والمعادن النفيسة « من المنتظر أن ترتفع قيمتها » . واحتججت عليه بأن هذا لا يهمُّنى مطلقاً ، وعلى ذلك حدث نزاع قليل بيننا .

ولا ريب أننى لم أكن موفقة فى مصارحته بأننى كنت اعجب بخاتمى نفس الإعجاب لو أننى جهلت قيمته الغالية ، فلقد صاح على الأثر قائلا :

— لكأنى بك تفضّلين رخيص الحلى .

ثم إذا هو ، كعهدى به ، وهذا مايجعل حديثه إلى هذا الحد شيّقاً ، يطرح الموضوع للنظر « من الوجهة العامة » ، وهى ما تعنيه دون سواها ، فقال موضحاً رأيه :

— الناس ، فى أيامنا هذه ، يقلدون اللؤلؤ أدق التقليد حتى ليخدع به كل فرد ، ولكنّ اللآلئ الحقيقية تمثل ثروةً ، وليس لغيرها إلاّ مظاهرها .

وهو يحرص على حضور تجارب تفصيل ثيابى ، فإنه رفيع الذوق ، ويسرّه أن يتحدث إلى الخياطين وأن يجادلهم ، وكذلك اخترنا قبعاتى سويّاً . من العسير علىّ اعتياد أشكال القبعات الجديدة ، ولكن روبير يرى أنها تلائمنى كل الملاءمة فى حين أننى إذا نظرت إلى المرآة لم أتعرّف إلى نفسى ؛ ولكننى لا أحسب إلا أنه أمر اعتيادٍ وأننى ، كما يقول ، لن أعرف عما قريب وجه الفتاة التى كنت أحمله .

وعلى الإجمال ، أرى أن كل ما ينتقيه جميل جمالاً فائقاً ؛ ولكنى أدرك أنه يحرص على أن أكون فى ملبسى مشرّفة له ثم إنه لم يعد لى حقّ بعد فى أن أكون متواضعة . يعرف الأب بربدل أن قلبى ما يزال على تواضعه ، ويقول إن هذا وحده هو

أهم ما فى الأمر . فى كل يوم أدهش لنفسى من جديد ولا أكف عن الاعتقاد فى أننى لست أهلاً لسعادتى ... فترانى أحيانا أخشى أن يكتشف روبير مدى غلوّه فى فضائلى ؛ ولعلنى ، بما أكنه له من حب شديد ، سوف أرقى إليه يوماً . أرجو ذلك من كل قلبى ، ولن آل جهداً حتى أبلغ مرادى ؛ وهو يساعدنى على ذلك فى صبر كريم .

٣٠ أكتوبر

روبير مدهش حقاً ... له علاقات بعدد كبير من المشاهير كما له معارف فى جميع الأوساط ، وهذا ما يتيح له مساعدة الذين يقصدونه . ولما كان معروفاً عنه أنه خدوم جداً لم يتحرج فى قصده من له حاجة . وهو يقول إن من أحكم الحكم فى هذه الحياة ألاّ تطلب أبداً أمراً لست واثقاً من نواله ؛ ولكن لما كان الذين يخدمهم لا يرفضون له مطلباً فانه كان لا يطلب إلا عدلا وكان لذلك يحصل فى غير عسر على كل ما يطلب . لروبير صلات بكل مكان ، والأبواب كلها مفتوحة له ؛ ما دخلت معه مكانا إلا رأيت الأيدى تمتد إليه فى الحال . ولقد طلبت

إليه ألاَّ يقدمنى إلاَّ إلى أصدقائه الحقيقيين ، غير أنه من العسير متى عرفته قليلا ألاَّ تصبح له صديقاً . ولأنه مطلع على كل شئ تراه قادراً على التحدث إلى أىّ كان ، وفى أى موضوع ، وكأنه مختص فيه . على أننى ، إذا نشدت الحق ، لا أحسب أن له أصدقاء حميمين ، ولما سألته عن ذلك فى اليوم الماضى ، لم يجب مباشرة وإنما قال ، بينا كان يضمنى فى حنو إلى صدره : « إنما الصداقة مدخل الحب » .

وفعلاً ، ها قد اتضح اليوم لى أن صداقتى الشديدة «لروزيتا» و « ايفون » ما كانت إلا صداقة موقوتة ، و ن أول صديق حقيقى لى إنما هو روبير .

وهو يريد أن يفاجىء والدى بخبر الإنعام عليه بوسام الشرف ، ولما كان يعرف مدير مكتب وزير المعارف معرفة وطيدة فانه يؤكد أن ذلك يسير عليه . وعندى أن والدى لن يرفض الوسام بل لقد يسرّ به سروراً بالغاً . وأراه جميلا من روبير أن يفكر والدى ، وألا يطلب الوسام لنفسه ؛ ولكنه لا يعلق على هذا كبير أهمية ، إذ يعرف أنه سوف يحصل عليه متى شاء . حينما أسمعه يتحدث إلى الممتازين من الناس ، الذين يقدمنى إليهم ، أتبين مدى جهلى ، ولا أكاد أجرؤ على الاشتراك

فى الحديث مخافة أن أبدى ما يخجله . وقد طلبت إليه أن يكتب لى قائمة بأسماء الكتب التى يلزمنى معرفتها ، ومتى توفَّر لى الوقت . . . ولكن متى يكون ذلك ؟ لقد قررنا أن نتزوج فى نهاية شهر يناير وهذا يبدو لى بعيداً كل البعد ، ومع ذلك فإن الأيام تمضى فى سرعة محيِّرة . وسوف نسافر بعد الزواج تواً إلى تونس . لن تكون هذه السفرة للمتعة فحسب ، فان لدى روبير مصالح فى مشروع زراعى يبغى أن يشرف عليه بنفسه . وهو يقول إن أكبر المسرات ما كان منها يعود بالنفع . وعقله فى نشاط مستمر ، فهو لا يفتأ يطلب العلم ويعرف كيف يستفيد بكل ما يقع له .

وأكثر ما يشغل بالنا الآن مسألة السكن . ولقد شاهدنا عدداً كبيراً من المساكن ؛ ولكن ما من واحد عايناه إلا وكان محل اعتراض من أحدنا ، من والدتى أو من روبير أو منى . ولعلنا قد نتفق مع مهندس ، يعرفه روبير معرفة جيدة ؛ وهو على وشك الانتهاء من بناء عمارة ذات موقع ملائم جداً فى حىّ لامويت تطل على حدائق شاسعة ، وسوف نصبح ملاَّكا للدور الأخير فى العمارة ، مما قد يسمح لنا أن نرتبه كما نشاء ، وهكذا نقضى ساعات فى مناقشات عن التصميمات . وليس هناك ما هو

أمتع من ذلك . ولما لم يكن روبير ، فى حياة والدته غنياً فانه كان يقنع بمسكن فى دور أرضى بشارع « أنتان » أقام فيه ثلاث سنوات ، ثم شعر شيئاً فشيئاً أن المسكن يضيق به ، وكان مضطراً إلى تناول طعامه فى المطعم ، وهذا كان يكلفه وقتاً كثيراً ويتعب معدته . ولقد طلبت إليه أن أرى مسكنه ، وأحسبه كان خجلا من أن يرينى إياه ؛ ومع ذلك فاننى دهشت إذ وجدته أكثر نظاماً مما كنت أتوقع . فجميع أوراقه محفوظة فى ملفات أو مظاريف . وقد ابتكر طريقة فريدة للبطاقات تتيح له الحصول فى الحال على كل المعلومات التى يحتاج إليها ، وبهذه الطريقة يستطيع فى يسر ، أن يخدم الغير . وهو يرى أن الناس عامة يفتقرون إلى وسائل التنظيم ، وأن دواليب المجتمع مركبة تركيباً سيئاً . ويحب أن يستشهد بشعر لافونتين : « إنَّ أقل ما يفتقر إليه البشر هى الموارد . » ويزعم أن أهم شىء هو أن نستثمر ما لدينا ، وخاصة بالقياس إلى أولئك الذين رزقهم الله مثله مواهب عديدة . ولما ذكرت له أن مواردى أنا لا يعتدّ بها ، احتجَّ علىَّ ، مؤكداً فى ظرف ، أن كثيراً من النساء اللاتى يتألقن فى بيوتهن وفى المجتمع هُنَّ أقل منى ذكاء ؛ وهو يبدو صادقاً فى قوله هذا ، وأخشى حقاً أن يكون واهماً وهماً عظيماً فى تقدير من ستكون فى المستقبل

قرينتـه . عسى أن يحتفظ بوهمه هذا طويلاً . ومهما يكن من شيء فانني أعمل على تثقيف نفسي ما استطعت ، متى أتيح لى قليل من الوقت ، وأن أسعى يوماً بعد يوم لأن أكون أكثر جدارة به .

كنت أتوق لمعرفة هل استطاع أن يحتجز من وقته ما يتيح له أن يكتب يوميـاته ، هو الآخر ، كما تواعدنا ؛ فطلبت إليه أن يريني إياها . أوه ! لا أن يعطيني إياها أقرأها ؛ وإنما كنت أريد فقط أن أراها . الحق أنني كنت أخشى أن يتركها ملقـاة فى أحد الأماكن دون تحفظ ؛ ولـكنه طمأنني قائلاً إن الدرج الذى يحتويها مغلق فى عناية ، دائماً ، بالمفتاح . وأراني الدرج ؛ ولـكنه أبى أن يخرج منه كراسة اليوميات ، حتى بعد أن وعدته بأنني لن أفتحها .

٣ نوفمبر

بالأمس ، تنـاول معنا العشاء المصور بورجفيلسدورف ؛ وهو على شـناعة اسمه هذا الذى لا أدرى أأكتبه صحيحاً ، ليس بألماني ولا بيهودى ؛ وإنما هو فتى مسكين ، مجتهد ، جدير بالتقدير . ولقد أعانه روبير كثيراً ، فتراه يزحم مسكنه الصغير

بشارع انتان بكدس من لوحات غير قابلة للبيع ، يشتريها إحساناً منه ليساعده دون أن يمسّ إحساسه . ولقد قلت لروبير إننى أراه غير متبصّر فى تشجيعه شخصاً خائباً ، وأنه كان الأحرى به أن يشجعه على أىّ عمل آخر خلاف التصوير ؛ ولكن يظهر أن الفتى المسكين لا يتأتى له أن يؤدى عملا سواه ، وفضلا عن ذلك ، فانه يعتقد أنه موهوب جداً . أما روبير ، فانه يصر على الإقرار له « ببعض النبوغ » . وقد حدث بيننا شىء من النزاع فى هذا الشأن . وحسبك أن تشاهد قشرة لوحة من لوحاته حتى تحكم أن بورجفيلسدورف لا دراية له بفنه ، بل ليست لديه أية فكرة عما ينبغى أن يكون عليه فن التصوير ؛ ولكن روبير يستشهد بعدد كبير من الفنانين الذين كان الناس يعتبرونهم لا دراية لهم بفنهم ، ثم أصبحوا من المشاهير . ثم بعد أن أبدى شيئاً من الغضب ، لأننى لم أتمكن عن صدق من استحسان ما كان يراه حسناً ، أردف فى لهجة حازمة :

— على أية حال ، ثقى بأننى ما كنت أرتبط به إن كان لا قيمة له .

ورغماً عن قوله هذا ، فان روبير لا يجرؤ على أن يعلق فوق جدران مسكنه هذه الصور الفظيعة ، وإنما هو يكدّسها فى خزانة كبيرة ، حيث اكتشفتها لما أجاز لى أن أنقب فى كل مكان

عنده . ولقد كانت لهجته فى كلامه هذا قاطعة ، وهذه أول مرة يخاطبنى فيها بتلك اللهجة حتى جرى الدمع عينى ، ورآه روبير ، فرق قلبه فى الحال ، وقبلنى قائلا :

— إصغ إلىَّ ، أتريدين أن أعرِّفك إياه ؟ ستحكمين بنفسك أهو غبىٌّ كما تظنين .

وقبلت ذلك ، وهكذا دعوناه .

وبعد، هاأناأتقدم بالاعتذار إلى روبير ، فان بورج وايلسدورف كاد يبدو لى لطيفاً ، وأقول « كاد » لأنه ، رغم كل شىء ، هناك مايصدمنى منه ، وذلك هو قلة اعترافه بالجميل ، إذالم يحسن أن أقول جحوده التام ؛ فأنه يتناسى تماماً ما هو مدين به لروبير ، بل إنه ليبدى له شيئاً من عدم الاحترام . أنا أعلم أن ما يقوله لا خطر له ، كما أن فى لهجته الصادرة عن القلب مايخفف من حدة لفظه ، ولقد سمعته أكثر من مرة يصيح : « ياصاحبى إن ماتقوله واه ، لا أساس له » مع أن روبير يكون قد أبدى ملاحظة من أصوب الملاحظات ، وربما كان صاحبنا لم يتم حتى الاصغاء إليها . وعلى نقيض ذلك ، كنت تراه يوافق على كل ما كان يقوله أبى ، وذلك فى ذلفى تحليها بشاشه وأدب جمٍّ ، حتى لتكاد تعتقد فى صدقه ، حتى أن والدى فى آخر الأمر كان يغمره السرور .

كنت أتوقع أن أرى شخصاً بوهيميّا ، ولكننى شاهدت سيّداً حسن البزة ، بل إلى حد ما ، أنيقاً فى ملبسه ، مهذباً ، معنياً بنفسه ، ومن المؤكد أنه ذكى . وهو يروى ، فى أسلوب فاتن ، كثيراً من الحكايات المسلية . وحديثه قد يكون أكثر مما سمعت طلاوة ، لولا أن دأبه المناقضات .

وأنت لا تدرى قطعاً أيهزأ بك فى حديثه أولا يهزأ ؛ مثال ذلك ، حين يزعم أنه يفضّل رفاييل وبوسان على غيرهما من المصورين ، فى حين أن تصويره الخاص لايوحى بذلك إطلاقاً . وجملة القول أننا قضينا معه ليلة طيبة ، وأعتقد أنه يسرنى أن أراه فى المستقبل . ولكن بين هذا وبين أن يقوم بعمل صورة لى كما طلب إليه روبير فجأة . . ! لم نكن نتوقع ، لا أنا ولاهو ، مثل هذا الطلب ، حتى أننا مكثنا برهة لانعرف مانقول ؛ فكان فى تصرفه هذا طائشاً . وأرى أنه كان فى وسع روبير أن يستشيرنى قبل أن يوجه إليه هذا الطلب ؛ ولئن كان قد فعل ، لكنت ذكرت له أننى سوف أكون مشغولة إلى يوم الزفاف ، وأنه لن تكون لدى فسحة من الوقت أجلس إليه فيها ليصورنى ، وأننى مضطرة إلى إرجاء التمتع بهذه « المتعة » إلى حين عودتنا من رحلة شهر العسل . وهذا ما أجبت به فعلا لما أن طلب إلىّ

بورجفيلسدورف تحديد موعد الجلسة الأولى ، مدفوعاً بإيحاء روبير ؛ وقد أكد لنا أنه يكفيه ثلاث أو أربع جلسات ، يدون فيها بعض الملاحظات ، ثم ، فى أثناء غيبتنا ، يضع الصورة معتمداً على ذاكرته ؛ فإذا ما عدنا لم يلزمه بعد ذلك إلا إجراء بعض التنقيح الذى يسبغ على الصورة شكلها النهائى . الحق أننى حين أفكر فى الصور الشنيعة التى صوَّرها ، لا أجد ما يدفعنى لأن يصوِّرنى ؛ ومع ذلك فقد اتفقنا على يوم لزيارة محل عمله .

٧ نوفبر

تنقلات لقضاء الحاجات ، استقبالات ، زيارات . ليس لدى وقت لكتابة يومياتى ، ولا وقت للمطالعة ، ولا للتفكير الهادىء ، ولا وقت لأن أشعر أننى سعيدة . وأشد ما يؤسينى أن كل هذه العوامل تتضافر على أن تخلق منى امرأة أثرة . فلا موضوع كل يوم إلا موضوع « ما يسرنى »، وإلا « تزينى » ، وإلا « راحتى » ، وإلا ما أستسيغ . كأن فى مقدورى أن تكون لى

بعد الآن راحة إلا راحة روبير، وأن أستمرىء إلا مايستمرىء روبير! بل إن الأمر الذى سرنى كل السرور، لدى شرائنا غرفة الاستقبال الصغيرة، هو أن روبير اختار أثاثها بنفسه. ولقد أهدانى خزانة صغيرة للأوراق الخصوصية، بديعة الصنع، يمكننى أن أودعها خطاباته ويومياتى؛ وسيحتفظ بها البائع إلى أن ننتقل إلى مسكننا. وإنى لأتلهف إلى الشعور بأننى فى بيتى، وأن يغدو فى إمكانى أن أسترد نفسى بعض الشىء، فإن هذه الأيام التى تمضى فى عبث ضائع تبدو لى فارغة؛ بل يلوح لى أيضاً أننى أتفقد روبير فلا أجده كما أفتقد نفسى. فإننى وإن كنت لا أتركه بحال، لا يتاح لى مع ذلك أن أكون بمفردى معه. علىَّ أن أبتسم للجميع وأن أجيب على أسئلة سخيفة، وأن أعرض فرحى عرضاً، وأن أمثِّل نوعاً من تمثيلية السعادة. كل هذه المشاغل المتصلة تكاد تحول بينى وبين السعادة ذاتها لو أننى اعتبرت كل هذا العبث جدِّياً، ويدهشنى أن يُظهر أقل الناس اهتماماً بأمرنا اقتناعهم بسعادتنا، وثقتهم فيها، ويكلفون أنفسهم ما يكلفونها لبيان مدى عطفهم علينا؛ وعلىَّ أن أرضى بهذا العبث، وأن أظهر أننى «سعيدة بمعرفة» أناس لا قيمة لهم ألبتة، ولا ظرف فيهم

١٢ نوفمبر

رأيت إيڤون مراراً فى هذه الأيام الأخيرة . ولقد شعرت ، وأنا أحادثها ، كيف أنه من اليسير أن تتحول السعادة إلى إثرة . وما يخدعنى عن نفسى هو اننى أفكر فى روبير أكثر مما أفكر فى شخصى ؛ على أننى ، إذ أفكر فيه ، إنما أفكر فيما يميل إليه قلبى ؛ وليس غرضى ، ولا شك ، أن أحبه أقل مما أحبه ، وإنما غرضى ألا أقصر حبى عليه . كنت أعمى عن كل شىء ما عداه . لم أتبين ذلك إلا يوم الخميس الماضى عند ما شاهدت ما كان بادياً على وجه إيڤون من نحول ، وتفتحت عيناى فجأة أو بالأحرى تمزق الغمام الذى كنت أعيش فيه . لقد بدا لى أنها تغيرت كل التغير حتى أننى خشيت عليها وألحفت فى السؤال وانتهيت إلى حملها على الاعتراف بأسباب ما يبدو عليها من حزن فظيع . لقد اكتشفت إيڤون حديثاً أن الشاب الذى كنت أعرف أنها متعلقة ، به والذى كانت شبه مخطوبة له ، يخونها ويعيش مع امرأة أخرى .

سألتها : لِمَ لمْ تذكرى لى ذلك من قبل ؟

فأجابت : كنت أخشى أن أعكر عليك ما أنت فيه من هناء .

وخجلت فى الحال من هـذا الهناء الذى يشبه ملكا خاصاً

علق على بابه هذا الإعلان القاسى « ممنوع الدخول » . لا ، أنا لا أريد هناءً غير رحيم . إيڤون التى تتألم من أنها لا تشعر بصداقتى ، هى فى حاجة إلى معونة ؛ هى تخشى ألا يكون فى مقدورها ان تكف عن حب ذلك الذى أصبح غير أهل لحبها ، وهى لذلك تبحث عن عمل يتيح لها أن تنسى حزنها قليلا ، وتود لو تقوم بعمل ما فى أحد المستشفيات . هذه فكرة تبدو لى طيبة حتى ولو كان هذا العمل مؤقتاً . سأسعى إلى حمل روبير على الاهتمام بأمرها ، دون أن أبوح له بسرٍّ رغبتها فى هذا العمل كما وعدتها بذلك . وروبير يظهر كل الأهتمام بها ، وهو يعرف معرفة وثيقة رئيس اطباء مستشفى لائنك ، ويمكنه أن يوصيه بها وهو مطمئن تماماً . . . فلا شك عندى ، لما هى عليه من إخلاص وذكاء ومهارة ، أن فى مقدورها أن تؤدى خدمات كبيرة .

١٤ نوفمبر

ما أظرف روبير ! ما كدت أفاتحه برغبة إيڤون فى العمل حتى خاطب الدكتور مارشان تليفونياً وتواعد معه على العشاء مساء الغد فى مطعم « البرج الفضى » الشهير بمطبخه .

قال لى وهو يضحك : لا يمكننا أن نعرف كل ما يسعنا الحصول عليه بأكلة طيبة .

وهو يؤكد أن حضورى هذا العشاء فيه منفعة لها وأقنع والدى بالسماح لى بمرافقته . وقد سرّنى ذلك كل السرور ، لأن كل ما نعمله سوياً ، أنا وروبير ، يلذ لى ؛ ولأن فى موافقة والدى على السماح لى بمرافقته ما يدل على أنه أصبح يرى أمر زواجنا على غير ما كان يرى من سوء ؛ ثم ، أكاد لا أذكر أننى سبق أن تناولت الطعام فى مطعم قط ؛ وفضلا عن ذلك لعل فى حضورى هذا العشاء ما يعود بالفائدة على إيڤون . يزعم روبير أن الدكتور مارشان بطبيعته لا لين فيه ، ولكنك تستطيع أن تؤثر فيه بالطعام الطيب ، وهو لذلك يفكر فى أن يعنى بألوان الطعام .

كثيراً ما أخشى أن أغضب روبير باستعمالى فى حديثى عبارات وصيغاً يقول عنها إنها غير صحيحة ، وقد ألفت استعمالها لاستمرار سماعها ممن حولى . إذا كنا على انفراد بيّن لى روبير خطئى وصحح لسانى ، وأما إذا وجدنا فى جماعة فكثيراً ما أصمت مخافة أن تظهر فجأة على محياه هذه العلامة الصغيرة التى تدل على تبرمه والتى لا يتبينها ، على أية حال ، أحد سواى . وما تكاد تبدو هذه العلامة حتى أتبين فى الحال أننى لم أعبّر كما ينبغى . ومع ذلك

فلا بد لى من أن أتحدث إلى الدكتور مارشان ، وانني لأرتعد من ذلك سلفاً . أنا أعرف نفسى ، إن لاحظتها أكثر مما ينبغى فقدت مالدىَّ من بساطة وسهولة أداء . ولقد رجوت روبير ألا يكثر من النظر إلىّ فى أثناء هذا العشاء ، فأننى أقرأ فى نظرته كل ما يفكر فيه ، وأقل ظل من الاستنكار ألاحظه على محياه يحطمنى تحطيما. ومثالا لهذا النوع من العبارات التى تسخطه أشد السخط، استعمالى لفظة « كثيراً » بعد كلمات لا تتحمل « الكثرة » على حد قوله الحق . قبل أن يوضح لى خطئى كنت أقول فى طلاقة «أنا جائعة كثيراً» أو «أنا ناعسة كثيراً» أو «أنا خائفة كثيراً».

قال لى : لم لا تقولين أيضاً « أنا شجاعة كثيراً » و « عندى صداع كثيراً » .

أظن أننى أدرك الآن وجه التفرقة وأعترف أننى لم أفكر فيه قط من قبل ؛ ولكننى الآن أكاد لا أجرؤ على استعمال لفظة « كثيراً » مخافة الوقوع فى الخطأ ، ثم إنه لا يتاح لنا دواماً التفكير فى أن الكلمة السابقة اسم أو نعت أو ظرف أو غير ذلك . وأرى أن روبير يتطرف فى ذلك على أية حال تطرفاً غريباً ، فانه لا يريد أن أقول : «إننى أغضبته كثيراً» ، مع أن لفظة « أغضبته » ليست باسم . ولقد أراد أن يفسر لى أنها ليست

نعتاً كذلك ، فاختلط عليه الأمر لأنه بعد أن قال : « ستفهمين فى الحال . . . » إذا به فجأة يرجىء هذا الدرس الصغير إلى يوم آخر. ومع ذلك فإننى أريد أن أصل إلى فهم هذه القواعد اللغوية وأن آلف تطبيقها ما دام روبير يعتبر أن واجب النساء الحرص على صفاء اللغة ، لأنهن أكثر محافظة من الرجال ، ولأن فى إغفالهن حسن الأداء تقصير منهن فى واجب من واجباتهن .

١٦ نوفمبر

صاح والدى « بخ ! بخ ! » وهو لفظ يألفه ويروقه استعماله ، « إنكم لا تضنون على أنفسكم بشىء ! » كان ذلك عند ما علم أننا تناولنا العشاء فى مطعم « البرج الفضى » ، ولقد ذكر أنه لم يذهب إلى هذا المطعم قط ؛ ولكنه يعرف أنه المطعم الذى لا يذهب إليه إلا الأكول النئف ؛ وألزمنى سرد ألوان الطعام لوناً لوناً . والواقع أن الطعام كان جيداً جداً ، أما الأنبذة فكانت لذيذة كل اللذة ، على قدر ما استطعت أن أحكم به من تلك الابتسامات التى كانت تمر على شفاه روبير وضيفنا وهما

يتذوقانها ، لأننى شخصياً ليست لى بها دراية تذكر . ولـكن ياله من رجل فظ هذا الدكتور مارشان !

لقد صاح ، لدى أول كلمات فاه بها روبير عن إيڤون : ألا لعنة الله على الآنسات اللاتى لا عمل لهن .

كنا وقتئذ على وشك الانتهاء من العشاء وكان روبير قدّر أن ضيفنا قد « نضج » ، ثم أردف فى لهجة متبرمة زادت أقواله غلظة وخشونة .

— على كل حال ، ليست هذه اول آنسة تعرض نفسها على هذه الصورة . ولقد رفضت رفضاً باتاً عدة عروض للخدمة مماثلة . ليس لى ما أقوله عن الراهبات فانهن ، على ما يظهر ، لم يعدن من النساء . أما آنسات المجتمع الراقى فانى أعـوذ « بأسكولاب » من شرهن ! قل لصاحبتك ، عن لسانى ، أن ليس عليها إلا أن تتزوج ؛ وأؤكد لك أن هذا أفضل ما تستطيع المرأة أن تفعله . ثم التفت إلىّ وأضاف وهو يتكلف الابتسام :

— هذا ويسرنى أن أقول هـذا القول أمامك يا آنستى إذ أراك تفكرين أيضا مثلما أفـكر .

فتسلحت بكل ما أوتيت من شجاعة ، شاعرة أن مستقبل إيڤون رهن بما قد أبدى ، وفى جرأة قلت له : « لديها من الأسباب

ما يمنعها من التشبه بي . » ولكن شجاعتي تراجعت أمام بسمته الساخرة وأمام قوله :

— آه ! حقاً ... ؟ بينما رفع حاجبيه مستفهماً .

كنت على وشك أن أحتج بأنه لايتاح لكل امرأة أن تأمل فى حظ كحظى ، وفى لقاء رجل كروبير ، ولكننى قلت فى فتور : « ما كل زواج بسعيد ». فأجاب مارشان ، على الفور : « لئن لم يكن كل زواج سعيداً فان عدم الزواج دائماً مرير » ، ثم أردف فى سرعة وهو يقهقه ، وقبل أن تتاح لى الفرصة لسؤاله عن سبب بقائه إذن أعزباً للآن ، قال : « هذا على الأقل فيما يختص بالنساء » . ثم ، لما لاحظ أنه فى قوله قد جاوز ، ولا شك ، الحد المعقول أضاف فى لهجة قاطعة :

— قولى لى ، يا آنسة ، أحقاً أن صاحبتك ترغب رغبة شديدة فى العمل فى إدارتى ؟

وأجبت دون تبصر : أنا أعلم أنها ترغب فى ذلك كثيراً . وما كدت أنطق هذا اللفظ الأخير حتى شعرت بنظرات روبير تسدد إلىّ تسديداً ، وتنبهت إلى خطئى اللغوى ، فلم أجسر بعد ذلك أن أقول شيئاً . وأتاح صمتى للدكتور مارشان الاستمرار فى أسئلته . قال :

— وفنون التسلية ؟ فيمَ تنفع فنون التسلية ؟ لم ابتدعت إن لم تكن ليشغل بها العاطلون ؟ فلتكن إذن نصيحتك لصاحبتك أن تشغل نفسها بالتصوير المائى أو أشغال الأبره ، ما دامت تأبى أن تعطينا أطفالا كما يحتمه عليها واجبها ، ولو أنه ليس فى استطاعتنا أن نحملها فى حياء على ذلك .

ولا شك أن عوارض السخط الشديد على أقواله قد تجلت فى محياى ، لأنه حوّل الحديث فى الحال بعد أن صرّح بصورة قاطعة :

— على كل حال ، لو أننى كنت راغباً فى تشغيل صاحبتك ما استطعت لأننى لن أجد لها عملا ، ثم إن لدينا من الموظفين أكثر مما تقضى به الحاجة ، وأنا لا أطيق أن أرى إلى جانبى أناساً مكتوفى الأيدى ينظرون إلىّ ولا يعملون .

وإذن ، فقد فشل روبير ، ولم يفز ، كما يقولون ، بأكثر من قيمة ما أنفق ، وهذا ما يسميه « الخداعاً » . وكنت تستطيع أن تحكم على مدى سخطه مما كان يبدو على سيمائه . ولقد كان لهذا الفشل وقع أليم فى نفسى ، لأن روبير لم يبذل ما بذل من اهتمام بايقون ، ولم يتقدم بما تقدم ، إلا بدافع الحب . لم أخف عنه رأيى فى الدكتور مارشان ، لعله عالم كبير كما يؤكد إلا أنه فظ ؛ وأنا أوثر ألا ألتقى به فى المستقبل ، بالرغم مما قاله لى

روبير وهو عائد بى إلى المنزل بعد العشاء، إذ قال : «أنا لا اعتبرنى مغلوباً» .

لو أن إيڤون كانت تنتظر مكافأة أو أجراً على خدماتها ! ولكن لديها ما يكفيها للعيش ، وليس فى طلبها التماس كسب . يشق علىّ أن أبلغها أن هذا الطلب قد رفض ، وأنهم فى غنى عن إخلاصها المتفانى ...

لأن يكون المرء عديم النفع ، أن يعرف وأن يشعر بانه عديم النفع ... ، أن يحسّ أن لديه فى نفسه كل ما يلزم للمساعدة والنجدة ، وأن فى وسعه أن يعمل ليشيع الفرح من حوله ، ثم لا يجد سبيلاً إلى تحقيق ذلك !

« لسنا فى حاجة إليك يا آنسة » .

إنّ هذا لفظيع ، وإنى لأرثى لايڤون من كل قلبى ، وأشكر الله ، أعظم الشكر ، أن جنّبنى هذه الآلام ، كما أشكر لروبير أنه اختارنى . وإننى لساخطة أشد السخط إذ أفكر فى أن عدداً كبيراً من النساء ، ممن لم يحظين بحظ مثل حظى ، يرين أنفسهن وقد حرمن حق الاشتراك بحظهن فى الحياة ، مع أن علة وجودهن فى هذه الحياة أن يستثمرن ما يملكن من فضائل ومواهب . وأننى لساخطة أشد السخط من أن يكون ذلك كله

معلقاً برضى وهوى رجل من الرجال . وأنا لذلك أعاهد نفسى عهداً وثيقاً إن أنا أنجبت بنتاً يوماً ما ، ألا أعلمها فناً من فنون التسلية هذه التى كان يتحدث عنها الدكتور مارشان بهذا القدر من الازدراء الساخر ، بل لسوف أعلمها تعليما جدياً يؤهلها لأن تكون فى غنى عن موافقة تحكمية ، أو أفضال من الغير ، أو حظوات .

أعلمُ أن كل ما أكتبه هنا سخيف ، ولكن الشعور الذى يملى علىّ ما أكتب ليس بالسخيف ؛ وأراه أمراً طبيعيا أن أتنازل عن استقلالى بزواجى من روبير ، ولقد برهنت على استقلالى فى الرأى بزواجى هذا ، بالرغم من معارضة أبى ؛ وينبغى أن تكون كل امرأة حرة ، على الأقل ، فى اختيار نوع العبودية التى تلائمها .

١٧ نوفمبر

يهتم روبير بجمع الأموال لينشىء جريدة أدبية يتولى هو إدارتها السياسية . لن تصدر الجريدة إلا بعد عودتنا من تونس ، أى فى الربيع القادم ، ولكنه يحسن أن يهيأ كل شىء قبل سفرنا

وسيكون هذا السفر بعد زواجنا مباشرة ، وذلك ... عما قريب

إن ما يبذله روبير من عناية بى لا يضير نشاطه ، وإننى لأحمد الله على ذلك ؛ فلو أن روبير قد جعل منى هدف حياته الوحيد، لكنت أحببته دون حبى الآن له ، فما وجودى إلى جانبه إلا لأكون له عوناً ، لا أن أحول بينه وبين مهنته . وينبغى أن يوجه أنظاره إلى أبعد منى .

١٩ نوفبر

كل يوم يطالعنى بسرور جديد . ولشدّ ما كانت دهشتى هذا الصباح عند ما أطلعنى روبير على كتاب من الدكتور مارشان كان قد وصله منذ هنيهة . لعله نسى ما قال لنا الليلة الماضية ، أو لعله خجل مما قاله . فانه يطلب فى خطابه أن تذهب إيفون لزيارته فى المستشفى كيما يبحث معها ، كما يقول ، ما يمكنه أن يصنع بها ، أو ما يمكنه أن يؤديه من أجلها .

لم أر إيفون بعد ذلك العشاء ، ولذلك لن أجد ما يدعونى إلى التحدث عن ذلك الأثر السيء الذى خلفه فى نفسى لقاؤنا الدكتور مارشان ؛ وعليه فلن أبلغها إلا النتيجة النهائية السعيدة لهذا اللقاء .

٢٢ نوفمبر

لقد أظهرت هذا الصباح ضعفاً كبيراً . ولكن كيف السبيل إلى رفض أمر يطلبه منى روبير ؟ كنت فى غرفة الاستقبال الصغيرة ، وإذ كنت لا أنتظر أن يبكر فى حضوره على هذا النحو ، اخرجت كراسة يومياتى ، وتأهبت لأن أروى فيها كيف قضينا سهرتنا فى مشاهدة الرقص الروسى . وإذا بروبير يدخل فجأة ويطلب الىّ أن أريه ما كنت أكتب . أجبت ، ضاحكة ، إنه لن يرى ذلك إلا بعد وفاتى ، كما تعاهدنا . فقال وهو يضحك إنه فى هذه الحالة سوف يجازف بألا يراه أبداً ، لأنه من الطبيعى أن يموت هو قبلى ، وفضلا عن ذلك فانه لم يكن يعتبر عهدنا هذا جدياً ، وإن فى ذلك لمقاصة بيننا، ثم إننا ، من ناحية أخرى ، قد اتفقنا على ألا يخفى أحدنا شيئاً عن الآخر . ومهما كان الأمر ، فان رغبته فى قراءة يومياتى كانت شديدة جداً ، وقد أفسد عليه هناءه إن لم أبادر فوراً إلى إرضاء رغبته ... وقصارى القول ، أنه ألحّ وألحّ وأبدى إصراراً فى رقة بالغة حتى قبلت طلبه ، ولكن على أن يطلعنى من جهته على يومياته . فوافق على ذلك راضياً ؛ وتركت الحجرة حتى أدعه يقرأ كيفما شاء .

ولكن الآن قد زال السحر وهذا تماماً ، ما كنت أخشاه لئن كنت ما أزال أكتب هذه السطور ، فما ذلك إلا لأوضح لمَ هى آخر ما أدونه فى هذه الكراسة . بديهى أننى ما كتبت هذه اليوميات إلا من أجله ؛ ولكن لم يعد فى مقدورى أن أتحدث عنه كما كنت أتحدث من قبل ، هذا إذا لم يمنعنى من التحدث عنه إلا الحياء فحسب . وليس أمامه ، بعد اليوم ، سوى أن يطلع كذلك على هذه السطور التى لن أحاول إخفاءها عنه .

لا . ليس حبى له بأقل مما كان ، ولكنه لن يعرف ذلك فيما بعد . بل سيعرفه الآن وفى الحال . (لعل هذه العبارة لا تعنى شيئاً إلا أنها بدرت منى على السجية .)

٢٣ نوفمبر

يا للأسف ! علىّ أن أضيف أيضاً هذه الحاشية .

كدّرنى اليوم روبير أشد الكدر ، وهذا أول كدر يأتينى منه ، ويؤلمنى أن أدون هنا ما يكدرنى لأننى كنت آمل ألاّ تحوى هذه الكراسة إلاّ ما يعبِّر عن فرحى ، ومع ذلك ينبغى

أن أدونه هنا . وما أكتبه أرجو أن يقرأه ، لأنني لما ذكرت له ذلك ، من برهة وجيزة ، أبى أن يعتبرني جادّةً في قولي .

كنت قد ذهبت إلى مسكنه وأنا أحسب أنه سوف يطلعني بدوره على يومياته ، كما وعدني بالأمس ، قبل أن أناوله يومياتي ليقرأها ؛ فاذا به يعترف أن هذه اليوميات لا وجود لها ، وأنه لم يكتب منها حرفاً ، وأنه لم يدعني أعتقد طيلة هذه المدة أنه يكتبها إلا ليشجعني على الاستمرار في تدوين يومياتي . اعترفَ لي بهذا كله وهو يضحك ، ثم إذا به يدهش ويغضب لأنني كنت لا أضحك ولا أستسيغ مكره . ولما كنت ، على النقيض ، أبدى أسفي وكدري ، وصارحته اللوم ، لا لأنه لم يكتب هذه اليوميات ، فانني لم أدرك أن وقته لايتسع لكتابتها ، أو أنه لم يجد رغبة في تدوينها ؛ وإنما لأنه تركني أعتقد أنه يكتب ، ولأنه مكربي ، فقد رأيته عندئذ يزعم أنني سيئة الخلق . ثم أخذ يجسم تجسيماً ما كان في ذاته أمراً عديم الأهمية ، دون أن يحاول أن يفهم أن ما كان يؤسيني فعلا هو أنه كان ضئيل التقدير لأمر كان له في نظري عظيم الاعتبار ، وأنه كان يستخف كل الاستخفاف بما يراني أتمسك به تمسكاً قلبياً . ولو أنه سار على هذا النحو لما أصبح هو المخطئ في عدم تمسكه بوعده ، بل لكنت أنا

الخاطئة إذ أشكو . ومع ذلك لا أجد أى سرور فى أن أكون محقّـة قبله ، وكنت أوثر لو أنه كان فى وسعى أن أصوِّب رأيه ؛ على أننى كنت أود لو أنه ، على الأقل ، أظهر شيئاً من الأسف عما سبَّـبه لى من كدر شديد .

وإنى ، وأنا أشكو على هذا النحو ، أرانى ناكرة جميله ، وأطلب منه المغفرة عن ذلك . وإلى هنا أقف هذه اليوميات التى لم يعد لها من داعٍ .

الجزء الثانى

بعـــــد عشرين سنة

أركاشون فى ٢ من يوليو سنة ١٩١٤

اصطحبت معى هذه الكراسة كما تصطحب النساء ، إذا ما ذهبن للاستشفاء ، شغلاً من أشغال الأبرة يملأن به أوقات الفراغ . على أننى إن كنت أعود اليوم للكتابة ، فما ذلك وأسفاه من أجل روبير، فانه يعتقد أنه أصبح يعرف كل مايمكننى أن أشعر به أو أفكر فيه ؛ ولئن كتبت فكيما أستعين بالكتابة على ترتيب فكرى بعض الترتيب وأحاول استيضاح ما يجرى فى نفسى ، راغبة فى معرفة :

ما أجازف به وما أصبو إليه

كما تقول أميلى بطلة كورنى .

حينما كنت شابة ، لم يكن فى إمكانى أن أجد فى هذا الشعر سوى طنطنة جوفاء ؛ كنت أراه سخيفاً ، فهكذا نرى — فى كثير من الأحيان — كل مالم نحسن فهمه ، وهكذا يراه اليوم ابنى وتراه ابنتى وأنا أعلمهما إياه . ما من شك فى أنه لا بدَّ لنا من أن نكون قد عركنا الحياة بعض الشىء حتى ندرك ألا أمل لنا فى أن نبلغ ما نصبو إليه إلا إذا جازفنا فعلاً بما يتمسك به القلب

أحياناً كل التمسك . ما أصبو إليه اليوم هو خلاصي ، وما اجازف به هو تقدير النـاس وتقدير ولديَّ . فأما تقدير الناس ، فانى أحاول أن أقنع نفسى بأننى لا أحرص عليه . وأما تقدير ولديَّ ، فهذا ما أحرص عليه أكثر من كل ما عـداه . أشعر بذلك وأنا أكتب هذه السطور ، بما لم أشعر بمثله من قبـل ، حتى أننى لأتسائل أكنت ، قبل كل شيء ، لا أكتب هذه السطور إلا من أجلهما . أود ، إن أتيح لهما يوماً قراءة هذه اليوميات ، أن يجدا فيها مايبرر مسلكى ، أو فى القليل ما يفسره ، فلسوف يضطران إلى الحكم عليه حكماً قاسياً ، بل إلى التنديد به .

أعرف ذلك ، ولا أكف عن ترديده فى نفسى . أعرف أننى بترك روبير سوف أحمل نفسى ، فى ظاهر الأمر ، الخطأ كله . ويمكننى ، دون أن أعلم شيئاً من القوانين ، أن أخشى من أن امتناعى عن الاستمرار فى العيش معه تحت سقف واحـد ، قد يترتب عليه سقوط حقوق الأمومة عنى . سوف يرشدنى المحامى الذى سأستشيره لدى عودتى لباريس ، إلى سبيل تلافى هذا الأمر ، فاننى لن أتحمله ، ولا يسعنى قبول التفرقة بينى وبين ولديَّ . والسبيل الوحيد الذى يعفينى من الانتهاء بى إلى بغضه هو ألا أراه أبداً . أوه ! وخاصة ألا أسمعه ... وأنى ، وأنا أكتب هذا ،

أشعر تماماً بأننى بدأت أبغضه ؛ ومهما بدت هذه الألفاظ لعينى فظيعة ، فانه ليخيل الىَّ أننى ماعدت إلى فتح هذه الكراسة إلا لحاجة فى نفسى إلى كتابتها ، لأن ما أكتبه لا أستطيع أن أقوله لأحد . وأذكر أيام كانت إيفون لا تجرؤ على التحدث الىّ مخافة أن تعكر صفو هنائى . والآن علىَّ أنا ألا أتحدث ! ثم هل هى تفهمنى ؟ . . . بل قد يفهمنى زوجها ، زوجها الذى كنت أراه فى أول الأمر ، أثراً كل الأثرة ، فظاً كل الفظاظة ، ثم أراه اليوم كريم النفس . ولقد فاجأنى مراراً مافى لهجة هذا الرجل ، الممتاز حقاً ، من ازدراء لروبير يتعذر وصفه . من ذلك مثلا ، ما حدث عندما أخذ روبير يروى حواراً ، أسند فيه الدور الجميل إلى نفسه بطبيعة الحال ، ثم أضاف :

— هذا ما اعتقدت أنه يجب علىّ أن أقوله .

فلقد سأله الدكتور مارشان : وما اعتقد هو أنه يجب أن يقول ؟

عندئذ ظل روبير برهة كالمأخوذ وهو يشعر أن مارشان يقضى بحكمه عليه ، وذلك بغيض إلى نفسه كل البغض . وفى ظنى أن مارشان ، إن كان يمسك نفسه عن الهزء به ، فانما ذلك احتراماً لى ؛ فلقد رأيته مراراً لاذعاً جداً إزاء ما يظهره روبير من

صنوف من الاعتداد بالنفس لم يكن يسع مارشان أن يمسك نفسه عن تحطيمها . وأجزم أنه لا يخدع بعبارات روبير الطنانة ؛ بل لقد يجرى بى الفكر إلى أنه لولا ودّه لى لانقطع عن عشرته من زمن طويل . فى هذا المساء أحسست كأنه فُرّج عنى عندما أدركت أننى لست الوحيدة التى تستفزها تلك العادة التى ألفها روبير بقوله دائماً : « اعتقدت أنه كان علىّ أن أفعل » ، وذلك فى بساطة ، على أثر تصرف يكون قد أتاه فى الواقع عن رغبة فى إتيانه ، أو عن اغتنام لفرصة سانحة ، وهذا هو الغالب . وهو ، فى هذه الأيام الأخيرة ، يجوّد عبارته فتراه يقول : « اعتقد أن واجبى يفرض علىّ . . . » كأنه غدا لا يأتى أمراً إلا مدفوعاً باسمى الاعتبارات الخلقية . وله أسلوب فى الكلام عن الواجب يبغضنى فى كل واجب ، وطريقة فى استخدام الدين تجعل كل دين مثاراً للريبة ، ووسيلة فى التلاعب بجميل العواطف تجعلها ، إلى الأبد ، بغيضة إلى نفسك .

٣ يوليو

اضطررت إلى وقف القلم كيما أصطحب جوستاف إلى الطبيب . لله الحمد ! خرجت من الاستشارة مطمئنة تماماً . أشاع

الدكتور مارشان القلق فى نفسنا حتى أننا ، لحسن الحظ ، تعهدنا الداء قبل فوات الوقت . ويؤكد الطبيب الذى يتعهد جوستاف عن قرب هنا ، أننا لن نخش بعد الآن حتى أية نكسة ، ويقدّر أن جوستاف سوف يستطيع العودة إلى مدرسته بعد الاجازة ، بحيث أن هذا الانذار لن يسبب له عطلا فى دراسته .

وأنا قليلة الرضا بما كتبته أمس ، والظاهر أننى تركت قلمى يجرى لحاجة إلى الشكوى ، قد تبدو تافهة ، مالم أبادر إلى توضيحها أحسن مما فعلت . لكلٍّ منا عيوب ، وأنا أعرف أن الانسجام لا يمكن أن يسود ، فى أسرة ، دون تسامح ، بل حتى دون بعض التنازل من الطرفين . وعيوب روبير ، لِمَ أصبحت إلى هذا الحد أجسمها فلا أطيقها ؟ أيكون سبب ذلك أن ما يستفزنى الآن هو نفس ما كان يخدعنى فيما مضى ويفتننى ، بل ما كنت أراه أحق الأشياء بالثناء ؟ . . . أوه ! أرانى مضطرة إلى الاعتراف بأنه ، إن كان أحد قد تغيّر فعلا ، فليس هو الذى تغيّر بل أنا . هذا حكمى أكنّه ، وإنه ليفسد علىّ حتى أسعد الذكريات . آه ! من أى سماء هبطت ! وحتى أفسر لنفسى هذا التغيير ، استعدت قراءة ما كتبته فى هذه الكراسة من عشرين عاماً . لقد تعذّر علىّ أن أتعرف إلى نفسى فى تلك الفتاة الساذجة ،

البلهاء بعض البله ! ها هى عبارات روبير ، التى كنت أستشهد بها والتى كانت تملأ نفسى غبطة وكبرياء يمازجها الحب ، ما أزال أسمعها ؛ ولكنى أفسرها الآن على وجه آخر . هذه الريبة ، التى أتألم اليوم منها ، أحاول أن أستعيد فى نفسى قصتها ؛ وأعتقد أنها نشأت ذات يوم بعد زواجنا بقليل ، إذ سمعت روبير يجيب والدى — وكان والدى قد أبدى إعجابه بطريقة روبير فى ترتيب بطاقاته فسأله :

— وإذن فأنت الذى وجدت هذه الطريقة ؟

سمعته يجيبه قائلا :

— نعم . . . وأنا أبحث وجدت . قال ذلك فى لهجة يتعذر وصفها ، فيها التسامى والتواضع ، وفيها التعمق والخفة معاً .

أوه ! لم يكن ذلك بالشىء الذى يذكر ، بل إننى لم أعلق عليه فى تلك اللحظة أهمية ما . ولكن لما علمت بعدئذ ، وأنا متوجهة إلى ورّاق بشارع دى باك أسدد حسابه ، أن هذا المصنف المتقن الذى كان روبير يضع فيه بطاقاته ، إنما خرج من حانوت ذلك الوراق ، رأيته عبثاً أن يتخذ روبير مظهره ذاك ، الذى يوعز بهبوط الالهام عليه ، والذى يكاد يشعر بالجهد والألم: مظهر المخترع الذى «كان يعتقد أنه من الواجب عليه» ان

يتخذه لـكى ينطق هذا اللفظ « وجدت » . نعم ؛ نعم ، يا صاحبى هذا مفهوم : أنت وجدت هذا المصنف فى شارع دى باك ؛ فما الداعى إذن لقولك « وأنا أبحث » ؟ ألا كان عليك إذن أن تقول « وأنا أبحث عن المظاريف التى كنت قد طلبتها . . . » . وتبيّن لى فى جلاء ، أن عالماً من العلماء ، على أثر اكتشاف حقيقى يقع له ، لن يفكر أبداً أن يقول: « وأنا أبحث وجدت» ، لأن ذلك مفهوم بطبعه . وليس فى هـذه الـكلمات التى تفوّه بها روبير ، إلا ما يلتمس به إخفاء أنه لم يخترع شيئاً . وهكذا لم ير والدى فى إجابته إلا وهجاً ، وكذلك رأيتها أنا بالمثل. على أن ما أكتبه اليوم لم يبد لى واضحاً جلياً إلا فيما بعد ؛ ولقد شعرت بالغريزة أن فى هـذا القول شيئاً لا سبيل إلى وصفه ينبىء بالخداع . ومع أن روبير لم يقل ما قال بقصد خداع والدى ، بل فلتت تلك العبارة منـه دون وعى ، فإن فى ذلك الدلالة أكبر الدلالة : لم يكن يخدع والدى ، ولـكنه كان يخدع نفسه .

وروبير ليس بالمرائى ، لأن العواطف التى يعبر عنها يتخيلها وكأنها حقيقة من نفسه ، بل أظن أن الأمر ينتهى به إلى الإحساس بها ، إذ تتفق وأجمل العواطف وأسخاها وأنبلها ، تلك العواطف التى من الملائم التحلّى بها ومن المنفعة حيازتها .

وأنا أشك فى أن الكثير من الناس يعتقدون فعلا فى صدق هذه العواطف ؛ ولكنهم ، على أية حال ، يتظاهرون بتصديقها ، فينشأ عن موقفهم هذا نوع من الاتفاق الوضعى ؛ ولعلنا نرضى التماسا للراحة ، أن نتصنَّع أننا مخدوعون دون أن نكون مخدوعين فعلا . ووالدى — الذى كان فى مبدأ الأمر يلمح لى واقفاً على حقيقة روبير بينما كنت أنا لا أدرى شيئاً ، والذى كان يؤسينى رأيه عنه فى أثناء خطبتى — يبدو الآن أنه قد غيَّر رأيه فيه كل التغيير ؛ فتراه الآن ، فى كل مناقشة تحدث بينى وبين روبير ، يخطىء رأيى . هو طيب جداً وضعيف جداً ، بينا روبير حاذق جداً . . . ! أما والدتى . . . ولقد أشعر ، فى بعض الأيام ، أننى وحيدة إلى درجة موحشة ، ولا أستطيع التعبير عما أفكر فيه إلا لهذه الكراسة ، واعتاد حبها كأنها لى صديق كتوم طيِّع ، يمكن أخيراً الإفضاء إليه بسرى الدفين وما يجول فى خاطرى من أفكار مؤلمة .

ويعتقد روبير أنه يعرف طوية نفسى حق المعرفة ، ولا يشك فى أنه من الممكن أن تكون لى حياة خاصة خارجة عن حياته ، بل لقد غدا لا يعتبرنى إلا كتابع له ، وأننى قطعة من متاعه ، وأننى زوجته .

٥ يوليو

إزاء كل شخص جديد يتعرف إليه أشعر بل أعرف أن همه الأول أن يلتمس من أى طرف يمسكه، وبأية وسيلة يستحوذ عليه. حتى فى أعماله، التى تبدو فى ظاهرها صادرة عن أكبر سخاء، والتى يحاول أن يظهر فيها أنه أكثر الناس خدمة للغير، أشعر أن ما يعمله ينطوى على أن يجعل الغير مدينين له.

وبأية سذاجة يعمل، وبأى مظهر طبيعى . . . ! فى الأيام الأولى من زواجنا، ولم يكن قد تعلم بعد أن يرتاب فىَّ، كانت تفلت منه عبارات كهذه فيها الدلالة الكافية: «لقد كوفئت شر المكافأة على عطفى» كأنما هو فرض طبيعى أن ينتظر العطفُ من الغير ثواباً. وكنت أجزع لدى سماعى قوله: « فلان . . . بعد كل ما فعلت من أجله، لا يحق له أن يرفض لى شيئاً. »

وترى، فى هذا، كل الأسباب التى دعت روبير لأنشاء مجلته التى يديرها، والتى لم يكف عن الاهتمام بها إلا فى العام الماضى بعد أن تحول الشريط الأحمر الذى يحمله فى عروته إلى وريدة صغيرة. خلف مظاهر من البعد عن التحزب، لم تكن المجلة إلا نوعاً من وكالة غرضها تبادل المعونة وتبادل الأفضال. وكان

روبير يعتبر كل مقال، يمدح فيه شخصاً أو هيئة ما، كأنه صك دين على الشخص أو الهيئة. وأكبر حذقه فنّه فى استخدام الناس والظهور بأنه هو الذى يخدمهم. وما كانت تكون تلك المقالات التى أعطاها للمجلة لنشرها، لولا ذلك السكرتير الشاب الذى راجعها وأعاد كتابتها ودبجها . . . ولكن روبير إذا ما تحدث عن ذلك الفتى الظريف، الموهوب حقاً، الكتوم كل الكتمان والذى يظهر فى مسلكه أرق الأدب، رأيته يصيح: «آه! ما كان يكون هذا الفتى لولاى أنا!»

إذا استمعت إلى روبير، فهمت منه أن هذه المجلة لم يكن غرضها إلا مساعدة الفنانين المغمورين، وإلا الاخلاص فى العمل على أن يعرفهم الجمهور، وعلى أن «يفرضوا عليه فرضاً» كما كان يقول؛ ولكن المجلة كانت، فى نفس الوقت، تساعده على أن يدفع بنفسه دفعاً. نعم، لقد بذل روبير، ولا شك، جهداً بالغاً حتى يقدر الجمهور ويستثمر نبوغ بورجفيلسدورف الذى كان إلى جانب نبوغه، أبىّ النفس كل الاباء، متواضعاً ألطف التواضع، والذى كان أقل ما يقال عنه إنه يزدرى فى صدق كل حظوة من عامة الجمهور. ولكن ارتفاع قيمة لوحاته، هذا الارتفاع العجيب الذى يرجع إلى الدعاية المتقنة التى رتبتها المجلة بعد وفاته،

أتاح لروبير أن يبيع لوحتين إثنتين من مجموعة ما يسميه « قاعته » بثمن يزيد كثيراً عن الثمن الذى اشترى به كل لوحاته الأخرى. وهذه اللوحات التى ظلت ردحاً طويلا حبيسة خزائنها ثم خرجت منها أخيراً، تراها الآن معلقة على جدران المسكن، فى شكل استعراضى، يتيح لروبير أن يقول لولده فى لهجة خطابية:

— يندر جداً ألا يكافئنا الله فى النهاية.

آه! كم أتوق لأن أراه، ولو مرة واحدة، بدافع عن قضية يكون قد تورط فيها حقا، أو أن يحس بعواطف لا ربح من ورائها، أو أن تكون له عقائد لا تعود عليه بالنفع.

عند ما دعا والدى وأبناء عمى من أسرة بير، كما دعا حتى بورجفيلسدورف، ذلك الفتى المجتهد الذى كان حظه من الثروة ضئيلا، إلى المساهمة فى مشروع المطبعة — ذلك المشروع الذى فشل على كل حال فشلاً مخجلاً — كان الظاهر أنه يسدى إليهم جميلا كبيراً؛ فالأسهم كان الطلب عليها مشتداً، ولم يكن فى وسعه أن يتصرف فى أكثر من عدد محدود منها، يتفضل بالتنازل عنه راضياً لينفع به أصدقاءه... وكان يعرض ذلك فى حذق بالغ، حتى أننى فكرت ملياً فى نفسى: « ما ألطف روبير!... » لأننى لم أكن أدرك وقتئذ أن تلك الأسهم

التى يبيعها باسمه ، كانت تضمن له الأغلبيــة ، وترفع من شأنه ارتفاعاً لا حد له .

ثم ، بعد فشل المشروع ، ما كان أجمل العبارات التى وجدها ليعتذر عن الخسائر التى ألحقها بهم طيشه .

هؤلاء الأصدقاء الأعزاء المساكين . . . لقـد كوفئوا شر المـكافأة على ما أودعونى من ثقة . آه ! أننى أجازى أشد الجزاء لابتغائى معاونة الغير . إن هذا ليُبغضنَّك فى أن تسدى يداً ، إلى آخر ذلك .

بينما كان من أيسر الأمور عليه أن يسدد فى كل بلاهة إلى بورجفيلسدورف على الأقل ، ذلك المال الذى لم يجازف به فى هذا المشروع إلا تحت الحاجة وبناء على الضمانات التى قدمها له ، بينما وجد هو السبيل إلى « تصفية موقفه » والانسحاب من المشروع فى الوقت المناسب بأرباح لا يستهان بها ، كما أنبأنى بذلك فيما بعد . ولما بدا علىَّ أننى على وشك الغضب لأنه لم يفكر قبل كل شىء فى حماية أموال أصدقائه ، أجابنى فى ارتباك أنه لم يكن فى استطاعته أن يبيع أسهمهم دون توكيل منهم لم يسعفه الوقت للحصول عليه . وفضلا عن ذلك فان بيع عدد كبير من الأسهم فجأة ، ودفعة واحدة ، كان يعرض الأسهم للنزول . أظن أننى لم أحتقره فى يوم من

الأيام قدر احتقاري إياه فى ذلك اليوم ؛ ولـكنى ضبطت النفس حتى لا أظهره على طويتى . ولم يكن فى وسعه أن يتبين بنفسه هذا الاحتقار لأن ما فعله كان أمراً طبيعياً جداً ؛ بل لقد كان يشك فى أننى لو كنت مكانه ما فعلت إلا ما فعل .

٦ يوليو

ما أكبر الشبه بين چوستاف وأبيه ؛ أعتقد أن مارشان هو الذى لفتنى إلى ذلك أولا . كل الأوهام التى ظللت أخدع نفسى بها زمنا طويلا من أجل روبير ، لبثت أخدع بها النفس من أجل چوستاف إلى هذه الشهور الأخيرة ؛ وذلك أنه يتعذر علينا إلى حد بعيـد الحـكم حكماً صحيحاً على شخص نحبه . بينا كنت أسترد نفسى من روبير ، وبينا اعتقدت أننى أصبحت بعيدة النظر ، كنت وأنا أحوّل رعايتى وأمانىَّ منه إلى چوستاف ، كنت أقول : « هو على الأقل . . . » . وذلك أن عيوب روبير لم تظهر فى چوستاف إلا على صورة معدَّلة ، إن صحَّ هـذا التعبير ، وتراءت فى أشكال مختلفة ؛ ولـكننى أتبينها الآن ، وهى هى بنفسها ،

وان اختفت خلف مظاهر جديدة ، لا يمكننى أن أخدع بها بعد الآن . . . بل إن بعض ما يميز روبير فى طباعه ، أجد الآن تفسيره عند ابنه . أنا لا يسرنى أن أراه يهمل فى مواد منهجه الدراسى كل ما يخشى امتحانه فيه ، وهو لا يتعلم شيئاً رغبة منه فى العلم ؛ والأهم لديه أن يظن الناس فيه المعرفة ، لا أن يعرف فعلا . لقد بذلت جهداً شاقا حتى أحمله على تجنب تلك العادة ، التى كانت له وهو صغير ، إذ يسأل فى كل الأمور «وما نفع هذا؟» لم أكن أجد فى هـذا السؤال ، فى البداية ، إلا حب اطلاع مستظرف ؛ أما الآن فانه لم يعد يوجه سؤاله ، ولـكننى كنت أفضل لو أنه يوجهـه فانه يفـكر فيه بالرغم منه ، فليدع كل ما لا يعود عليه « بالنفع » .

أعجب كيف أننى كنت فيما مضى أهنئه على اختياره أصدقاءه . ياالسذاجتى ! كنت أقول لإيفون : « جوستاف لا يقبل أن يصاحب إلا أحسن الصبية » وكان قولى هذا يحمل مارشان على الابتسام . فى الحفلة التى أقمتها للصبية فى العام الماضى ، بناء على طلب جوستاف ونصيحة روبير ، كان فيها ابن وزير ، وابن اخ عضو فى مجلس الشيوخ ، وصبى له لقب الكونت ، وقصارى القول ، لم يدع فى الحفلة إلا أبناء الأثرياء والعظماء والمشاهير ؛ لم يكن

من الممكن أن يختار روبير أحسن مما اختار أبنـه . حقاً أن لجوستاف صديقاً آخر يتقاضى إعانة مدرسية ، يشتغل والداه بالتعليم ، وهما فقيران . وكان جوستاف قد أفهمنى أنه لا يليق دعوته مع الآخرين ، وراق لى حينئذ أن أجد فى هذا التصرف رقة من جانبه ، إلا أننى أعتقد اليوم فى كل بساطة أن جوستاف إنما كان يخشى أن يخجله صاحبه هذا ، وهو يحب أن يراه ، ولـكن لـكى يبهره ويسيطر عليه ؛ أما أنا فاننى أفضله على جميع أصحابه ، وهو الوحيد بينهم الذى أتوسم فيـه قيمة شخصية حقيقية . وهذا الفتى الـكريم الفؤاد يعبد جوستاف عبادة ، وما من مرة رأيته فيهـا يجثو إعجابا بما يقوله صاحبه أو يفعله ، إلا وددت أن ألفت نظره وأن أقول له :

— يا بنىّ المسكين لا يغرّنك منه ذلك ، إنما يحب منك ولدى إخلاصك له ، لا شخصك .

وحين ألوم جوستاف على لجوئه إلى إخلاص صاحبه حتى يؤدى له عملا ما ، كان يمكنه أن يقوم هو به ، يجيبنى بقوله : « ولـكن ، يا أماه ، أنه يسر بأداء هذا العمل بينا أضيق به » .

وعلى هذا كان صاحبه هو الممتن على ما يؤديه من خدمة له !

٩ يوليو

هذه التسلية ، التى أجدها فى ملء هذه الصفحات البيضاء ، تبدو لى تافهة وإن تكن تسلية غير منكورة ؛ على أننى لا أدع قلمى يجرى على سجيته كما كان يجرى من قبل . وإنى ، وإن كنت لا أعنى بالاجادة ، إلا أننى أفكر فيما أكتب أكثر مما كنت أفكر من قبل ، ويبدو لى أننى أكتب الآن أحسن . وما من شىء كان له أثر فى تعليمى قدر ما بذلت من عناية فى تعليم جوستاف وچنوڤييف ؛ وحتى أجعلهما يفهمان كُتَّاب منهجهما أحسن الفهم ، حاولت فى البداية أن أفهمهم جيداً . وهذا هو السبب فى أن ذوقى قد تغير كثيراً ، وفى أن عدداً كبيراً من الكتب العصرية ، التى كنت أجد فيها لذة ، تبدو لى الآن فارغة لاتستذاق ؛ فى حين أرى كتباً أخرى تحيا وتضىء ، وكنت من قبل لاأقرأها إلا لأنها واجب مفروض ، ولا أجد فيها سوى السأم . وإنى لأكتشف الآن ، فى ثنايا تآليف عظماء الكتاب السالفين ، اعترافات كنت أراها فيما مضى كلاماً مفخماً ولغواً جميلا ، حتى أننى قد اتخذت لى من بعضهم أصدقاء ومشيرين أودعهم سرى.. وما أكثر ما ألجأ اليهم ملتمسة عزاء وسلوى ،

أحياناً ما أكون فى أشد الحاجة إليهما ، فاننى أشعر شعوراً مفزعاً أننى وحيدة .

١١ يوليو

عاد صديقنا القديم الأب بريدل ، وكان قد سافر إلى بوردو لوفاة أحد أفراد أسرته ، وحضر لزيارتى وقضى معى نهاية يوم أمس . إنه يعرفنى حق المعرفة ! وفيما مضى كنا نتفاهم كل التفاهم ! . . . ولقد أديت له فرض الاعتراف ، وهذا ما لم أقم به من زمن طويل ؛ فأننى من أمد بعيد قد أهملت فروضى الدينية إهمالا كبيراً . وكان ما يعرضه روبير جهراً من شعائر الدين قد جعل هذه الشعائر بغيضة إلى قلبى ؛ ومظاهر تدينه حملتنى على التشكك فى حقيقة تدينى ؛ وسجداته الاستعراضية كانت تحبس الصلاة فى قلبى . غير أننى بالأمس ، بدافع الضعف أو الجزع من الوحدة والحاجة إلى العطف ، لم أتمالك من التحدث إلى الأب بريدل الذى يريد أن أعتبره صديقاً أكثر منه قساً . وا أسفاه ! لقد خرجت من هذا الحديث منقوصة ، مسلوبة القياد ، قانطة دون أن تزيد ثقتى بنفسى أو بروبير

استهل الأب بريدل حديثه بقوله، إن الكلام لا يصدر دائماً من فيض القلب ، فكما أن التعبير كثيراً ما يسبق ، فى فريضة الصلاة ، الشعور المتوثب الصادق ، كذلك الأمر فيما يختص بروبير ، فان تعبيره عن عاطفة ما لا يقترن فى الحال بالشعور الحقيقى بها ، وعلىّ أن أتقبل ذلك راجية أن الشعور ينتهى إلى اللحاق بالتعبير بعد قليل . وفى رأى الأب بريدل أن الأهم ليس فى أن نقول ما نفكر فيه — لأننا كثيراً ما نفكر تفكيراً سيئاً جداً — وإنما أن نقول ما يجب علينا أن نفكر فيه ؛ لأننا ، وهذا طبيعى ويكاد يكون قصر إرادتنا ، نصل فى النهاية إلى التفكير فيما أسلفنا التعبير عنه .

وموجز القول ، أنه دافع فى عنف عن روبير وأنكر علىّ كل حق فى أن أرتاب فى صدقه ؛ ولم يرتض أن يرى فى شكاتى وفيما أسماه « مطالبى » إلا مظهراً للكبر الذى يدعو لأشد الأسى ، كبر نما فى نفسى وتطور بإهمالى تأدية فروضى الدينية . وسرعان ما انتهى بى الأمر ، أمام مدى ما توسل إليه القس من من سيطرة شاملة على نفسى ، إلى أننى لم أعد أتبين فى وضوح ما كنت أشكو منه ، أو أتفهم ما آخذه على روبير . ما كنت إلا طفلا ينفر ويطالب فى حدة . ولما احتججت عليه ، وأنا أجهش ،

بأن ما كان يراه منى ثورة إن هو إلا عوز كبير لأن أخدم وأخلص ، إنما إلى شيء واقعى ، وأن فى نفس روبير ، تحت ستر من المظاهر الكاذبة ، لم يستخف سوى فراغ كبير ، حينئذ أجاب فى لهجة جادة وبصوت رقّ فجأة :

— حسناً يا بنيَّتى ، فى هذه الحال ، واجبك يحتم عليك أن تعاونيه على إخفاء هذا الفراغ . . . عن الأنظار جميعاً . ثم أضاف فى لهجة أكثر جداً : وعن أنظار ولديك بصفة خاصة ، فمن المهم أن يستطيعا الاستمرار فى احترام والدهما وإجلاله ؛ وعليك وحدك أن تعملى لذلك بستر وإخفاء وعلاج نقص كفاياته . نعم هذا واجبك باعتبارك زوجاً مسيحية وأما ؛ هذا هو الواجب الذى لا يمكنك أن تحاولى التهرب منه ، وإلا كان ذلك خروجاً على الدين .

وكنت ، وأنا راكعة بعض الشيء أمامه ، أحجب بيدىّ نشيجى وارتباكى وخجلى . ولما أن رفعت جبينى رأيت فى عينيه عبرات وشعرت فى قلبه بشفقة صادقة عميقة نحوى ، شفقة أثرت فى نفسى فجأة أكثر مما أثرت فى البدء كلماته . لم أقل شيئاً ، لم أستطع أن أجد ما أقوله ، ولكنه فهم جيداً أننى خضعت .

لا يلزم بعد إلا القليل حتى أقوم اليوم بتمزيق كل ما كتبته

فى الأيام الأخيرة . لا ، أريد أن تتاح لى استعادة قراءته حتى وإن يكن ذلك للاستحياء منه فحسب .

١٢ يوليو

وهكذا كل ما تبقّى لى هو أن أضع نفسى فى خدمة امرىء لم أعد أحمل له حباً أو تقديراً ؛ فى خدمة امرىء لن يقدر لى تضحية هو عاجز عن إدراكها ، بل ولن يدرى بها ؛ فى خدمة امرىء لم أتبين ما هو عليه من ضعف إلا بعد فوات الوقت ؛ فى خدمة مهرج أنا زوجته . هذه قسمتى وعلة وجودى وهدفى ، وليس لى ، من بعد ، أفق آخر فى هذه الأرض .

وعبثاً ما يحاول الأب بريدل ان يزيّن لى محاسن الزهد . . « عند الله » . وماكاد إليه يشير حتى وعيت توماً فى محنتى أننى فقدت إيمانى بالله فى الوقت الذى فقدته فى روبير . إن مجرد فكرة لقائه فيما وراء القبر جزاءاً محزناً على إخلاصى ، لتبعث فىّ الفزع . . . حتى لتُعرض روحى عن الحياة الأبدية . وأنا إذا لم أكن أكثر خوفاً من الموت ، فذلك لأننى لا أومن بالبعث ، بل لم أعد أومن به ، وإنى بهذا لأحس . كتبت

بالأمس لفظ « الخضوع » ولـكن هـذا ليس صحيحاً ، فانني لا أشعر فى نفسى إلا يأساً وإلا ثورة وإلا غضباً . ويزعم الأب بريدل أن هذا « كبر » منى . . . ؛ حسناً فليكن ذلك . أعتقد أننى خير من روبير ، وعلى وجه الدقة فاننى ، إذ أذل له نفسى أشد الإذلال ، إذ ذاك سوف أدرك تماماً ما لنفسى من قدر وأشعر كل الشعور بكبرى . ألا يفهم الأب بريدل ، الذى يحذرنى من جريرة الـكبر ، أنه على عكس ما يبغى يدفعنى إليه دفعاً ، وأن الوسـيلة الوحيدة التى يمكنه أن يستنجد بها لينال منى تواضع النفس ، هى الـكبر ذاته ؟

كبر ، تواضع ... لفظان أستعيدهما فلا أفهم لهما الآن معنى ، وكأن هذا الحديث الذى جرى بينى وبين الأب بريدل قد أفرغ هذين اللفظين من كل مدلول . والفكرة التى عبثاً ما أحاول استبعادها ، والتى تعذبنى منذ الأمس ، والتى قضت على ثقتى بالأب بريدل كما قضت على ثقتى بكل ما يذهب إلى إقناعى به ، هى ، فى واقع الأمر ، أنه هو والـكنيسة لا يعنيان إلا بالمظاهر . والأب بريدل يستريح إلى شبيه الصدق الذى ينفعه ، ويفضله على صدق الذى يضيره ويحرجه . ولقد استطاع روبير أن يستميله كما يستطيع أن يستميل كل الناس ؛ فإليه يسدى الثناء كله ، وإلىَّ

يوجه اللوم كله . وليس من المهم أن يحمل التعبير وراءه شيئاً فالأب بريدل يكفيه التعبير ، والتعبير يكفيهم جميعاً . وأنا الغرة لأننى لا أرضى أن اكتفى به . ما أبحث عنه فيما وراءه لا أهمية له ، لا وجود له ، لا حقيقة له .

هلم ! ما دام يبدو أنه ينبغى الاكتفاء بالمظهر ، فلأتخذ إذن مظهر التواضع دون أن أشعر فى قلبى بشعور التواضع فعلا . ولكنى ، فى هذا المساء ، فى محنتى ، أود أن أومن بالله لأسأله أهذا ما يريده حقا !

١٣ يوليو

وصلت إلىّ برقية مفزعة من أبى تستدعينى فجأة إلى باريس . وقع لروبير حادث سيارة « لا خطر فيه » كما تقول البرقية ، ومع ذلك يسالوننى العودة . لو أن حالة روبير كانت خطيرة جداً لاستدعى والدى جوستاف أيضاً ، وهذا ما أقوله لنفسى لأطمئن. أندم ندماً شديداً لما كتبته هنا فى هذه الأيام الأخيرة ، ولحسن الإتفاق أن صحة جوستاف جيدة ، ويمكننى لذلك أن أدعه وحيداً بضعة أيام دون خوف . يعدنى صاحب المثوى — بنسيون —

بأنه سوف يرى جوستاف ، ويتعهد الطبيب — الذى كان هنا وقت أن تسلمت البرقية — بأن يرسل إلىّ البيان اليومى لحالته الصحية ، ولسوف أعود إذن فى أول قطار .

باريس فى ١٤ يوليو

الحمد لله ! روبير على قيد الحياة ويؤكد لى الدكتور مارشان والجرَّاح ألا محل للقلق عليه . كيف لا أرى فى هـذا الحادث إنذاراً من السماء ؟ كما قال لى تواً الأب بريدل عند ما رآنى ، وقد وجدته هناك إلى جانب سرير روبير . فإن عجلة السيارة ، التى قلبته والتى كان فى الامكان أن تسحقه ، بمعجزة لم تمر إلا على ذراعه اليسرى ، محدثة فى عظمها كسراً مضاعفاً من اليسير جبره ، كما يقول مارشان .

على أن ما أفزعنى أشد الفزع حينما رأيت روبير ، إنما هو رباط كان يحجب بعض وجهه فى حين لم يصب فى هـذا المكان إلا بكدمات بسيطة ؛ ومع ذلك فإن روبير يحس بآلام عنيفة فى رأسه يتحملها فى شجاعة واستسلام جديرين حقاً بالاعجاب . إلى ما كتبته هنا ، علىَّ أن أضيف أن رأسى كان يضطرب مما سوف

يقوله لى روبير او على الأصح مما قد اشعر به من ضيق كنت أخشى أن أحس به ؛ ولكنه ما كاد يتلفظ بضع كلمات حتى شعرت أننى لم أكف عن حبه . قال لى فى بساطة :

— أسألك المغفرة عن كل ما أسببه لك من إزعاج .

فلما أن انثنيت إليه أردف وهو يبسم بالرغم من آلامه :

— لا ، لا تقبلينى فإننى دميم جداً .

فترامیت جاثية إلى أسفل سريره والدموع تنهمر من عينىَّ ، ثم ، فى صمت ، حمدت الله على أنه ظل لا يستمع إلى شكاتى الكافرة ، وأنه حفظ لى روبير ، وأنه أبى علىَّ الحرية الأثيمة التى يخجلنى الآن أن رجوتها رجاء أطلب الآن من كل قلبى المغفرة عنه .

وكنت أحس احساسا أشد بأن الله يجرب وفائى لو أن الأب بريدل لم يحاول إقناعى بذلك ، فإننى أرانى الآن أنفر من كل قول يقوله ، بيد أنى أذعن . كأن روح الثورة ، التى كنت أرحب بها فى غير حذر والتى غدوت أردها الآن ، قد تحولت صوب هذا الصيد الهزيل . فلأتركن لها هذه العظمة تنهشها . على أننى أدرك اليوم كم كان الأب بريدل صائب الرأى حين رمانى أمس بالكبر . وفى الواقع ، بأى قدر من الكبر يمترج هذا الغضب المزرى الذى يتملكنى كلما همَّ الأب بريدل يعظنى بأداء

واجب أتقبله عن رضى ، وليس هناك ما يقتضى أن يعلمنى إياه الآن . عن هـذا ، رب ، أتهم أيضاً نفسى ، وإنى لساعية إلى إذلالها كيما أكون مثل روبير الذى كنت أغمطه حقه .

طلبت والدتى أن تحل محلى بجوار چوستاف ، وسوف ترحل هذا المساء إلى أركاشون .

١٦ يوليو

ما يزال روبير يشكو آلاماً شديدة فى رأسه ؛ ولـكن فحص الأشعة الذى أجرى له أمس طمأن الدكتور مارشان ، وكان يخشى أن تكون الجمجمة قـد أصيبت بكسر ، وهو يؤكد أن ذراعه سليمة لاتحتاج إلا إلى بعض الصبر ، وفى رأيه أن فى وسع روبير أن يستعملها بعد شهر ؛ وهذا يطمئننى حقـاً . لـكن وا أسفاه ! أكان يجب أن أكون قلقة عليه حتى أميل إليه ، وأتقرب منه ، وأحظى منه بلهجة صادقة تلقى صداها فى قلبى ؟ عندى أنه يرتاع من الموت ، وأحسب أن هذا الارتياع يضطره لأول مرة فى حياته ، أن يكون صادق التعبير . على أنه مذ اطمأن وذهب عنه روع الموت ، وهو يصطنع الخوف ويبتدع للتعبير

عنه روائع الكلم . ومنذ أن زال قلقى عليه وانا ألاحظ ذلك كله فى غير تأثر .

وهو فضلاً عن ذلك شديد الانفعال يذرف الدمع لمجرد سماع نبرات صوته ، ولو لم نكن على يقين من أن الخطر قد زال عنه لاستطاع أن يبكينا جميعاً . هذا وأنه فطن لايفوته أن التصنع لايجدى مع كل الناس سواء ، فتراه يزن تأثيره ويوزعه بنسبة ظنه بالناس وثقتهم به ؛ فهو مع مارشان لايجازف ، بل يصطنع الجرأة فى التفكير ويمزح ؛ ولكنه يحتفظ بكل ما أوتى من قوة على التأثير للاب بريدل الذى يراه «مثالاً يوجب العبرة» ، ولأبى الذى يراه « مثال القدم » ثم يخرج من حجرته وهو يغالب نشيجه . وأحسب أنه إزائى ، يحس بشىء من عدم الارتياح ، فتراه يلتزم البساطة مخافة أن يتعثر ، أو أن يؤول كلامه ؛ وهذا بالنسبة له أمر أقل ما يكون من طبعه . ولكننى دهشت بالأمس إذ رأيت شخصاً آخر يلتزم روبير ملاحظة نفسه أمامه أكثر من التزامه ملاحظتها أمامى . وذلك الشخص هو ابنتنا چنوڤييف ؛ فلقد ارتسمت على شفتيها ابتسامة غريبة لدى بعض كلمات نطق بها والدها ، كلمات لم يكن فيها مع ذلك طنطنة كبرى ، ثم فتشت عيناها عن عينى التى حملتها فى الحال كل ما أوتيت من صرامه .

ليس فى مقدورنا أن نمنع أولادنا من أن يقضوا برأيهم فينا ، غير أننى لا أحتمل أن تؤمل چنوڤييڤ فى أن تجـد منى موافقة على مكرها .

١٧ يوليو

الدكتور مارشان عاجز عن تفسير حالة روبير تفسيراً مقبولا ، فإنه مايزال يشكو الآم رأسه ، وأنا أخطىء إذ أقول إنه يشكو ، لأنه لايفوه بشىء ، وإنما يقبض أساريره ويصر على أسنانه كمن يغالب ألماً شديداً . فاذا سأله أحد أيتألم أومأ بالإيجاب ، لابحركة من رأسه ، ولـكن بما يعتبره ولا شك أبلغ ، أعنى بومضة طرف على عين تعالج الموت . يجزم مارشان أن لاشىء به مطلقاً ، وعندى أنه يرتاب فى صدق آلامه أو أنه على الأقل يحار فى تعليلها ، وهو فى الانتظار . ولقـد استدعى زميلاً له لاستشارته ، فلم يتبين لزميله أكثر مما تبين له ، وأكد لى أن حالته لاتدعو للقلق إطلاقاً . على أننى أحس أن روبير لا يسره أن يطمئنه الأطباء على صحته ، أو أنه ، على الأصح ، لا يرضيه أن يطمئنونا عليه . فما أن انصرف الطبيبان حتى قال ، وكأنه يقرر حكمة من الحكم : « إن

علم الناس شيء واه لا يوثق به » ثم أردف ، كيما تكون لعبارته أثر أوقع : « وأنا أقصد بهذا حتى أكثر الناس علماً . »

على أنه رفض أن يتناول أى طعام أمس ، وأغلق باب حجرته عليه ، رغم إنه كان يحاصرها عدد كبير من الفضوليين . وفى هذا الصباح طلب استدعاء والدتى وچوستاف من أركاشون . ولقد وردت إلينا برقية تفيد حضورهما الليلة .

وأخطر ما يتعرض له هو استعمال العبارات الشائعة وآخر الكلم المشهور والجمل المصطنعة ، وهو يشعر بخطر هذا كله . وإنى لأعجب للكيفية التى بها يتجنبها . على أنه ، من جهة أخرى ، لا يتكلم إلا قليلاً ، إذ ليس فى المقدور أن يبتدع روائع الكلم فى كل آن . ومن بين آخر بدعه الحديثة الحط من قدر نفسه واستصغار شأنه . وترى الأب بريدل يخدع بذلك ويتقبله على أنه تواضع مسيحى وتوبة نفس تقية . إذا ما أحس روبير بوجود الأب إلى جانب سريره أغمض عينيه وتمتم :

— ها قد حان الوقت الذى يتحتم علينا فيه أن نزن أعمالنا ونقارن قليل الخير الذى صنعناه بكثيره الذى كان فى الامكان أن نصنعه . حتى إذا آنس منا صمتاً وإنصاتاً أردف :

لقد كلفت نفسى أكبر العناء لا لشيء كبير . ثم أدار عينيه

نحو الأب بريدل وقال : عسى ألا يقدِّر الله مجهود عبده بقليل ما يدركه .

سكبت له دواءً مسكِّناً سكت فى أثناء تناوله ثم عاد للكلام :

— ليس الماء الجارى بالمرآة الصافية ، ولكن إذا ما سكن الماء واستقر استطاع المرء أن يرى فيه وجهه .

وتنفس الصعداء بعد ذلك وأدار وجهه شطر الجدار وكأنه أراد أن يحجب عن نظره رؤيا مخيفة جداً . ثم رفع صوته وقال فى لهجة فيها الندم والكدر وفيها التقزز والزراية والأسف العميق :

— وأنا لا أرى فيه إلا حماقة وخبثاً وعجباً ...

فقاطعه الأب بريدل قائلاً :

— هلمَّ ، هلمَّ ، يا صاح إن الله الذى يقرأ ما فى الصدور قادر على أن يستبين فيه أيضاً أشياء أخرى .

أما أنا ، وا أسفاه ، أفلا استطيع أن أرى فيه إلا تصنعاً وهزلا .

١٨ يوليو

حضرت والدتى ليلة أمس مع جوستاف . أراد روبير أن يتزين بعض التزين قبل أن يدخل عليه ولده ، ولكنه حرص على أن يحتفظ بالرباط الذى كان يحجب جبينه إلى نصفه ، رغم أن لا موجب

له . وتعلل بأن ضوء المصباح يؤذى عينيه ، فوضعه بحيث يظل وجهه فى شبه ظلمة . وتوجه والدى إلى حجرة الاستقبال حيث التقى بوالدتى وچوستاف وأخذ يطمئنهما على صحته . أما چنوڤييڤ فقد لبثت فى الغرفة معى ، وكذلك الخادم شارلوت التى كانت على وشك الانتهاء من ترتيب أدوات الزينة ؛ فكان مظهرنا أشبه بقوم يتهيأون لتمثيل منظر حى . فلما أن صار كل شىء معداً ، أدخلت چنوڤييڤ القادمين .

وكان طبيعياً أن يهرع چوستاف إلى والده يعانقه ، إلا أن والده لم يكن يبغى هـذا ، فإنه أغمض عينيه وبدت على وجهه أعظم مظاهر الجلال ، حتى أن چوستاف وقف بالباب مشدوهاً ، بينا تخلفت والدتى قليلاً ، وعندئذ سمعنا روبير يقول :

— والآن تقدموا ... فإننى أشعر بضعف شديد .

وفتح إحـدى عينيه ، ليرى شارلوت التى كانت تتكلف الانصراف خفية وقال :

— لاتذهبى ! لاتذهبى ياشارلوت ، فإن بقاءك لايضيرنا .

كنت متلهفة إلى معرفة ما قد يستنبطه خياله بعد هـذه العبارات الختامية التى فاه بها فى هذه الأيام المنصرمة ، خاصة وأن العاطفة الأبوية كان فى إمكانها أن توحى إليه معانى لم يطرقها

من قبل . فلما دنا چوستاف وچنوڤييڤ من فراشه ، وهما أشبه بممثلين تدربا على اتقان الدور الذى كلفا تمثيله ، قال :

— يا ابنيا ! الآن يقع على عاتقيكما حمل الشعلة التى . . .

ولكنه لم يتمكن من إتمام عبارته ، فإن چنوڤييڤ ، وكأنه تعذر عليها أن تمسك لسانها قاطعته قائلة فى صوت جلى فيه خفة الدعابة :

— ولكن ، ياأبتاه ، إنك تخاطبنا وكأنك تتأهب للرحيل ؛ إننا نعلم جميعاً أنك تماثلت للشفاء ، وأن فى مقدورك أن تنهض بعد أيام قلائل . ألا ترى إنك لا تبكى سوى شارلوت ؟ إن دخل علينا أحد الآن ورآنا ، لحسب أن شارلوت وحدها من بيننا هى التى لها قلب يحنو . فصاحت شارلوت : «إن سيدى چوستاف يرى تماماً أن والده كذلك يبكى » — وفعلا كان روبير يتكلم وهو يذرف دمعاً سخياً — ثم دنت من فراشه قليلا ، وشجعها صمتنا فأردفت : « إن كان سيدى يشعر أنه ضعيف فلعله يحتاج إلى شىء من الطعام ؛ سأذهب لاحضار الحساء . » .

ولم يعد لروبير بعد ذلك سوى أن يسأل عن والدتى ألم تلق مشقة فى سفرها ، وعن چوستاف أسرته الاقامة فى أركاشون .

١٩ يوليو

چنوڤييف لا تحب والدها . كيف لبثت طول هذه السنين دون أن أدرك هـذا ؟ ذلك أنني منذ زمن طويل لا أهتم بأمرها إلا قليلا ، إذ كنت أوجه عنايتي كلها إلى چوستاف ، لأن صحته الرقيقة كانت تتطلب أكبر العناية ؛ هذا وأعترف أنني كنت أميل إلى چوستاف أكثر من أخته ؛ فانه ، كوالده ، يعرف كيف يستميل النفوس إليه . وأنني أجد فيه الآن كل ما كان يفتنني في والده قبل أن تخيب آمالي . أما چنوڤييف فكنت أحسبها مستغرقة في دراساتها ، مشغولة بها ، غافلة عما عداها . وأني لأتساءل أكنت قد أحسنت في تشجيعها على طلب العلم . لقد دار بيني وبينها حديث مروع أدركت فيه ، في وقت واحد ، أن في إمكاني التفاهم معها أحسن التفاهم ، وأدركت لِمَ لا أرغب في هذا التفاهم . ذلك أنني أخشى أن أجد في فكرها صدى فكري ، وفي جرأة أكبر أفزع لها كل الفزع ؛ وإنها لتنكر عليّ ، في غير حياء ، كل ما ساور نفسي من قلق وكل ما خالجها من شك . لا ، لا ، لا يمكنني أن أقرها على إنكارها ؛ لا يمكنني أن أقبل منها أن تتحدث عن والدها بهذه اللهجة الدالة على الهزء الشديد . ولكني

AMERICAN UNIVERSITY LIBRARY COPY

لما هممت باخجالها رمتنى فى عنف بهذه العبارة : « ثم كا نما أنت تصدقينه ؟ » . وشعرت بالدم يصعد إلى وجهى ، ولم أجد ما أجيب به ، ولم أتمكن من إخفاء خجلى واضطرابى . وصرحت بعد ذلك فوراً أنه لا يسعها أن تقبل الزواج إن كان الزواج يمنح الزوج حقوقاً ، وأنها فيما يتعلق بشخصها ، لا ترضى أن تقر هذه الحقوق ؛ وهى قد عزمت على أن تجعل ممن قد يتعلق به قلبها شريكا وصديقاً . وفى رأيها أن أصوب ما قد تفعله هو ألا تتزوج منه أبداً ؛ وقالت إن زواجى عبرة بالغة تحذرها من الوقوع فى مثلها ؛ ثم إنها لن تستطيع أن تفينى حقى من الشكر على ما هيأته لها بتعليمها من أن تكوّن رأيا مستقلا عنا ، وأن تحيا حياة حرة ، بحيث لا تربط حظها بحظ إنسان قد لا يكون لها كفؤاً .

وبينما كانت تسير بخطوات واسعة فى الحجرة مكثت جالسة مثقلة بقحة حديثها ، فرجوتها أن تخفض صوتها مخافة أن يسمع والدها كلامها ؛ غير أنها قالت :

— وهبيه يسمعنا . . . كل ما أقوله لك ، أنا مستعدة أن أعيده على أسماعه ؛ بل يمكنك أن تعيديه بنفسك . أعيديه عليه . نعم . هذا ما أتمناه ، أعيديه عليه .

UNIVERSITY LIBRARY

وبدا لى أنها لا تعى ما تقول ؛ فتركتها وانصرفت . حدث كل هذا ولم تمض بعد بضع ساعات .

٢٠ يوليو

نعم ، حدث هذا أمس قبل العشاء . ولا ريب أن چنوڤييڤ قد تأثرت لما كان يبدو علىَّ من علائم الأسى ، التى لم أتمكن من إخفائها أثناء العشاء ، إذ أنها حضرت إلى غرفتى ، لما تقدم الليل ، وألقت بنفسها بين أحضانى كما يفعل الأطفال ، وداعبت وجهى ، وعانقتنى أرق العناق على نحو ما كانت تفعل فيما مضى ، فعجزت عن دفع دمعى . قالت :

— أماه ، لقد كدَّرتك ، لا تؤاخذينى ، فأننى لا أستطيع ولا أريد أن أكذب عليك . أعرف أنه يمكنك أن تفهمينى ، أما أنا فأنى أفهمك أكثر مما تريدين . لا بد لى من أن أتحدث إليك بأكثر مما تحدثت . إصغ إلىَّ : قد علَّمتِنى أن أفكر فى أشياء أنت لا تجرؤين على التفكير فيها ، أشياء تحسبين أن إيمانك بها ما يزال راسخاً ، بينما أعرف أنا أن أيمانى بها انمحى .

صمتُّ لا أجرؤ على سؤالها عن هذه الأشياء ، ثم إذا بها

تسألنى فجأة أكان وفائى لوالدها إنما كان من أجلها ومن أجل جوستاف ؟ وأردفت ، وهى ترنو إلىَّ بعينيها كما ترنو إلى طفل تزجره : « ثم إننى لا أشك قط فى أنك كنت وفيّة له كل الوفاء ».

وبدا لى هذا الإنقلاب فى الأوضاع شنيعاً ، فعارضتها ذاكرة أن فكرة خيانة والدها لم تمس خاطرى ؛ وعندئذ قالت إنها تعرف جيداً أننى أحببت بورچڤيلسدروف .

فأجبتها فى جفاء : قد يكون ذلك ؛ على أننى نفسى لا أدرى عن ذلك شيئاً .

فقالت :

— لعلك كنت لا تستطيعين أن تقرّى لنفسك بحبه ، أما هو فقد كان لا يشك فى حبك له .

كنت قد نهضت من مكانى لأبتعد عنها ، متأهبة للانصراف إن هى استمرت فى حديثها على هذا النحو ، وعازمة فى أية حال على ألا أجيب عليها بعد الآن ؛ ثم جلست أو بالأحرى ارتميت على مقعد ، إذ كنت أشعر أننى مرهقة . فارتمت فى الحال من جديد بين أحضانى ، وجلست على ركبتىّ ، وزادت فى مداعبتى كما لم تفعل قط من قبل ، وقالت :

— ولكن يا أماه إفهمينى جيداً ، أنا لا ألومك .

ولما انتفضت لدى سماعى هذه الكلمات ، أمسكت بذراعىّ حتى لا أتحرك وقالت ضاحكة ، وفى لهجة مداعبة مشاكسة كأنها تخفف بها من وطأة قولها غير اللائق أو المحتمل :

— ما أريد أن أعرفه هو هذا فقط : أكانت هنالك تضحية من قبلك ؟

وكانت قد عادت إلى جدّها ، أما أنا فقد بذلت جهدى حتى لا تظهر على محياى أمارة تنم عما فى نفسى ؛ وأدركتْ أننى لن أجيب عليها فعاودت الكلام ، قالت :

— أية قصة رائعة أستطيع أن أكتبها إن شئتِ إملاءها علىّ ، إن شئت ، كان عنوانها « واجبات أم أو التضحية الضائعة » .

ولما رأتنى لا أنبس بحرف شرعت تهز رأسها يمنة ويسرة فى مظهر الاستنكار المتئد وقالت :

— ألا إنك قد جعلت من نفسك عبداً لواجبك ثم استدركت : لواجب وهمى ... ؛ لا ، لا ، أنت تحسّين تماماً أنه لايسعنى أن أعترف لك بهذا الجميل . لا ، لاتحتجى ، أحسب ألاّ طاقة لى على حبك إن كنت أحس أنك ذات فضل علىّ ، أو كنت أحس أنك تعتقدين أننى مدينة لك . فضلك ملك لك ، ولا أطيق

أن أشعر أننى به معلقة . ثم عدلت عن لهجتها فجأة وقالت :

— والآن تكلمى ، أسرعى ، قولى شيئاً ، أى شىء ، حتى لا أكون ساخطة على كل ما قلت إذا خلوت بغرفتى بعد قليل .

وشعرت بحزن قاتل يستولى علىّ ، ولم أملك سوى أن أقبلها على جبينها .

لم أنم فى هذه الليلة فقد لبثت عبارات جنوڤييف تدوى فى فراغ قلبى المروع . آه ليتنى ماتركتها تتكلم ، فإننى لا أدرى الآن أكانت هى التى تكلمت أم انا . أترى هذا الصوت الذى تركته يعلو، يصمت بعدالآن ؟ إن كنت لا أخاف من نفسى، فذلك أن تخاذلى يطمئننى . عبثا ما يثور الفكر ، وأنا قسر إرادتى مذعنة. عبثا أحاول أن أعرف ماكان فى إمكانى أن أصنع فى هذه الحياة غير ما صنعت ؛ وها أنا بالرغم منى عالقة بروبير وبولدىّ الذين هما ولداه . أين المفرّ وأنا أعلم علم اليقين أن هـذه الحرية التى أنشدها ، إن حظيت بها يوماً ، فلن أعرف ما أفعل بها ؛ وإنى أسمع ، كرنين الناقوس ، تلك العبارة التى نطقت بها جنوڤييف ، ذات يوم ، وهى تضحك :

— مهما حاولت ، يا أماه المسكينة ، فلن تكونى سوى امرأة شريفة .

٢٢ يوليو

سأدون أفكارى دون ترتيب . . .

كان احترام ولدىَّ لى يحمينى ، وكان يروق لى أن أجد فيه سنداً لى ؛ وها هى چنوڤييڤ تجردنى منه ، ولم يعد لدىَّ الآن حتى هذا أستعين به . وليس لى أن أقاوم أحداً الآن سواى ، سوى فضيلتى . وأحس أنى لها سجينة ولا سبيل إلى الفرار .

لو أن روبير ، مع ذلك ، كان يفعل ما يستلزم اللوم ! إلا أن أفعاله ليس فيها محل للومه ؛ وعيوبه التى أتألم منها والتى أضحت بغيضة إلى نفسى ، هو لا يصوِّبها إلىَّ ، فلا أستطيع أن ألومه إلا على شخصه . هذا ، وليس لى حب آخر يجتذبنى إليه ، ولا أفكر مطلقاً فى خيانته . فان فكرت كان ذلك بأن أرحل عنه . آه ! لشد ما أود فراقه فقط . . .

لو كان مريضا ! أو كان لا يستطيع الاستغناء عنى !

لا يمكننى أن أزهد فى الحياة وأنا بعد لم أناهز الأربعين . ألن يجود الله علىَّ بفروض سوى مافرض من انزواء مميت واستسلام تاعس؟ أى نصح أرتجى ؟ وممن ؟ والدىَّ يبديان الإعجاب بروبير ويعتقدان أننى سعيدة كل السعادة . لم أظهر والدىَّ على ما هما فيه

من الخطأ ؛ اى شيء أرتجيه منهما سوى إشفاق أنا فى غنى عنه !

أما الأب بريدل فانه شيخ هرم لا يمكنه ان يفهمنى ؛ ثم هل فى وسعه ان يقول أكثر مما قاله لى فى أركاشون ، ذلك القول الذى زاد فى أسباب محنتى أسبابا ، إذ نصحنى أن أفتن فى إخفاء ضعف روبير عن أعين ولديه . كأن . . . ولكننى لا أريد أن أحدثه بما دار بينى وبين چنوڤييڤ ، فان ذلك خليق بأن يزيده سوء ظن بها ، وحسبه الفكرة السيئة التى كونها عنها ؛ ثم أنا واثقة من أننى سأكون فى صف چنوڤييڤ لدى أول كلمة يتفوه بها عنها . أما هى فانه لم يسعها قط أن تطيق الأب ، وكل ما حظيت به منها بشأنه هو ألا تكون وقحة معه .

مارشان ؟ . . . نعم فى إمكانى ان أتفاهم معه ، بل فى إمكانى أن أتفاهم معه جيداً وفوق الكفاية ، وهذا يحملنى على الصمت ؛ هذا إلى أننى لن أغتفر لنفسى إن عكرت على إيڤون صفو هنائها ، فان ما بيننا من محبة فائقة يلزمنى باخفاء كل شى عنها .

ها هى فكرة خطرت فى بالى فجأة بينا أكتب هذا الكلام ؛ لعل هذه الفكرة سخيفة ولكننى أشعر أننى لا أستطيع دفعها : ذلك الإنسان الذى ينبغى أن أكلمه عن روبير ، إنما هو روبير نفسه . لقد قر قرارى : سوف أحدثه الليلة .

٢٣ يوليو

أمس مساء ، كنت على أهبـة للدخول إلى حجرة روبير لأفاتحه فى هذا الأمر الذى آليت على نفسى أن أحدثه فيه ، لما أن أخطرت بحضور والدى ، وليس من عادته أن يحضر فى مثل هذه الساعة المتأخرة من الليل ، لذلك صحت :

— أو الدتى مريضة ؟

— والدتك فى صحة تامة .

وبينما كان يضمنى بين ذراعيه قال :

— صحتك أنت يا ابنتى ليست على ما يرام . لا لا ، لا تعترضى فمنذ زمن طويل وأن ألاحظ أن هناك أموراً لا تجرى فى مجراهـا . يا بنيتى ، أنا لا أطيق أن أراك غير سعيدة . فبادرته بقولى :

— ولـكن يا أبتاه كل شىء فى يجرى مجراه . ما الذى يدفعك إلى الظن . . . ؟

على أننى اضطررت إلى بتر عبارتى لأنه وضع يديه على كاهلى ونظر إلىّ يرمقنى ، فشعرت أن قواى تخوننى . قال :

— هاتان العينان التعبتان تنمان عن أمور جمة ، تـكلمى يا إيڤلين ، يا بنيتى ، لم تريدين أن تخفى علىّ أمرك ؟ أيخونك روبير ؟

ولم أكن أتوقع هـذا السؤال ، فصحت في بلاهة ، وكأن تلك الصيحة خرجت بالرغم مني :

— آه ليته يفعل . . .

قال : ماذا ، الأمر خطير إذن . هيا تكلمي ماخبرك ؟

قلت : كلا . روبير لا يخونني . وليس لدى ما ألومه عليه ، وهذا بالفعل ما يؤنسني .

ولما رأيت أنه لا يدرك كلامي أردفت :

— أتذكر أنك كنت معارضا لزواجنا في أول عهدي بروبير؟ لقد سألتك وقتئذ ما كنت تأخذه على روبير ولـكنك لم تجب وغضبت لما رأيتك لا تجد ما تجيب به . لِم لم تجب وقتئـذ ؟

قال : ولـكن يا بنيتي إنني لا أدري الآن ؛ لقد مضى زمن طويل على ذلك . . . نعم ، في بادىء الأمر أخطأت في حكمي على روبير ؛ كانت طرائقه لا تعجبني ؛ على أنني أدركت في سرعة أنني لحسن الحظ كنت مخطئاً . . .

أجبت : واأسفاه ياأبتاه ، فإن حكمك عليه وقتئذ كان سديداً ، ثم حسبتُ أنك أخطأت لأنني كنت سعيدة معه ؛ ولـكن هذا لم يستمر ، وأدركت بدوري . . . لا ، إنك لم تخطىء . وكان ينبغي حينئذ أن أطيعك كما كنت أفعل وأنا فتاة صغيرة طيِّعة .

فظل برهة يهز رأسه كمن أثقله الهم، وأخذ يتمتم فى رقة كبيرة :

— يا بنيتى المسكينة . . . يا بنيتى المسكينة !

فتكدرت إذ شعرت أننى آلمته ألماً شديداً ، ولكن لم يكن بد من أن أستمر إلى النهاية ، فجمعت شتات شجاعتى وقلت :

— أريد أن أفارقه .

فانتفض جسمه كله وصاح : « إيه إيه ! » صاحها فى لهجة غريبة جداً حتى لقد كادت تثير ضحكى لو أن قلبى لم يكن بالأسى مترعا . ثم جذبنى إلى جانبه على الإيوان حيث كان يجلس وقال وهو يداعب شعرى :

— إن الأب بريدل سوف يذهل تماماً لو أتيتِ هذا العمل الأبله . هل تحدثتِ إليه فى هذا كله ؟

فأومأت بالإيجاب واعترفت له مرغمة ، بأنه لم يعد بينى وبين الأب بريدل هذا التفاهم الذى كان بيننا فى الماضى ، فابتسم ونظر إلىّ نظرة ساخرة ؛ وأحسب أن فكرة انتصاره غير المباشر ، على رجل كان لا يطيقه من قبل ، قد أطربته إذ قال :

— كذا ! كذا !

ولكنه سرعان ما غير لهجته وأردف :

— يا بنيتى العزيزة ، فليكن كلامنا جدياً عملياً .

ثم أوضح أننى إن فارقت المنزل تحملت الخطأ كله ، وأردف:

— إننا لا نقدر السمعة الطيبة قدرها إلا بعد فقدانها . إيفلين يا بنيتى العزيزة ، إنك كنت خيالية دائماً ، إلام تذهبين ؟ وماذا تصنعين ؟ لا ، لا . ينبغى أن تبقى مع روبير ، وعليك أن تحيي معه حياتك ؛ وليس هو على كل حال ، بالغلام الشرير . لو حاولت التفاهم معه فلعله يفهم . . .

أجبت : لن يفهم ، ومع ذلك سوف أكلمه ولن يزيد الخنّاق بذلك إلا ضيقاً .

فعاود الكلام وقال : إنه لا ينبغى لى أن أحاول الخلاص من الخناق ، بل يجب أن نتفق على وضع للحياة يرضاه كلانا ، وأن نسعى إلى إيجاد نوع من المزاج يلائم كلينا . وهو يحب أن يستعمل الألفاظ الوهاجة التى تبهره قليلاً ، كأنه بذلك يقنع نفسه بأنه لا يرهبها . ثم أخذ يحدثنى عن والدتى ، فروى لى كيف أنه ، على شاكلتى ، لم يجد فى زواجه ما كان ينتظر . ولا ريب أنه كان يرمى من هذا الكلام إلى عزائى ؛ ثم زعم أنه لم يفاتح أحداً بهذا من قبل ، ولذا كان يبدو كأنه يفرج عن كرب أمكنه أخيراً أن يطلق له العنان . ولم أجد فى نفسى الشجاعة لوقفه عن الكلام ، رغم أنى كنت أضيق باعترافاته ضيقاً يماثل ما شعرت به لدى حديثى

الفظيع مع چنوڤييڤ . وعندى أنه ينبغى أن تظل الصلة بين جيلين متعاقبين بعيدة عن ميدان الاعترافات ، فقد تنتهك فيه حرمات من المستحسن أن تظل محل الاحترام .

على أن ضيق كانت له بواعث أخرى لا يسرنى أن أتحدث عنها ، فاننى أحب والدى حباً جماً ، ويؤلمنى أن أصدر عليه حكماً مهما يكن ، بل أتمنى أن أراه لايخطئ أبداً . ولو لم أكن قد كلفت نفسى الصدق هنا لسكتُّ على هذه البواعث . إذا تحدث والدى عن أطماع شبابه وما كان فى إمكانه أن يفعل ، لو كان رأى من والدتى إدراكاً أكبر وتعضيداً أكثر ، فانى لا أملك نفسى عن التفكير فى أنه كان فى إمكانه حقاً أن يصل إلى أكثر مما وصل إليه ؛ على أنه إن كان لم يفلح فى الاستفادة بذكائه ومواهبه أكثر مما استفاد ، فان والدتى غير مسئولة عن ذلك ، كما يريد ويروق له أن يذهب . أنا لا أشك فى أنه قد عانى الكثير من ضيق عقليتها واتجاهها العملى ، غير أنه يروق له أن يكرر قوله : « إن والدتك لا تريد ... إن والدتك ليس من رأيها أن ... » ثم يستريح إلى هذا القول .

وقد ذكر لى بعد ذلك أنه لا يعرف أسرة ساد فيها الوئام إلا عنىَّ أحد الزوجين ، فى بعض الأحيان ، لو أنه لم يتزوج قط .

ولم أعترض عليه لأنه لا يحب الاعتراض ؛ ومع ذلك لا يسعنى أن أرضى عن هذا الكلام الذى أثر فى نفسى أثر التطاول والمسبة.

وامتد حديثنا إلى أن تقدم الليل طويلا ، وخرج والدى من بعد هذا الحديث وهو يشعر بارتياح كبير ، دون أن يعى أنه يتركنى وفى النفس أسى لم يعترها من قبل.

٢٤ يوليو

خناق ... وكل مجهود يبذل للخلاص منه يزيده إحكاماً.
لقد جرى الحديث الذى كان لابد أن يجرى بينى وبين روبير.
لقد لعبت آخر ما عندى وخسرت . آه ! ليتنى واسيت دون أن أقول شيئاً لا لوالدى ولا لأحد غيره . لا أستطيع أن أتحمل أكثر مما تحملت وها أنا مغلوبة على أمرى.

وجدت روبير مستلقياً على مقعده الطويل ، فقد بدأ يفارق فراشه منذ أيام.

قلت متلمسة تمهيداً لحديثى : حضرت لأرى أأنت فى حاجة إلى شىء.

فقال فى صوت أشبه بصوت الملائكة :

كلا يا عزيزتى ... شكراً ؛ إننى أشعر هذا المساء أن صحتى

فى تحسن ، وأنى قد بدأت أصدق أن الموت لا يطلبنى الآن .

ثم إنه ، لما كان لا تفوته فرصة يمكنه فيها أن يبين سخاء نفسه ورقتها وعظمتها ، أردف :

— لقد كلفتك أكبر العناء ، وبودى لو أكون واثقاً من أننى أهل لما تبذلين من عناية .

وحاولت أن أنظر إليه دون مبالاة وقلت :

— روبير لى حديث معك جدّى .

قال : أنت تعرفين أننى لا أمتنع قط عن الحديث الجدى ؛ من رأى الموت عن قرب كما رأيته فى هذه الأيام المنصرمة ، لاغرو أن يتجه بفكره نحو جدّ الأفكار .

على أننى رأيتنى فجأة وقد استحال على أن أدرك مما كنت أشكو وعما كنت حضرت للكلام ، أو بعبارة أدق ، بدا لى أن ما كنت أشكو منه لاسبيل إلى التعبير عنه ، وخاصة أننى لم أكن أعرف بأية كيفية أو بأية عبارة أو بأى سؤال أبدأ الكلام . ومع ذلك كنت عازمة عزماً أكيداً على اقتحام المعركة ؛ وكنت أكرر مراراً وتكراراً على نفسى حتى الجنون هذه العبارة : « لن تفعلى أبداً إن لم تفعلى الآن » ، بحيث إنه بدا لى أن بدء الحديث بأية عبارة ليس هاماً ، وأن الخير فى أن أكل أمرى إلى نوع من

الوحى لن يلبث أن يواتينى . وعندئذ . رأيتنى أنطلق كما ينطلق الغواص إلى اللجة وقد أغمض عينيه ، قلت :

— روبير ! أود أن تقول لى ، ألا تزال تذكر ، لأى سبب تزوجتنى ؟

وليس من شك فى أن روبير لم يكن يتوقع سؤالاً من هذا القبيل ، فبدت عليه لحظة علائم الدهشة . بدت هذه العلائم لحظة وجيزة ، فقط إذ أن فى قدرته دائماً أن يسيطر على شعوره فى سرعة عجيبة وهو ، فى ذلك ، يذكرنى بتلك الدمى ذوات الرؤوس الخفيفة ، ترتفع دائماً من تلقاء نفسها وتستقيم على أسها ؛ ونظر الىّ ، محاولاً أن يدرك ما أرمى إليه من وراء كلامى ، راغباً فى أن يزن دفاعه وقال :

— كيف يمكنك أن تتكلمى عن سبب بينما الأمر لا يخص إلا الشعور ؟

وروبير يتحايل دائماً كيما يسيطر على خصمه ، ولا شىء يجدى معه ؛ فوجهة النظر التى يتخذها تبدو وكأنها أشد سموا . وشعرت كما يشعر لاعب الشطرنج أننى سأفقد ميزة الهجوم ، وأفضل الأمر أن أضطره مرة أخرى إلى اتخاذ موقف الدفاع . قلت له : أرجوك ، حاول أن تتحدث الىّ فى بساطة .

فاعترض فى الحال قائلا :

— لا يمكن أن يتحدث أحد بأبسط مما أتحدث .

كان هذا صحيحاً ، ولذلك شعرت فى الحال بطيش عبارتى . والواقع أنها كانت تحمل فى طياتها لوماً قديما عما فى القلب مع مجرى الأيام ، غير أنه لم يكن هناك باعث له فى هذه المرة .

قلتُ : نعم ، إنك تقول هذا القول فى بساطة الآن ، ولكن ما أكثر ما أرهقتنى بطنطنة بيانك ، لاجئاً إلى مناطق عالية أنت تعرف أن ليس فى مقدورى أن أتبعك إليها .

قال ، وهو يبتسم فى لطف ، وفى أعذب لهجة أوتيت له :

— أخال يا عزيزتى أن من لا يتكلم الآن فى بساطة إنما هو أنت . ها . . . تكلمى . فى صريح العبارة : ما تلومينني عليه ؟ إننى مصغ إليك .

على أن طريقة روبير أو منحاه فى التعبير ، وكان قد أصبح لا قبل لى به مطلقاً . غدا الآن المنحى الذى احذوه فى خطابه ؛ ولعلنى بهذا أفعل كما كنت أفعل فى صباى ، إذ كنت أحكى اللهجة الإنجليزية كلما تحدثت إلى إنجليزى ، فكان والدى يضحك لذلك ويتفكه به . وأننى لأتساءل الآن ألنفس السبب يلتزم روبير

البساطة فى حديثه إلىّ ، ولنفس السبب أستعير أنا لهجته ومنحاه ؛ وشعرت كأننى أزداد تورطاً .

فتجرأت وقلت : لكم تشعر نفسى بارتياح عظيم لو استطعت أن أجد ما أؤاخذك عليه ؛ ولكنى أعرف تمام المعرفة أنك ، فى تصرفك ، تتحايل بحيث لا يكون الخطأ فى جانبك ، ولست فى ذلك مثلى ؛ فإننى ما أكاد أحاول التفاهم معك إلا رأيتنى أقع فى الخطأ ، كما حدث ذلك الآن . ومع ذلك ثق بأننى لا أتأثر الآن بفكرة طائشة ، وإنما قد أمعنت الفكر ، وآليت على نفسى أن أحدثك بما يخالجها من طويل الزمن ، ثم كان أن أرجأت هذا الحديث يوماً فآخر . . .

وشعرت أن عبارتى طويلة فلم أتمها ، ثم قلت فى صوت منخفض جداً بحيث ذهلت من أنه تمكن من سماعه :

— روبير ، إصغ ! الأمر بسيط ، لم أعد أطيق الحياة معك .

واقتضتنى هذه العبارة ، رغم أنها قيلت فى صوت منخفض ، أن أكفّ عن النظر إليه . فلما رأيت أنه ظل ساكناً رفعت بصرى ، فإذا بوجهه يشحب ، ولبث برهة ثم قال :

— إن سألتك بالمثل عن الأسباب التى تدعوك إلى فراقى ، حقّ لك أن تجيبى إن الأمر لا صلة له بأسباب وإنما يخص الشعور .

فقلت : أنت ترى أنني لا أقول لك ذلك .

ولكنه قال : إيفلين ، أينبغى أن أفهم أنك لا تحبيننى ؟

وكان صوته يرتعد بما يكفى لأن يحملنى على التشكك فيما إذا كان انفعاله مصطنعاً أم صادقاً ، وبذلت جهداً كبيراً ثم قلت فى عناء :

— إن من قد أحببته بكل عواطفى كان يختلف اختلافاً بيِّناً عمن ظهر لى فى بطء بالغ ، هذا ما كنته .

فرفع حاجبيه وكتفيه وقال : إن كنتِ تذكرين ألغازاً فأنا لا . . .

فقاطعته قائلة : لقد ظهر لى شيئاً فشيئاً أنك تختلف كل الاختلاف عمن كنت أتخيله فى أول الأمر ، أعنى عمن كنت أحببته .

وعندئذ حدث شيء عجيب ، رأيته وقد أخذ رأسه فجأة بين يديه ، ثم إذا به يجهش إجهاشاً اهتز له جسمه كله ، وانحدر دمعه يبلل أصابعه ويسيل على خدّيه ، بينما كان يكرر مرات عديدة فى صوت به جِنَّة :

— زوجتى لم تعد تحبنى ! زوجتى لم تعد تحبنى ! . . .

لم أكن أتوقع هذا الانفجار قط ، فلبثت كالمصعوقة لا أدرى ما أقول ولا أتأثر بدمعه ، فاننى ، بالطبع ، لم أعد أحب روبير ، أو لقد كنت بالأحرى غاضبة من التجائه إلى سلاح كنت أراه غير

نبيل . مهما يكن الأمر فقد كنت مستاءة لشعورى بأننى تسببت له فى حزن حقيقى؛ ورأيت أن علىَّ كبت كل ما أحمل له فى صدرى من أسباب الغضب ، غير أن مؤاساته كانت تقتضينى الالتجاء إلى احتجاجات كاذبة ؛ فدنوت منه ووضعت يدى على جبينه الذى رفعه فى الحال وقال :

— ولم إذن تزوجتك ؟ أللإسم الذى تحملين ؟ أم لثروتك ؟ أم لمركز والديك ؟ هلمَّ . . . تكلمى ! تكلمى كيما أفهم . أنت تعرفين تمام المعرفة . . .

وبدا فى هـذه اللحظة طبيعياً صادقاً تماماً حتى توقعت منه تتمة العبـارة على ما يأتى « أنه كان فى إمكانى أن أجد خيراً منك » غـير أنه قال : « ذلك إننى كنت أحبك » ثم أردف فى صوت يقطعه النشيج :

— وإننى كنت أعتقد أنك تحبيننى .

وكدت أصدم لعـدم تأثرى ، فان انفعال روبير ، وإن كان صادقاً الآن لم يكن له ، لتبسطه على هـذه الصورة ، أقل أثر فى نفسى . وبادرته قائلة :

— كنت أظن أن هـذا الحديث لن يكون ذا أثر أليم إلا فىَّ وحدى .

ولـكنه قاطعنى قائلا : تقولين إننى لست ذلك الرجل الذى كنت تتخيلينه ، ولـكنك أيضاً لست تلك المرأة التى كنت أتخيلها . أفى مقـدور أحد أن يعرف أكان حقاً ذلك الذى يتخيله ؟

وعلى نحو ما اعتاد أن يفعل ، حين يستحوذ على فكرة الغير ليطويها فى صالحه . (وأحسبه يأتى ذلك دون وعى) ، قال :

— ولـكن ياعزيزتى ، ليس هنـاك فرد ، فرد واحد ، يبقى على الدوام فى نفس المستوى الذى يطمع فى أن يسمو إليه فى هذه النقطة بالذات تتركز كل مأساة حياتنا الأخلاقية . . . أنا لا أدرى أتفهميننى ؟ (وهذه الجمـلة الملازمة له تواتيـه دون استثناء كلما همَّ بتغيير موضوع حديثه وشعر أن مخاطبه يلحظ هذا التغيير) إنك لن تجدى سوى أولئك المتجردين من مثل أعلى ، الذين ...

فصحت فى ألم : « يا صاحبى ! يا صاحبى ! » . وأومأت إليه بحركة من يدى لوقفه ، إذ كنت أعلم جيداً أنه إن مضى فى هذا الميدان التعليمى فلن يقف من نفسه ، وأفضت به مقاطعتى إلى أنه انحرف قليلا وقال :

— كأن الإنسان فى حياته لايجد نفسه مجبراً على أن يخفف

من حدة حماسه . . . أعنى أن يعـدل بمثله العليا إلى ما هو فى المتناول ؛ أما أنت ، فلقد كنت دائماً خيالية .

لا بد أن يكون هذا القول صحيحاً ما دام أبى أيضاً كان يكرره على بالأمس ؛ ولم يسعنى إلا أن أبتسم فى حزن . وبوثبة طبيعية ، عاد روبير إلى هذه المناطق العالية ، التى أقدمت شكاتى فى سفاهة وأثرة ، على إخراجه منها ، فأردف :

— ياعزيزتى ، أنت تلمسين هنا مشكلة من أخطر المشكلات ، وهى تخص التعبير نفسه . نعم ، أننا نود أن نعرف أيزول الشعور ويفنى فى التعبير ، أم أن التعبير ، على النقيض ، يتيح للشعور أن يعى وجوده فيخلق فيه نفسه ؛ فاننا فى الواقع نجد أنفسنا مسيرين إلى أن نشك فى احتمال وجود الشيء دون مظهره ؛ وإن كان .. ها سأفسر لك رأيى وستدركين فى الحال .

هذه العبارة الأخيرة تحضره لتشد من أزره كلما شعر أن الأمر قد بدأ يلتبس عليه ، وهى تستفزنى بصفة خاصة أكثر من سواها .

فقاطعته قائلة : لقد أدركت تماماً ، أنك تقصد أنه ينبغى علىَّ ألا أعير اهتماماً كبيراً إن كان هذا الشعور الجميل الذى تعبر عنه حقيقياً أو غير حقيقى .

فحمَّل نظره فجأة نوعاً من البغض ، وقال فى صوت يكاد يكون حاداً :

— آه ! يسرنى حقاً أن أرى أنك تفهمينني ! أهذا كل ما تذكرين من حديثنا ؟ أينطلق لسانى بالحديث إليك دون تحفظ ، فأفتح لك قلبى بما لم أفتحه لأحد من قبل ، أأذّل نفسى وأشهق فى البكاء أمامك ، ولا تحرّك عبراتى فيك ساكناً ، وتؤولين كلامى ، وتدْعينني فى لهجة جافة إلى أن أستخلص أن كل الشعور من جانبك ، وأن كل الحب الذى أكنّه لك ما هو إلا ...

وأوقفته عبراته مرة أخرى عن اتمام كلامه ، فنهضت وليس فى خاطرى إلا فكرة واحدة ، هى أن أضع حداً لحديث لم أوفق فى توجيهه كما ينبغى ، ولم أفلح خلاله إلا فى أن حملت نفسى كل مظاهر الخطأ . فلما أن وضعت يدى على ذراعه لوداعه التفت الىَّ فجأة وانطلق يقول :

— كلاَّ ! كلاَّ ! ليس هذا صحيحاً . لقد أخطأتِ ، إن كنت ما زلتِ تحبيننى ، ولو بعض الحب ، لأدركت أننى لست إلاّ مخلوقاً مسكيناً كغيره من المخلوقات ، يجاهد ويسعى بقدر ما أوتى له حتى يكون خيراً مما هو .

وهكذا ، وقع أخيراً على الألفاظ التى كان فى إمكانها أن تصل

إلى قرارة قلبي، فانحنيت إليه كي أقبله ، ولكنه دفعني دفعاً يكاد يكون عنيفاً وقال :

— لا ، لا ، دعيني ! لا يسعني بعد الآن أن أرى إلا أمراً واحداً ، وأن أحس إلا بشيء واحد ، هو أنك لا تحبينني .

وانصرفت على أثر هذا الكلام وقلبي مفعم بأسى أشبه بأساه ، أسىً عرفته من أساه . إنه ما زال يحبني وا أسفاه ! . وليس في وسعي أن أفارقه ...

خاتمـــة

١٩١٦

كنت قد عاهدت نفسى الا أدوّن شيئاً بعد ذلك . . . فبعد حديثى مع روبير بقليل ، وقعت بأوربا هذه الحوادث الخطيرة التى اضطربت لها ، والتى جرفت بمشاغلنا الخاصة . بودى لو أعود إلى عقائد صباى كيما يكون فى مقدورى أن أوجه إلى الله ، من صميم قلبى ، هذه الضراعة : « ربِّ ! احفظ فرنسا ! » ؛ ولكنى أفكر أن المسيحيين فى ألمانيا يبتهلون إليه من أجل وطنهم بنفس هذه الضراعة ، رغم كل ما يشهر لتمثيلهم برابرة أشرارا . وينبغى لفرنسا أن تلتمس مما فى نفوس أبنائها من كفاية وجدارة ، أسباب حصانتها وحمايتها . وظننت ، فى أول الأمر ، أن روبير فهم ذلك جيداً ، ورأيته يتأسف لكون مرضه يحول بينه وبين واجبه ، ثم رأيته بعد بضعة أشهر يستشير مارشان عن الوسيلة التى تمكنه من الحصول على الشهادة الطبية التى تسمح له بالتطوّع . ليتنى لم أعلم فيما بعد أن فرقته كانت ستدعى للتجنيد ، وأنه كان معرّضاً لأن ينقل من الجيش المرابط إلى الجيش المحارب ، وأنه ، إذ يستبق أمر التجنيد ، يحتفظ لنفسه بحرية اختيار المكان الذى يوفد إليه . وهذا ما احتاط له أكبر الحيطة ، ملتجئا إلى كل من

يستطيع شدّ أزره . لِمَ أذكر ذلك كله هنا ؟ أودّ ألا أتحدث إلا عما دار بيننا من حديث أليم ، ذلك الحديث الذى على إثره قررت خطتى التى أسلكها ؛ ولكن كيف يتاح لى أن أشرح ما حدث دون أن أتكلم أولا عن الفحص الطبى الذى أجرى له مرة أخرى فى مجلس التجنيد ؛ فلقد توصل إلى قرار من المجلس باعفائه من التجنيد لاصابته بصداع مزمن على أثر صدمة فى الرأس . وما كدت أبلغ هذا القرار حتى رغبت فى الرحيل إلى مستشفى كائن بجبهة القتال . وكنت على يقين من أن طلبى الخدمة فى هذا المستشفى لا يمكن أن يرفض ؛ على أن قبولى بالمستشفى كان يقتضى موافقة روبير ؛ ولكنه أبى فى خشونة أن يوافق ، وقسا فى قوله زاعماً أننى ما فكرت فى هذا الرحيل إلا لإخجاله وإلقاء درس عليه وإخزائه ؛ فلم يكن بد من النزول على إرادته ، ولم يسعنى سوى أن أنتظر وأقنع بالعمل فى مستشفى لا ريبوازيير ، حيث غالباً ما قضيت الليل ، بحيث أننى لم أعد أرى روبير إلا قليلا .
ودهشت ذات صباح إذ شاهدته يرتدى اللباس العسكرى ، وعلمت أنه قد استطاع ، بفضل معرفته اللغة الانجليزية ، أن يلتحق بإحدى لجان الإعانة الأميركية ، فأتاح له ذلك ارتداء اللباس العسكرى والظهور بمظهر المحارب . غير أن حظ المسكين كان

سيئاً ؛ فإن جهره بغيرته الوطنية انتهى به إلى إيفاده إلى ڤردان. ولما لم يكن فى استطاعته التهرب من الرحيل دون أن يثير الظنون، « حسبان من واجبه » أن يستقبل سوء حظه فى تحدّ ومباهاة، وإذا به بعد أيام محدودة يحظى بوسام الحرب ؛ وهذا ما أثار إعجاب چوستاف وأبوىّ وبعض الأصحاب إعجابا فائقاً. ورأيته فى ڤردان حيث دعانى ذات يوم لزيارته، قد توصل إلى الظهور بمظهر البطل، ولا أخال إلا أنه كان ينتظر هذا الوسام بفارغ الصبر كيما يسعى للعودة إلى بيته. ولم يتعذر عليه ذلك، لماله من علائق ووساطات. فلما أبديت دهشتى من عودته المفاجئة التى لا تتفق وعبارات الغيرة الوطنية التى كان يجهر بها فى ڤردان نفسها من أيام قلائل — هذه العبارات الجميلة التى كانت تحث على المثابرة والجلد — فسّر عودته قائلا إنه يعرف، من مصدر ثقة، أن الحرب على وشك الانتهاء ؛ وأنه يشعر الآن أنه فى باريس أصلح، إذ أن النفسية العامة فيها تبدو أسوء مما هى عليه فى جبهة القتال.

حدث ذلك من يومين ... ومع ذلك لم أوجّه إليه أية لائمة، فإننى، من بعد حديثنا الأليم، صرت أتقبل منه كل شىء دون أن أنطق بشىء. هذا وأنا لا أزدرى أعماله بقدر ما أزدرى الأسباب التى يقدمها لتبريرها. ولعله قرأ فى عينى هذا الازدراء

لأنه سرعان ماشرع يدافع عن نفسه إزاء صمتي، زاعماً أن وسامه لا يسمح له بحسب أن يشك فى حقيقة شجاعته، بل ويعفيه من هذا الشك . أما أنا وإن كنت لم أحظ مثله بوسام الحرب، فانى لا أطلب الشجاعة إلا لذاتها، لا لما تثيره من إعجاب الناس بنا أو رضائهم عنا. هـذا وأنا « الخيالية » فى حاجة إلى مجابهة الواقع . . ثم بعد أن امتدح نفسه فى سذاجة على كونه خرج من الحرب دون أن يخسر شيئاً ، صاح بى فجأة ، إذ رآنى لا أستطيع كبت ابتسامتى :

— هذا وإنك لو كنت فى مكانى ما فعلتِ إلا ما فعلت .

لا ، ياروبير ، لا أسمح لك بأن تقول هذا القول، ثم لا أسمح لك على الأخص بالتفكير فى ذلك . ولم أجب عليه بشىء ، ولكنى اتخذت قرارى فى الحال ؛ واستطعت بعد ذلك الاتصال بمارشان ، ورأيته فى نفس الليلة واتفقت معه على كل شىء . لقد قام عن طيب خاطر بكل المساعى اللازمة ، وغداً أبرح دون ضجة إلى شاتلرو . وفى ذلك المستشفى الكائن فى مؤخرة الجبهة سوف ينظر الكل إلىّ وكأنتى فى مأمن من كل خطر، وإنى لأرجو هذا من كل قلبى . على أن جنوفييف وحدها على علم بما يحفّ هذا المستشفى من الأخطار . كيف أتيح لهـا معرفة نوع المرضى

الذين يعالجون فيه ؟ هذا لا أدريه . . . ولقد التمست منى أن أدعها ترافقنى إليه لتقوم بالخدمة فيه بجانبي ؛ ولكنى رفضت ، إذ لا يسعنى أن أقبل منها أن تقحم نفسها ، وفى سنها هذه ، وسط هذه الأخطار ؛ حياتها كلها ما تزال أمامها . وقلت لها وأنا أقبلها فى حنو زائد وكأننا على وداع : « كلا يا چنوڤييڤ ، ليس فى احتمالك ، بل ليس من واجبك أن تتبعينى حيث أنا ذاهبة » . چنوڤييڤ ، حبيبة نفسى ، إنها على شاكلتى لا تستطيع أن تقنع بمظاهر الأشياء . إننى أحبها حباً زائداً ، ومن أجلها كتبت ما كتبت ؛ وإنى أورثها هذه الكراسة إن قدّر لى ألا أعود . . .

روبيرٌ

إلى ارنست روبير كورتيوس

كوفرفيل فى ٥ سبتمبر سنة ١٩٢٩

صديقى العزيز

فى رسالة سابقة أرسلتها إلىَّ ، بعد أن اطلعت على كتابى « مدرسة الزوجات » كنت تعبِّر عن أسفك لأن القارىء لا يتاح له معرفة زوج بطلتى إلا من خلال ما كتبته هذه البطلة فى يومياتها .

وقلت : كم نتمنى أن نقرأ شيئاً من تصريحات روبير ازاء ما نقرأ من يوميات إيڤلين .

لعلَّ هذا الكتيب يستجيب لما طلبت ، وطبيعى أن يهدى إليك .

١

سيدى

رغم أن أول ما شعرت به لدى قراءتى « مدرسة الزوجات » كان شعوراً بالغضب ، فانى لا أستبيح لنفسى الموجدة عليك . لقد استسغت أن تنشر على الملأ يوميات امرأة ضمّنتها حياتها الخاصة ، وما كانت لترتضى كتابتها لو أنها علمت ما قدر لها من مآل . هى البدعة السائدة الآن ، بدعة الاعترافات ونشر ما خفى من أسرار الناس ، دون أى اعتبار لما قد يلحق الأحياء من ضرر مادى أو معنوى ، ودون اعتبار إلى الأثر السىء الذى تحدثه . إننى أترك لضميرك (وكلّ له ضميره) أن تقدر أمن حقك أن تعمل على نشر كتاب يضر طرفاً ثالثا ، وأن تصدره باسمك كيما يأتيك بالشهرة . . . والربح . لعلك تجيبنى بأن بنتى قد دعتك إلى هذا النشر ، غير أننى سوف أذكر فيما بعد رأيى فى سلوكها . هذا وإننى أعلم من أقوالك نفسها أنك تميل إلى ترجيح رأى الشباب على رأى آبائهم . إنك حر فى ذلك ، غير

أننا نرى مما يستخلص من مثلنا الحالى ، إلام يؤدى هذا ، وإلام سوف يؤدى ، لو أن كثيراً كانوا على شاكلتك ؛ وهذا ما لا يرضاه الله ؛ وكفى .

لست أدرى هل أدهشك إن ذكرت لك أننى لست الوحيد الذى يأبى أن يهتدى إلى شخصى فى تلك الصورة التى وضعتها زوجى ، ومثلتنى فيها مخلوقاً متناقض الأقوال والأعمال ، يملأه الكبر وهو لاخطر له . قال أحد القدماء: « إن احتجاجك إقرار منك بأن مارميت به قد أصاب منك » . وفرضاً أصاب السباب منى ، فاننى وحدى أعلم أنه أصابنى ، ما دام اسمى لم يذكر قط . وما غرضى من قولى هذا كله ، سوى أن يفهم القراء أننى لا أبغى بما أكتب رد اعتبارى ، وإنما مقصدى الوحيد الحقيقة والانصاف ووضع الشيء فى نصابه

أيسر على المرء أن يكوّن رأيه بعد سماع شاهد واحد منه لو أصاخ السمع إلى شهادات عدة متناقضة ، وحكمه فى الحالة الأولى أظلم . والآن ، وقد صدَّرت «مدرسة الزوجات» باسمك ، أعرض عليك « مدرسة الأزواج » . وإنى لأهيب بكرامة مهنتك أن تنشر التفنيد الآتى ، إزاء ذلك الكتاب ، وعلى النحو الذى اتبعته فى نشره وإصداره .

على أننى ، قبل الدخول فى الموضوع ، أهيب بالصالحين من الناس أسألهم ، ما رأيهم فى فتاة ، ما تكاد أمّها تتوفى حتى تستولى على أوراقها الخاصة وقبل أن يتاح للزوج الإحاطة بها ؟ أذكر أنك كتبت يوماً : «أنا أبغض الصالحين من الناس» . وليس من شك فى أنك ترضى عن هذه الأعمال الجريئة التى قد تجد فيها أثراً لتعاليمك . وإننى لأرى ، فى هذه الجرأة السفيهة التى برهنت عليها ابنتى ، النتيجة الأليمة لتلك التربية « الحرة » التى راق لزوجتى أن تزوّد بها ولدىَّ . وأكبر الخطأ أننى كنت عادة أنزل على إرادتها مخافة التعنت وتجنباً للمجادلات . كانت مجادلاتنا ، فى هذا الشأن ، أشد ما تكون خطورة ؛ وأعجب إذ لا أجد لها أثراً ما فى يومياتها . وسأعود إلى التحدث عن تلك المحادلات فيما بعد .

هذا ولا تتوقع منى أن أردّ على كل أقوال زوجتى التى أراها غير صحيحة ، وبصفة خاصة بعض تلميحات بالذات أعتقد أن كرامتى لا تسمح بالردّ عليها ، تلك التلميحات التى تمسّ شجاعتى الوطنية ومسلكى فى أثناء الحرب . ويظهر أن إيفلين قد فاتها ، أنها إن شككّت فى أننى حصلت على الوسام عن جدارة حقة ، فإنما تطعن بالضرورة فى كفاية واختصاص الرؤساء الذين منحونى إياه . وإنى لأتساءل أكانت العبارات التى تسندها إلىَّ قد فهت بها

حقاً ؟ وأعتقد فى صدق أن ذلك لم يحـدث ؛ على أنه لو كان قد حدث ، فإن هذه العبارات لم تكن بتلك اللهجة، أو بتلك المقاصد التى أضفاها مكرهاً عليها ؛ وعلى كل حال أنا لا أذكر منها شيئاً. وأنا لا أريد أن أتهمها بدورى بأنهـا زيفت شخصيتى عن نية وقصد — (فاننى لا أتهمها بشىء) غير أنى أعتقد أننا نتأثر إلى حد كبير بالظنـة ، فنسمع من نظن بهم السوء يقولون ما نتوقعه منهم ، وعلى هذا النحو تعلق بالذهن أقوالهم لا تغيرها الذكرى.

وعلى نقيض ذلك ، أذكر جيداً أننى كنت أشعر أن إيڤلين كان قد بلغ بها سوء الظن مبلغاً ، أفضى بها إلى أن صدى كلامى لم يعد يؤثر فيها إلا أثراً واحداً. لقد كانت لا تستطيع أن تسمعنى أقول إلا كذباً.

على أننى ، كما ذكرت ، لا أقصد إلى الدفاع عن نفسى . وأنى لأفضل أن أقص فى بساطة ذكرياتى عن حياتنا المشتركة ، وسوف يتناول كلامى ، بصفة خاصة ، تلك السنوات العشرين التى أغفلتها إيڤلين فى يومياتها . ومهمتى ليست يسيرة، فإنه ليخيَّل إلىَّ أننى وأنا أكتب الآن ، كأن القارىء يميل على منكبى ، متصيداً أو هى الألفاظ التى قد تفضح « نفاقى » و «خبثى » وما الى ذلك . . . (وهذان اللفظان قد استعملهما النقاد فى الكلام عنّى) . فان

عُنيت بأسلوبى ، بعد ذاك ، أكثر مما يقتضى ، تعرضت لأن أتهم بالتصنّع ، بينا أحاول جهدى أن أتفادى هذا التصنّع نفسه . . . وهذه صعوبة لا يستهان بها ، وأرى أننى لن أتغلب عليها إلا إذا انقطعت عن التفكير فيها ، وتركت قلمى يجرى دون تحفظ ، وتقدمت بكلام جديد دون اعتبار لما قالت ايڤلين ، أو ما قد ظنّ جمهور القراء بى . وبعد . . . أليس من حقى أن آمل أن يحذو الجمهور حذوى — أعنى أن يتجرد من الظنّة وهو يقرأنى ؟

هنالك شىء آخر يضايقنى ، ولا بد أن أذكره . لقد أطرى النقاد كل الإطراء أسلوب زوجتى ، وكنت أبعد ما يكون عن الظن بأن ايڤلين تجيد الكتابة على هذا النحو الذى أظهرته فى كتاباتها . لم يكن فى إمكانى أن أحكم على أسلوبها ، إذ كنا نعيش معاً ، ولم يكن هنالك داع لأن تكتب إلىّ . أما الإطراء الأسمى ، فهو الذهاب إلى حد افتراض أن هذه اليوميات إنما قد دبجها يراعك أنت يا سيد « چيد » ، فإنك . . . [1] لا شك فى أنه ليس لهذه الصفحات أن تؤمّل فى أن يظن بها الناس ظنهم فى تلك ! إن كنت قد ارتجيت يوماً فى صباى أن أكون أديباً ،

---

(١) ثلاثة سطور محذوفة .

فسرعان ما تخليت عن ذلك الارتجاء (على نحو تعبيرك). وفى هذا الصدد، هل يسعك أن تفسِّر لى، لِمَ يجمع النقاد جميعاً (على الأقل هؤلاء الذين قرأت نقدهم) على اعتبارى شاعراً خائباً؟ بيد أنى لم أنظم قط شعراً فحسب (وذلك على الأقل من عهد دراستى الثانويه، وقت أن استخلصت من نفسى فى عناء بعض مقطوعات)، بل لم أعْنَ قط أن أنظمه. فهل تعتبر جريرة منى أن إيقلين قد ظنّت فى بداية عهدنا أن لى من المواهب أكثر مما كان عندى، وهل يسعنا أن نؤاخذ أحداً من الناس بأنه ليس شاعراً كراسين أو پندار، لمجرد أن عاشقة له حسبته مثلهما...؟ وأود أن أقف قليلا عند هذا الأمر، فان فيه علة كثير من الآمال المخيبة، سواء أتعلقت هذه الآمال بالصداقة أم بالحب: فاننا لانرى فوراً الشخص على ماهو عليه، وإنما نجعل منه فى أول عهدنا به، معبوداً؛ ثم نلومه بعد ذلك على أنه لم يكن ذلك المعبود. ومن ناحية أخرى، لم أكن أنا أيضا أرى إيقلين على ما كانت عليه؛ وعلام كانت إيقلين؟ هى نفسها لم تكن تعرف ذلك. لقد كانت تلك التى أحببتها. ولقد لبثتْ طول المدة التى أحببتها فيها، تحاول أن تتشبه بمعبودى، فتحلت بفضائل كنت أعتقد أنها من ذاتها، فضائل كانت تعرف أنها تعجبنى. لم تكن

لتهتم طول المدة التى فيها أحبتنى بأن تعرف نفسها ؛ لم تكن ترجو سوى أن تمتزج بى ... على أننا نلمس هنا مشكلة ذات أهمية وخطورة بالغة ، ولمحاولة إيضاح ذلك أكتب ما يلى . وأريد أولا أن أتحدث قليلا عمن كنته قبل ان أعرفها ؛ وليس من شك فى أن ذلك سوف يعين القارىء على إدراك مكانة إيقلين عندى .

لم تكن طفولتى سعيدة جداً . كان والدى يدير حانوتاً للحدادة فى أحد شوارع مدينة بربينيان الأكثر ازدحاماً وحركة. كنت فى الثانية عشر عندما توفى والدى تاركا كل أعباء متجره لوالدتى التى كانت تجهل كل شىء عن الأعمال التجارية ؛ وأعتقد أن كاتبها الأول كان يمتص مالها . أما أختى ، وهى تصغرنى بعامين، فكانت رقيقة الصحة ، وقد فقدناها بعده ببضعة أعوام . وبين هاتين المرأتين قضيت سنى الصبا ، دون أن أعاشر الصبيان الذين كانوا من سنى ؛ فاننى كنت أعتبرهم قساة غلاظا . لم أكن أعرف من مسرات الصبا غير التوجه أيام الآحاد ، فى صحبة والدتى وأختى ، لتناول الغذاء عند خالة عجوز عانس ، كانت تقيم فى شبه دسكرة ، على ثلاثة كيلومترات من بربينيان . كنت وأختى نلاعب كلابها وقططها ، وكنا نذهب لصيد الأسماك الحمر فى حوض مستطيل يقع فى طرف حديقة صغيرة ، بينما كانت أمى وخالتى تلاحظاننا من

بعيد . كنا نطعم الشصّ بلباب الخبز إذ كنا نشمئز من الديدان ونخشى أن نتسخ ، ولعل ذلك كان السبب فى أننا كنا نعود دواماً صفر اليديدين . ورغم ذلك كنا نعيد الكرة ، كل يوم أحد ، ولا نفارق الشصّ إلا عندما تدعونا خالتنا لطعام العصر . وكنا بعد ذلك نقضى الوقت فى لعبة « اللوتو » إلى ساعة الرحيل ؛ وعندئذ كانت العربة القديمة التى أحضرتنا فى الصباح ، تعود بنا إلى بربينيان حيث كنا نتناول العشاء .

توفيت هذه الخالة فى نفس العام الذى توفيت فيه أختى ، وتركت لنا ثروة كبيرة ما كنا لنحلم بها ؛ فأتاح ذلك لوالدتى أن تستريح أخيراً بعد أن باعت متجرها ، كما أتاح لى مواصلة دراستى .

كنت تلميذاً مجتهداً . لِمَ لا أجرؤ أن أقول مجتهداً جداً ؟ ذلك أن الاجتهاد غدا فى أيامنا هذه شيئاً مبتذلاً ، بينما تحولت الحظوة كلها إلى المواهب . كنت مجتهداً اجتهاداً فوق العادى ، وإلى أبعد ما تستطيع الذاكرة أن تعود بى ، أرانى وقد استولت فكرة الواجب على نفسى كل الاستيلاء . ذلك أننى كنت أحب والدتى وكنت أريد أن أوفر عليها كل نصبٍ وهم ، فلولا الاعانة المدرسية التى حصلت عليها قبل الميراث الذى خلفته لنا خالتى ،

لكلفتنا دراستى فوق طاقتنا . وأعجز عن وصف حياتنا المملة المقبضة ، ولا أحب أن أعود إلى هذا الماضى لو لم يكن علىّ أن أتكلم عن والدتى وأختى، فانهما الوجهان الوديعان اللذان كانا يحدان أفق قلبى . كانتا تقيّتين كل التقى ، ولعل عاطفتى الدينية كانت جزءا من حبى لهما . كنت ارافقهما إلى الكنيسة كل أحد قبل أن تحضر العربة لتقلنا إلى خالتى ، وكنت أطيع فى دعة ما كان يوصينى به الأب *... وأستهدى بما كان يهدينى ؛ وكان يهتم بنا ثلاثتنا ويعنى بأمرنا ؛ وكنت أبذل جهـدى فى ألا تخطر ببالى فكرة ، أو تبدر منى بادرة إلا كنت قادراً على ذكرها له ، وفى إمكانه الرضى عنها .

وتوفيت أختى وسنها ستة عشر عاماً ، أما أنا فكنت قد بلغت الثامنة عشرة . كنت قد انتهيت من دراساتى الأولية ، وبفضل ميراث خالتى كان فى إمكانى أن أواصل دراستى فى باريس ؛ إلا أن فكرة ترك والدتى فى بربينيان منفردة جعلتنى أفضل مدينة تولوز ؛ إذ كان قربها يسمح لى بالعودة مراراً إلى بلدتى . وتركت لى دراسة الحقوق فراغاً لم أفكر فى ملئه إلا بلقاء والدتى . كنت أطالع كثيراً ، ولكن كان فى إمكانى أن أطالع على السواء وأنا بجانبها ، فمذ توفيت خالتى لم تعد ترى أحداً غيرى . كانت

صورة أختى ماثلة بيننا ولا تكف عن مرافقتى ؛ وعندى أننى مدين لها ، بقدر ما أنا مدين لنصائح الأب فى اشمنزازى من هذا اللهو الرخيص الذى كنت أجد زملائى ينغمسون فيه . وتولوز مدينة كبيرة تستطيع أن تقدم للشباب الطائش فرصاً عديدة للزلل . وأنا أستنكر اليوم ، كما استنكرت فيما مضى ، هذه النظريات العصرية التى ترمى إلى الحط من قدر فضائلنا ، زاعمة أننا لا نقاوم من ميولنا إلا ما نحس به إحساساً قوياً . ومع ذلك فاننى أعتقد أن ما فى الدين من عون ، ضرورى للتغلب على الضعف البشرى ؛ ولقد التمست هذا العون ولم أفخر بمقاومتى . هذا وإننى كنت أتجنب الانقياد إلى اللهو كما كنت أتجنب عشرة السوء والكتب الاباحية . لم أكن لأعرض لهذا الموضوع لو لم تكن الحاجة تدعو إلى بيان مكانة الآنسة * ... عندى، وذلك على أثر لقائها مباشرة . كنت أنتظرها .

وأنا أتبين الآن خطر مثل هذا الانتظار ، فان شاباً ، فى مثل ما كنت عليه ، بعون الله ، من طهارة ، يركز فجأة ، وفى امرأة واحدة كل أمانيه الخفية ، يتعرض إذ ذاك للمغالاة فى تقدير فضائل من تعلق بها قلبه . ولكن أليست هذه خاصية الحب ؟ لقد كانت إيفلين جديرة بتلك العبادة التى كرستها لها فى

الحال ، ولقد هنأت نفسى على أننى إلى تلك اللحظة لم أشب بشائبة قلبى ، فمنحتها إياه سليما .

وبعد أن جزت امتحانى بتفوق مرض ، تركت تولوز لأنها لم تعد تستطيع أن تقدّم لشهوتى الذهنية الغذاء الذى يشبعها . ذكرت أن فكرة الواجب كانت منذ عهد الصبا تسيطر علىّ حياتى ؛ وأدركت أن علىّ واجبات أخرى كتلك المفروضة علىّ نحو والدتى ، واجبات مقدسة نحو وطنى ، أى نحو نفسى التى كانت ولا فكر لها إلا أن تخدم هذا الوطن أحسن الخدمات . ولما كنت فى مأمن من متاعب التفكير فى كسب العيش ، كنت حراً فى تدبير وقتى حسبما أشاء . كنت ميالا إلى التصوير والأدب ، ولكنى كنت لا أجد فى نفسى مواهب مميزة أو قاصرة ، بحيث أستطيع أن أزاول مهنة مصور أو روائى . وبدا لى أن مهمتى فى هذه الدنيا خليقة بأن توجه نحو العمل على تقدير مزايا غيرى وإظهارها ، ونصرة مبادىء تحققت من صلاحها . ليضحك من شاء من رجال اليوم المتغطرسين ، وليهزأوا ما شاء لهم الهزء بهذه المهمة المتواضعة . كان أول ما بدأته بمجرد أن انتهيت من خدمتى العسكرية التى قضيتها فى المدفعية ، هو البحث عما أصلح له من عمل . بحثت عما كانت فرنسا أحوج إليه ؛ وأخذت أعاشر ، فى

باريس، أولئك الذين كان فى وسعهم أن يمدونى بالمعلومات، أو الذين كان حماسهم يعدل حماسى، ممن كانوا، مثلى، ساخطين على حالة الاستهتار وقصر النظر والفوضى التى كان وطننا يذبل منها ويفنى.

لقد دهش والد زوجتى، فيما بعد، من أننى لم ألق بنفسى (على حد تعبيره) فى تيار السياسة؛ وكان يجزم بأنه كان فى وسعى أن أنجح فيها؛ وأرى أن أسفه، فى هذا الشأن، يستحق كل التقدير، خصوصا وأننى لم أكن أشاركه شيئاً من آرائه الساسية؛ فلقد كان يرى أن حالة الأمور، على ما كانت عليه وقتئذ، إن لم تبلغ حد الكمال فانها مرضية. وكان ينظر إلى كل شىء على نحو ما كان ينظر إليه ڤيلانت. أما أنا فكنت أعتبر أول خطوة واجبة علينا فى سبيل الوصول إلى ما هو أحسن هى تأمل موقفنا السياسى الذى يخضع إليه كل موقف آخر، ثم العمل على تعديله. أليس من الطبيعى أن أطبّق على وطنى تلك المبادىء التى كانت تهدى سلوكى وكنت قد تحققت من نفعها؟

كان رأيى أن السياسة يدخلها كثير من المغامرة، فلو أننى دخلت مضمارها لكنت اضطررت إلى تنازل منى وانحراف عن خطّتى المرسومة. ولكن، أنا لا أكتب هنا ما يبرر مسلكى، بل أكتب قصتى.

كنت أعاشر عدداً كبيراً من رجال الأدب والفن ، وكنت أمتنع فى عزم عن الانقياد لهم ولا يعازهم إلىّ بالكتابة أو التصوير وفق ميولى الفطرية . وأتاح لى هذا الامتناع الفرصة لتذوق مؤلفات الآخرين وإعانتهم على إخراجها ، لا بما كنت أقدم من نصائح فحسب ، (فأن النصائح لا يتقبلها راضياً حتى أحوج الناس إليها) وإنما بتأييد وتزكية كانت تتيحهما لى صلتى بالأوساط السياسية . (هذا بغض النظر عن الإعانة المباشرة التى كنت أقدمها لفنانين كنت واثقاً من أن إعانتى لن تكون مشجعاً لهم على الكسل) .

كل الذين أقبلوا على دراسة أحوال بلدنا دراسة عميقة أتيح لهم التحقق من أن العناصر الأولى فيه طيبة ، وأن ما يعوزنا إنما هو طريقة استثمارها على النحو الذى يحسنه جيراننا فيما وراء الراين . الإنسان فى حاجة إلى أن يُوجَّه و يُحاط و يُسيطر عليه ؛ فما كانت شخصيتى لتكون كما هى لو لم يكن رائدى آراء سامية ومبادىء يحاول اليوم كثيرون التحرر من نيرها .

ليس أفضل من أن أضرب مثلا كى يتاح للقارىء أن يفهم نوع العمل الذى كنت أقوم به ؛ وأنا أختار مثلا لا تحتاج نتائجه إلى إيضاح وقد قوبل بأكبر التقدير .

كان قد تبين لى أن أجود الكتب كثيراً ما تلاقى عقبات فى طريقها إلى أيدى الجمهور المختار اللائق بها ، وذلك بسبب ما يعوز المؤلفين من اتجاه فكرى عملى . وعلى نقيض ذلك رأيت أن عدداً كبيراً من القراء ، ممن لديهم رغبة صادقة فى مطالعة الكتب القيمة ، يجهلون وجود هذه الكتب ، أو أن علمهم بها ناقص ؛ فهم يمرون إزاء هذا الغذاء السليم دون الوقوف عنده ، بينما هم يشبعون شهوتهم بمؤلفات لا يصح أن تقرأ ، مؤلفات استطاع الإعلان الحاذق ان يضعها نصب أعينهم فى الوقت الملائم . واعتقدت أنه فى إمكانى أن أقدم خدمة حقيقية إلى كل من جمهور القراء والمؤلفين والناشرين على السواء . وبينت للناشرين مزايا مشروع اهتموا به على الأثر ؛ واتصلت بأرجح العقول فى ذلك الوقت ، وكونت لجنة مهمتها اختيار الكتب الخليقة باشباع شهوة أولئك الذين أدركوا مدى الضمان الذى يجدونه ، إن هم وكلو أمر اختيار كتبهم إلى لجنة مشكلة على هذه الصورة الحسنة . الفرنسيون قوم يتمسكون بعاداتهم ، يفعلون اليوم ما فعلوا بالأمس ، ثقتهم فى أذواقهم الخاصة شديدة وتأثرهم بالبدع وغوايتها عظيم ؛ ولقد وجدت أكبر المشقّة فى إقناعهم بأن يكلو أمرهم إلى ثقاة مختصين . على أننى توصلت ، بعد مساع

كبرى ، إلى ضم عدد محترم من المشتركين ، مكنّن اشتراكهم من ضمان نجاح بعض المؤلفات، ومن نجاح مشروعى فى وقت واحد. وبهذه الوسيلة أبعدت عن هذه النخبة من القراء الكتب الرديئة أو الحاثة على الرذيلة التى تعمدت لجنتى ، بالطبع ، إغفالها ؛ لأنه من الملاحظ أن الذهن الذى أشبعته الكتب الطيبة لا يحتفظ بشهيّة تذكر للأدب الردىء . على أن هذه الخدمة التى قمت بها على هذا النحو لم تلق للأسف ! لدى زوجتى حظوة . فعند كل اجتماع جديد كانت تعقده اللجنة ، كانت إيڤلين تستعلم فى سخرية ، لا عن أسماء المؤلفات المختارة ، وإنما عن قائمة الطعام الذى كان يسبق المداولة ؛ طعام جيد ، والحق يقال ، كان يقدمه الناشرون ، وكان أعضاء اللجنة يتفضلون بدعوتى إليه .

أما الكتب التى كانت تختارها اللجنة، فإن إيڤلين كانت تزعم أنها لا ترغب فى قراءتها أو أنها تعرفها من قبل ؛ وإلى استقلال رأيها كنت أستطيع أن أقيس على أحسن وجه مدى تضاؤل حبها لى ؛ على أننا هنا ندخل فى لب الموضوع ذاته .

أنا لا أكتب يوميات ؛ والحوادث التى أجمعها هنا تتدرج على سنوات عديدة ، وليس فى إمكانى أن أحدد فى دقة الزمن الذى ترجع إليه أول مظاهر روح التمرد التى بدأت ألاحظها على

إيڤلين — هذه الروح التى لم أجد مندوحة عن التنديد بها رغم كل حبى لها . التمرد أمر يستحق التنديد ، وبصفة خاصة إذا صدر عن المرأة . فنى السنوات الأولى من زواجنا ، وفى أيام الخطبة بصفة خاصة ، اعتنقت إيڤلين أفكارى وآرائى دون أن نفحصها ؛ اعتنقتها فى حماس واطمئنان حملانى على الاعتقاد أن هذه الآراء والأفكار كانت صادرة عن طبيعة نفسها . أما ذوقها الأدبى وذوقها الفنى فكانا وكأنهما فى انتظار مجيئى ليتكونا ، ذلك لأن أبويها كانا لا يفهمان منهما شيئاً كثيراً . وعلى ذلك كان الوئام تاماً بيننا ؛ ولم تتضح لى علة تمردها إلا فيما بعد ، بعد فوات الأوان ، بعد أن وقع ما لا يُتدارك .

كنت ما فتئت أستقبل فى بيتى صديقين لى ، أحدهما الطبيب مارشان والآخر المصور بورجڤيلسدورف رغم ما كانا يجهران به من آراء متطرفة . كنت أستقبلهما لأن أحدهما كان فناناً نابغاً كدت أكون الوحيد الذى يعترف بنبوغه؛ أما الآخر فلسعة علمه ، ولأنه أدى إلينا بعض الخدمات . أنا لا أعتقد أن الفكرة تنشأ من تلقاء ذاتها وخاصة فى ذهن المرأة ، فيمكنك أن تجزم أن الأفكار التى تنبعث فى ذهنها إنما غرسها أحد غيرها . وفى هذا الصدد أقر بخطئى : كان خليقاً بى ألا أستقبل فى بيتى

هذين الفوضويين رغم ما لهما من علم أو نبوغ ، بل كان ينبغى ألا أدعهما يتكلمان فى حضرة إيفلين على الأقل . وهى لا تخفى فى يومياتها اهتمامها بهما ، ولما كان كلاهما صديقى اغتبطت أول الأمر فى سذاجة لهذا الاهتمام . ليست الغيرة من طبعى فى شىء ، ثم والحق يقال لم تكن إيفلين — لله الحمد — تخلق موجباً لها . لكن أليس استماعها لكلامهما فى تبسط فيه أكثر من الكفاية ؛ وعلى نقيض ذلك كانت قد كفت عن الاصغاء إلى كلام الأب بريدل ، ولو أنها كانت قد أصغت إليه لأوجد ذلك على الأقل شيئاً من التوازن الموفق . ولقد جرى بيننا جدل كثير . ولما كانت من جهة أخرى تطالع كثيراً وتستخف بنصائحى وتختار من الكتب ما كان من شأنه أن يبعث فيها الجرأة لم تعد تخشى معارضتى .

وكان جدلنا يدور فى الغالب حول موضوع تربية ولدينا .

لقد أتيح لى فى مناسبات عديدة مشاهدة البلاء الذى تنزله حرية الرأى بالأسر وما تثير من نزاع بين الأزواج . وترى الزوج ينتهى به الأمر غالباً إلى إنكار عقيدة آبائه ومن ثم لا يعرف ضابطاً لانحلال أخلاقه . على أنه ، فيما يختص بالأولاد ، أعتقد أن الضرر يكون أبلغ عندما يكون الرأى الذى يستقل فى

تصرّفه هو رأى الزوجة، فإن وظيفة المرأة هى قبل كل شىء الصيانة . عبثاً ما حاولت أن أفهم إيڤلين ذلك ، وعبثاً ما دعوتها إلى أن تزن تبعاتها نحو ابنتها على الخصوص ، إذ اتيحت لى هذه النعمة : أن أرى ولدى يؤثر الاستماع لنصحى . أما چنوڤييڤ فإنه لما كانت أشد من أخيها إقبالا على العلم ، وكان حب الاطلاع لديها شديداً ، أشد مما يليق بامرأة ، كان عقلها أميل بالطبع إلى اقتفاء أثر أمها فى طريق الالحاد الزلق . وتعللت ايڤلين بإعداد بنتها لامتحاناتها فشجعتها على قراءات كانت تكدر الأب بريدل ، وتحملنى على الاحتجاج على ما يتلقاه نساؤنا اليوم من تعليم ، هنّ على الغالب فى غنى عنه . وفى رأيى أن عقلهن لم يخلق لمثل هذه الأغذية ، إذ لا يستطيع أن يقاوم سمومها بما من شأنه أن يرد شرها . وكنت أحتج عبثاً وأنتهى دائماً إلى الاذعان متعباً من جدال لا ينتهى ، راغباً فى أن أحفظ ما وسع جهدى سلاماً عائلياً مهدد الكيان . وقد أقرت نتائج هذه التربية ، يا للأسف ، كل مخاوفى . على أنه لما كانت أكبر الشوائب التى اعترت سلوك ابنتى لاحقة لوفاة زوجتى ، فلا داعى للكلام عنها هنا ؛ فإنها مسألة يشق علىّ بصفة خاصة الوقوف عندها .

نعم ، قلت وما زلت أردد أن مهمة المرأة فى الأسرة وفى

العالم المتمدين كله هى الصيانة ، وينبغى أن تكون كذلك ؛ وعندما تعى المرأة تمام الوعى تلك المهمة ، عندئذ فقط يستطيع عقل الرجل ، وقد تحلل ، أن يدفع إلى الامام . ولكم شعرت أن موقف إيڤلين منى كان يقف حجرة عثرة فى سبيل رقيّ الفكرى ، إذ رأيتنى فى أسرتى ملزماً بتأدية أعمال كان من المفروض أن تؤديها هى . على أننى من ناحية أخرى أعتبر نفسى مديناً لها أمام الله لكونها ، بهذه الوسيلة ، شجعتنى على القيام بفروضى الدينية والاجتماعية ، فاشتد إيمانى ؛ ومن أجل هذا أغتفر لها أمام الله ما فعلت .

وإنى المس هنا نقطة دقيقة، وهى ذات أهمية كبرى بحيث لو وقفت عندها قليلا لاغتُفر لى وقوفى . هذه النضارة الروحية والجسدية ، وهذا الطهر النفسى والجسمى اللذان يأمل كل إنسان صالح فى أن يجدهما فى الفتاة التى يفكر فى أن يجعل منها إلف حياته ، قد وجدتهما على ألطف صورة فى إيفلين . أكان فى وسعى أن أشك فى حقيقة طبعها ؟ ثم أكان فى وسعها هى أن تدرك جميع ما فى طبعها من جموح خفى لم يظهر إلا بعد أن فقد الهوى سلطانه ؟ من خاصية الهوى أن يعمينا عن كياننا كما يعمينا عن عيوب من نهوى . وهذا الخضوع الذى كان يعجبنى

من إيفلين حسبت فى أول الأمر ، كما حسبت ، أنه من سجيتها فى حين كان الهوى مرجعه . ثم لم أكن أؤمل من إيفلين خضوعاً آخر غير الذى كنت ألزم به عقلى نفسه . ولكن «خضوع العقل» هذا الذى قال عنه الأب دى لاسير من أيام قلائل : « لعله أصعب من إصلاح الأخلاق» ذاكراً فى كبير صواب «أن الإنسان لا يعد مسيحياً بدونه (١) » هذا الخضوع العقلى لم تعد إيفلين تدعيه . ماذا أقول ؟ بل ادعت أن لها من الرأى كفاية ، بحيث تستطيع أن ترشد نفسها بنفسها وأن تستغنى عن مرشد . ولقد حدث هذا بالضبط فى الحين الذى بدأ عقلها المتمرد يستيقظ ويفحص الأشياء فحص الناقد ، أى أن تضع موضع الشك المبادىء التى تسيّر حياتى . وصرحت لى ذات يوم أنّ رأينا عن الحقيقة بلا شك يختلف ؛ فبينما ما فتئت أنا أؤمن بحقيقة إلهية خارجة عن طاقة البشر ، حقيقة كشف الله عنها وأنزلها برعايته ووحيه ، لم تعد هى تعتبر حقيقياً إلا ما تحققت منه بذاتها . هذا رغم قولى لها إن الاعتقاد فى حقيقة خاصة يؤدى مباشرة إلى الفردية ، ومن ثم يفتح الباب للفوضى .

---

(١) أنظر إلى مجلة « دراسات » عدد ٢٩ يوليو سنة ١٩٢٩

وعندئذ قالت : ياصديقى المسكين ! لقد أحسنت بزواجك من فوضوية ، وتبسمت كأن فى هذا ما يدعو للتبسم .

ولو أنها احتفظت بآرائها لنفسها لهان الأمر ، لكن كان لا بد لها أن تبذر بذورها فى ولدينا ، وأن تتعهدها بصفة خاصة فى چنوڤييف بنتى التى كانت على استعداد تام لقبول هذه الآراء ، ولم تكن فيما يلوح تقصد من طلب العلم إلا أن تجد فيه مايشجعها على حرية الرأى .

هذه الآراء الهادمة التى ما اتجهت إلى عقل رخص لم يُحَطْ بشرها إلا فعلت فيه فعلها البطىء الهدام شبيهة عندى بديدان المناطق الحارة التى تأكل وتحل أخشاب المبانى فى سرعة عجيبة . وقد تبدو الأخشاب فى ظاهرها كأن لم يمسها تلف ولا شىء ينذر بانهيارها العاجل ، بيد أن باطنها فاسد كله ، ثم قبل أن يتنبه أحد لهذا الفساد ينهار البنيان بأكمله .

ما كان أوهى ما بنى عليه حبى ! لو كنت استطعت أن أتحقق من هذا فى الوقت الملائم لاحتطت لتلاشى الشر قبل استفحاله ولألزمتها خضوعا أشد ، ولحرّمت عليها كتباً ، لو أننى اطلعت عليها قبل أن تطالعها هى لظهر لى خطرها الخبيث فى صورة أوضح . ولكن رأيى كان دائماً أن خير وسيلة للنجاة من الشر

هى ان تصرف الأنظار عنه . ولكن إيڤلين ، للاسف ! لم تكن ترى هذا الرأى ، فانها ما لبثت أن ادعت القضاء فى كل شىء برأيها . وإنى لآخذ على نفسى هنا بعض الضعف فى خلقى . ولعل احترامى للسلطة ، لسلطة الكنيسة بصفة خاصة ، واعتيادى الخضوع ، كانا ذا أثر فى أننى لم أستطع أن أحصل من نفسى على فرض ولايتى الزوجية عليها : هذا الفرض الذى كان يوصينى به الأب بريدل ، والذى يجب على كل زوج ثابت الإيمان أن يؤديه فى غير تحرج ، والذى كان يستطيع ولا شك أن يمسك عقل إيڤلين عن الانزلاق فى طريق الضلال . ولم أدرك ضرورة فرض هذه الولاية عليها إلا بعد أن غدا فرضها غير ملائم ؛ وأصبح معرضا لأن يصطدم بمعارضة داخلها الكفر . حدث ذلك ذات مساء كنت أطالع لها فيه ، ولم أكن بعد قد يئست من أن أعادل على الأقل الأثر السىء الذى أحدثته فى نفسها هذه الكتب التى تخاذل ضعفى عن تحريمها . كنت أطالع لها فى كتاب من كتب الكونت چوزيف دى ميستر ظهر نص الترجمة الرائعة التى كتبها ولد المؤلف عن حياة أبيه . وكان قد ألمّ بإيڤلين تعب اضطرها إلى ملازمة الفراش بضعة أيام ثم بدأت تنهض وتستريح على الإيوان . وكان نفس المصباح الذى يضىء كتابى يضىء قطعة من الملابس كانت

تعدها لولدنا الثانى وتزينها بالتطريز . كان ذلك فى سنة ١٨٩٩ وعمر جنوڤييف إذ ذاك عامان . كانت ولادة جنوڤييف سهلة ، أما ولادة چوستاف فكانت تنذر بأنها سوف تكون عسيرة ، فكانت إيڤلين تشعر بتعب غير عادى . ولعل هذا التعب يرجع إلى أثر الزلال الذى ظهر على سيمائها فى شكل انتفاخ كريه جداً يشوه وجهها .

كانت تقول : « كيف يمكنك أن تستمر فى حب شخص بهذه الدمامة ؟ » فاحتججت فوراً لما تبينت فى عينيها ، نفسها التى هى ، كان لا يمكنها أن تتغير . على أنه كان علىّ أن أقر بأن نظرتها لم تعد ما كانت عليه ، وأن نفسها لم تعد تلك التى عرفتها . كنت لا زلت ألتمس فيهما حباً فما شعرت فيهما إلا بمعارضة وأحياناً بما يشبه الصد . وتجلى فجأة فى هذا المساء ذلك الصد الذى كنت آبى على نفسى إقراره ، تجلى على نحو مكدر جداً . فبينا كنت أقرأ لها فقرة من ترجمة حياة المؤلف إذا بإيڤلين وقد ألقت القطعة المطرزة وتناولت منديلها ووضعته على شفتيها لتحجب النصف الأول من وجهها ، كانت تضحك . فوضعت كتابى جانباً ورمقتها .

فقالت : مغفرة ! قد حاولت أن أمسك نفسى فلم أقدر .

وأخذ أعلا جسمها يرتج عن ضحك جنوني ؛ وبدا لي فعلا أنها كانت لا تستطيع أن تمسك نفسها .

فقلت في لهجة فيها أكبر الهدوء، بل وفيها شيء من الدهشة والصرامة :

— إنني لا أرى ما يُضحك في ...

ولكنها لم تدعني أتم عبارتي وقالت :

— أوه ! ليس فيما تقرأ شيء يضحك ، بل بالعكس هي تلك اللهجة المؤثرة التي تصطنعها ...

يقتضي الأمر أن أنقل العبارة التي أدخلت على زوجتي هذا الطرب المفاجيء وهاهي :

«لم يسمح الكونت جوزيف دي ميستر لنفسه قط ، طول المدة التي قضاها في دراسة الحقوق بجامعة تورينو، أن يطالع كتاباً ما دون أن يكتب إلى والده أو والدته في شامبيري مستأذناً في مطالعته » .

وأردفت هي : أشعر أنك ترغب كل الرغبة في أن أعتبر هذا جديراً بالإعجاب .

فقلت في حزن بل وفي خيبة أمل كبرى : وها انا اتبين أنني فشلت .

وإذن أتجدين هذا مضحكا ؟

أجابت : إلى أقصى حد .

كانت قد كفت عن الضحك وأخذت تنظر الىّ فى جد، بل وفى ما يشبه الكدر ؛ فأدرت نظرى عن نظرها مخافة أن أكتشف فى عينيها شعوراً لا أرضى عنه ، وأردت أن أظهر شيئاً من الهوادة عالماً أن معاملة النساء لابد أن يكتنفها شيء من المرونة، فلعلّنا نفقد كل شيء إن أسرفنا فى الطلب ، وقلت :

— إن الكونت جوزيف دى ميستر يعرض لنا هنا ما يمكن أن نسميه « حالة مُثلى » ، وهذا ما يمنحها أهميتها وجلالها؛ وإنى لأعجب بحزم هذه الشخصية الفذة على جميع أولئك الذين فى نفوسهم خور، فما أكثر الذين يتقبلون الأمور على علاتها ويرضون بانحلال الأخلاق ، وهم برضائهم هذا يساعدون على هذا الانحلال . ولكنى أعترف بأنه لا يمكننا أن نلزم الغير على أن يتحلوا بفضائل نحن أنفسنا نصبو إليها .

فقالت لى متفضلة : « أيًّا كان الأمر فإن العبارة على نحو ما قيلت جميلة جداً » ، ثم ضحكت مرة أخرى ضحكا صريحاً صادراً عن القلب ، ضحكا لبثت بعده زمناً طويلا لا أسمع مثله ، أو على الأقل لبثت لا أسمعه على هذه الصفة النقية الظريفة ، ضحكا

تضمّن فيما بعد كل معانى السخرية ، وقضيت ردحاً دون أن أعترف لنفسى أن فيه احتقار ، بل اعتبره شعوراً منها بالتفوق ، وهو شعور يثير الاشمئزاز قليلا كلما لمسته لدى إحدى النساء . ومهما كان الأمر ، فإن هذا الضحك الصريح سكن من روعى ، وأردت أن أظهر شيئاً من الهوادة فقلت :

— لقد أجزت لنفسك فى هذه الأيام الأخيرة شيئاً من الحرية فى قراءاتك ، أرجو ألا تجيزيه لولدينا .

فأجابت فى جفاء : أرجو أن يجيزا لنفسيهما هذا دون أن يستأذنا أحداً .

وكان فى صوتها تحدٍّ ، وشعرت أن هذه العبارة كانت تنوء بفكرها ، ولم أرغب فى أن أعتبرها سوى احتداد منها يستوجب رده ، فقلت فى شىء من الصرامة :

— إننى لحسن التوفيق متنبه إلى ذلك . إن مهمة الآباء هى حماية الأبناء ، فقد يتسممون دون علم منهم وينقادون إلى حب اطلاع فيه الأذى .

فقاطعتنى بقولها : لطالما اعتبرت الانصراف عن الاطلاع فضيلة .

فقلت : إن أخطار حب الاطلاع لتتجلى فى شخصك بقدر

كاف . وينبغى للإنسان أن يتجه بحبه للاطلاع إلى ما يثبته فى إيمانه، لا إلى ما يزعزعه عنه .

ولم تنطق إيڤلين بعبارة الاحتجاج التى كانت على ما يبدو تصعد إلى شفتيها، ورأيتها تغلقهما وتضمهما كأنها بذلك تغالب دفعاً داخلياً ، أو كأنها تكبت أفكاراً قد قررت من بعد ذلك أن تخفيها عنى وألا تجيز لى جدالها . لذلك سكت، فاننى إزاء صمتها لم أكن أملك سوى أن أبتهل إلى الله وإلى السيدة العذراء لأودع بين أيديهما رعاية كانت تفلت من يدى . وهذا ما فعلته فى هذا المساء نفسه على نحو وافر .

على أن حديثنا طال أكثر من ذلك ، فاننى أذكر أننى قلت لها أيضاً فى هذا المساء وفى صدد الحديث عن چوزيف دى ميستر وخضوعه لآراء والديه :

— إن الانسان يخضع على الدوام إما لإنسان وإما لشىء ، وخير له أن يخضع لربه من أن يخضع لشهواته وغرائزه ! هـذا القول أوحته إلىّ بعض أفكار للاب بريدل ، فلا مانع إذن ، حيث إنه ليس من عندى ، من أن أضرب به مثلا على مدى التعمّق الذى يمكن أن يصل إليه فكر شأنه الخضوع والاحترام .

وأضيف إلى ما تقدم رأياً آخر خطر لى الليلة فقط فيما يشبه

التجلّى، ولا شك عندى فى أن مرجعه حالة الانقطاع والتأمل التى كنت فى هذه الأيام المنصرمة مستغرقاً فيها بعون الله. وهذا الرأى هو: أن كل فكرة حقيقية إنما هى فى الواقع انعكاس أو إشعاع، فالتفكير إذن صورة من نور الله — وهذا يستتبع بالضرورة أن كل فكرة حقة تخضع لله، ومَن ظنّ أن تفكيره من ذات نفسه وحجب عن الله مرآة فكره، فأنما يكف فى الواقع عن ذات التفكر. وأروع الفكر ما كان الله يستطيع أن يرى فيه ذاته، وكأنه يتأمل فى مرآة.

ولم أتبين هذه الحقائق فى جلاء، لسوء حظى، إلا الليلة فقط. فانى استطعت أن أذكرها لأيقلين فى ذلك المساء، فلعل ما فيها من صواب ونفاذ كان خليقا بإقناعها. إلا أن الكلام الذى كان يتحتم علينا أن نقوله يحضر إلى العقل غالبا، للأسف، بعد فوات الأوان.

وبدأت آلام الولادة بعد ثلاثة أيام من هذه الليلة التى لا سبيل إلى نسيانها، إذ تحققت فيها للمرة الأولى من الصدع الذى بدأ ينشأ بين إيقلين وبينى، هذا الصدع الذى كنت أحس به إحساساً مبهماً دون أن أرضى إلى ذلك اليوم أن أعيره اهتماماً، عالماً علماً قوياً أن الاهتمام بالاحساس يثبت بقاءه وأن الأعراض

عنه يلغيه . وإلى تحليل الاحساس الذى لايصح تحليله يرجع أن عـدداً كبيراً من الروائيين المعاصرين يؤثرون فى النفوس هذا التأثير الضار . على أن هـذا الصدع الذى استحال إلى هوّة ، لم يعـد فى وسعى ألا أراه وألا أحسب له حسابا . . . وكنت فى ذلك الوقت منصرفا كل الانصراف إلى أعمـالى ، فلم أحضر إلى المنزل فى أثنـاء الآلام الأولى . كنت منصرفا إلى أعمال جديدة كانت فكرتها قد نشأت فى ذهنى وحققتها بعدذلك بمجهودى فى نجاح عظيم . وأعتقد أنه من المستحسن أن أذكر شيئاً عنها هنا . وهـذه الفكرة كانت مبنية على الفكرة السابقة التى ذكرتهـا من قبل ، قوامها اختيار كتب خليقة بالقراءة، تعيّنها لجنة مختصة . فقـد تراءى لى أن القراء قـد يرضون أن يُرشَدوا إلى اختيار مورِّديهم، كما رضوا أن يُرشَدوا فى اختيار كتبهم ؛ فإن أتيح لى أن أقوم بهذا الارشـاد ، فقـد أقوم للقراء وللمورِّدين على السواء بخدمة حقـة . وذهبت إلى المورّدين أقنعهم بالمزايا التى تعود عليهم من تعاملهم مع نخبة من القراء تمّ تكوينها ، وهذا بشروط أحددها لهم . وذهبت إلى ناشرى الكتب التى عيَّنتها اللجنة، فتعهدوا أن يضموا إلى كتبهم بياناً بأسماء المورِّدين الذين يصح أن يوصى بهم . وتطلّب منى هذا المشروع الذى نجح نجاحاً

فاق كل آمالى، كما ذكرت، والذى اتسع فيما بعد اتساعاً ما كنت أتنبأ به مساعى عديدة .

فلما عدت إلى منزلى فى ذاك المسـاء كانت آلام الولادة قد بدأت . . .

٣

كتبت ما كتبت . تاركا قلمى يجرى ، ولكنى أتبين الآن خطأ طريفاً وقع لذا كرتى؛ أو، على الأقل ، انتقالا زمنياً يتعلق بتاريخ الحديث الذى جرى بين إيقلين وبينى . فانى وإن كنت قد راعيت كل الدقة فى نقل الحديث ، قد أخطأت فى تحديد زمنه . فانه لم يجر قبل مولد چوستاف كما ذكرت ؛ بل بعد ذلك بسبعة أعوام ، حين حملت إيقلين للمرة الثالثة حملا كانت نهايته غير موفقة . وهذا الخطأ الطريف يرجع ، ولا شك ، إلى الضعف الذى أصاب ذا كرتى على أثر حادث السيارة الذى وقع لى فى يوليو سنة ١٩١٤ ، كما يرجع إلى عوامل أخرى أبعد مدى . إننا نتبين الماضى على ضوء الحاضر ، لذلك يبدو لى الآن هذا الصدع الذى كان بين إيقلين وبينى وكأنه، بالرغم منى، يمتد فى الزمان إلى أبعد مما كان . ويرجع ذلك فى رأيى إلى أنه كان موجوداً قبل أن يتسنى لى التحقق منه . هذا وعسير علىَّ أن أطيل فى تحليل تطور

نفس هي في نظري متحدة دائماً ومطابقة لذاتها؛ وإنّ الذكرى لتودّ أن تحتفظ بصورتها على ما سوف تكون عليه في الأبدية. وكما أن التوبة تمحو الخطيئة وتطهر الماضي الملوث، فكذلك الخطأ يظلّ مخيّماً على الماضي الصافي إلى يوم البعث. وإنني أعتقد، بل أعرف أن إيقلين اعترفت بأخطائها قبل وفاتها بقليل وأرضت الله قبل اعترافها، بحيث أستطيع أن آمل، برحمته تعالى، أن ألقاها فيما وراء القبر على الصورة التي أحببتها في الأيام الأولى لزواجنا، والتي لا زلت أحبها؛ فانني قد صفحت عنها من زمن طويل واغتفرت لها كل ما سامتني من أذى.

ويسوقني تحقق من هذا الخطأ التاريخي إلى الفكرة التالية: ذكرت أن إيقلين كان يروق لها أن تبذر في نفس ابنتها بذور حرية الفكر. ويظهر لي اليوم بعد إمعان النظر أن تحرر چنوڤييف رغم صغر سنها قد نقل العدوى إلى أمها. كانت چنوڤييف تبلغ في ذلك الوقت تسع سنين، غير أنني لا أذكرها قط إلا متمردة، لا تكفّ عن السؤال في كل مناسبة وعن كل امر، طالبة إيضاحاً وتفسيرا. واعتادت أمّها ألا تبخل عليها بالتفسير، بدلا من أن تجيب على أسئلتها بهذا الجواب اللائق الذي كنت أجيبها به: « لأنني أنا أقول ذلك ». أما جوستاڤ،

فكان على نقيض أخته ، ولم يبد من عهد الصبا الأول إلا أكبر الخضوع والاحترام ، متقبلاً في غير شك كل ما أقول . بل لقد كان من دواعي سروري أن أسمع هذا الطفل يجيب في سذاجة وثبات والدته التي كانت تحاول أن تثير فيه الشك وتحمله على الاستقصاء ، قائلا : « هـذا ما قاله والدي » ، وذلك في الوقت الذي كنت أقابل فيه استقصاءات إيفلين المريبة بتعاليم القسسين التي لا سبيل إلى تفنيدها .

فاذا تساءل أحد كيف يمكن لفتاة في هذه السن أن يكون لها مثل هذا التأثير في أمها — والحق كان من العسير القول ، أكانت إيفلين، وقد اهتدت إلى نفسها في بنتهـا، لا تستخدم شخصية جنوڤييف المتمردة لتسلك هذا الطريق المحفوف بالمخاطر وتدفع بنتها إليه دفعاً، أم كانت هذه تسـيّرها إليه . فان التفاهم بينهما كان تاما وثيقا، وكأنهما تواضعتا عليه من قبل — فان كان من العسير الفصل في أيّهما أثّرت في الأخرى ، فانه لا يمكن على الأقـل إنـكار تأثير صديقيَّ الدكتور مارشان والرسـام بورڤيلسدورف . كنت قد تكلمت عن ذلك التأثير فيما سبق، ولـكني أرى من المستحسن العودة إليه ؛ فانني إن كنت آثرت التمهيد بذكر حرية الفـكر التي تميزت بها إيفلين، فان تمردهـا

لم يتخذ هذا الشكل فى أول الأمر ، بل اتخذ شكلا أشد خبثا ، بتأثير بورجفيلسدورف ، وأعنى به مظهر الصدق الذى يستخفى خلفه هـذا التمرد . كنت لا تسمع بورچفيلسدورف يتكلم إلا وأتى هـذا اللفظ مرارا على لسانه ، كأنه سلاح يستخدمه للدفاع عما يتهم به من غرابة أطوار وجرأة غير مجدية، كما يستخدمه لمهاجمة التقاليد والمذاهب ؛ على أنه رغم ذلك كان يحـترم بعض كبار الأساتذة ويقدرهم ويخضع لتعاليمهم . وقد لفتّ نظر إيڤلين إلى هذا الأمر كما لفتّ نظر المصور إليه ؛ غير أنه كان يخلط ويعتبر نفاقا وخداعاً كل مجهود يبذل فى سبيل الكمال وكل إخضاع للعاطفة والشعور لمثل أعلا . وإننى لأعترف بالفعل بأننا إذا نظرنا إليه باعتباره فنانا ، فان مجهوده المستديم فى سبيل التعبير بأكبر قدر من الصدق قـد طبع تصويره بطابع ذاتى جديد . أعترف له بذلك راضياً ، خصوصاً وأننى كنت أحد الأوائل الذين قدّروا تصويره تقديراً صحيحاً . ولـكن حدث بعد ذلك بقليل أن نقلت إيڤلين فكرة الصدق من ميدان الفن إلى ميدان الأخلاق ، حيث لا أزعم أن لا مجال للصدق فيه ، وإنما حيث أعتبر أن فـكرة الصدق من أشد ما تكون خطورة إن لم تكافئها وتعارضها فـكرة أسمى ، وأعنى بها فـكرة الواجب .

وسرعان ما انتهى بها الأمر إلى أنه كان يكفى أن يوصف شعور ما بأنه صادق حتى ينال منهـا الرضا . كأن الـكائن الطبيعى فينا الذى يسمّـيه السيد المسيح عن حق « الإنسان القديم » لم يكن هو نفسه ذلك الـكائن الذى علينا أن نصرعه وأن تحـلّ محـلّه . لم ترض إيڤلين أن تقر هذا ، وأبت أن تدرك أننى أفضل ذلك الذى أريد أن أكونه ، والذى كنت أحاول أن أكونه ، على الـكائن الطبيعى الذى كنته . ثم إنها ، دون اتهامى بالنفاق ، عمدت إلى الارتياب فى كل حركة كنت أقوم بها ، أو كلمة كنت ألفظها ، مبتغيا من ورائهما ترويض نفسى الباطنة على الخير . ولما كانت الفضيلة سجيّـة لديها أكثر منها لدى ، وليس بها غرائز شر تستلزم كبح جماحها (سوى ما ذكرت من غريزة حب الاطلاع) ، لم يكن فى مقدورى إقناعها بالخطر الذى نتعرّض له ، إن أطلقنا لأنفسنا العنان ، وقنعنا بأن نكون على ما نحن عليه ، أى شيئا لا يذكر . كان بودى لو أستشهد لإيڤلين بهذه العظة المذكورة فى إحدى « الرسائل الروحية » لفينيلون ، والتى أشكر الأب بريدل على اطلاعى عليها ، وهى : « يعوزك أن تكبح خيالك الجامح : كل شىء يلهيك ، كل شىء يصرفك عن جدّ الأمور ، كل شىء يعود بك إلى الطبع » . على أن إيڤلين فى الواقع ما أحبتنى ، وإنما

أحببت ذلك الإنسان الذى كنت أسعى لأن أكونه . وكأنى بها كانت تلومنى على رغبتى فى أن أكون هذا الإنسان ، ثم تلومنى ، فى نفس الوقت ، على أننى لم أفلح بعد فى أن أكونه تماماً .

هذا وأن تبجيل الصدق يفضى إلى نوع من تعدد النفس خدّاع ، لأننا متى أطلقنا العنان للغرائز علمنا أن النفس التى لا تريد أن تخضع لأية سُنَّة، إنما هى، بالضرورة مشتتة، متناقضة فى تصرفاتها . أما الشعور بالواجب فانه يضطرنا إلى توحيد شتات النفس توحيداً به تدرك كيانها، ولا تستطيع بدونه أن تنجو ؛ وليس بذى بال أن تشعر بعدئذ أنها متكافئة متشابهة فى كل آن. فلعلها ان طفت ، طفت حول محور ثابت الأوتاد ؛ وفكرة الواجب تضمن توحيد ما تشتت منها . وهذا ما حاولت عبثاً أن أحمل إيقلين على إدراكه وا أسفاه !

أما تأثير الدكتور مارشان فانه ، وإن كان من نوع آخر ، قد كان يصل إلى ذات النتائج عن طريق أدقّ ، وأرجو أن أستطيع توضيح ذلك . سمعته ذات يوم يستشهد بهذه العبارة التى قالها طبيب من مشاهير الأطباء ، لا أدرى من هو ، وهى : « هناك مرضى وليس هناك أمراض » . هذا وأنك لتدرك ما كان الطبيب ومارشان يرميان إليه : ذلك أن الأمراض

لاتوجد خارج دائرة الإنسان فى حالة مجرّدة ، وأن كل إنسان أصيب بمرض يكيّف هذا المرض ويحوله وفقاً لمزاجه الخاص واستعداده . على أننى من ذلك أتبين خطر تعليم النساء ، فان إيفلين أسرفت إلى حدّ الهذر فى مرمى هذه الملاحظة البسيطة رغم تناقضها الظاهر ، فساوت الأفكار بالأمراض ولم تعد تتقبل حقيقة خارج دائرة الإنسان ، ونظرت إلى النفس لا باعتبارها وعاء خلق لكى يتقبل الحقيقة ، وإنما اعتبرتها آلهة صغيرة قادرة على خلق هذه الحقيقة . وعبثاً ما نبّهتها إلى ما فى تأليه النفس من كفر ؛ وعبثاً ما ذكرت لها عبارة الشيطان : « وستصيرون أشباهاً للآلهة » ؛ غير أن إلحاد مارشان ، للأسف ، كان يشجعها ! وهو فى فنّه كما ذكرت رجل قدير ؛ وكانت إيفلين تستند إلى رأيه فى النظر إلى كل حقيقة بالنسبة إلى الإنسان ، لا النظر إلى الإنسان بالنسبة إلى الله تعالى .

ومع ذلك اعتقدتُ ذات مساء أننى سوف أسترد إلىّ إيفلين من جديد . فقد أتاح لى تشكيل اللجنة التى أنشأتها لاختيار أحسن الكتب كما ذكرت ، الاتصال بعالم فاضل يشتغل بالرياضة والفلسفة — لن أذكر اسمه تحرجاً ، لأنه ما زال حياً ولا أريد أن أوذى تواضعه — كنت قد دعوته مع صحبة من الشخصيات

البارزة ومن بينهم الدكتور مارشان . ودار الحديث بعد العشاء حول مسائل تتعلق بالنسبية والذاتية . ولم يكن اهتمامى بقليل إذ سمعت هذا الرياضى يورد هذا : إن عالم الأرقام والأشكال الهندسية لا يوجد حقاً خارج دائرة العقل الذى يخلقه ، ولكن ما يكاد العقل يخلق هذا العالم حتى يفلت منه ويخضع لقوانين ليس فى استطاعته أن يعدّل فيها ، بحيث أن هذا العالم الذى نشأ عن الإنسان يلتقى بمطلق ، الإنسان نفسه خاضع له . فلما أن انصرف المدعوون خلوت إلى إيڤلين ، قلت لها ، إن هذا يدل كل الدلالة على أن الله خلق الإنسان ليعرفه كما خلق قلبه ليحبّه .

غير أن عقل إيڤلين مشكل بحيث إنها استخلصت من هذه الحقيقة نفسها ذريعة للتمادى فى الضلال. كانت قد أصغت إلى كلام هذا العالم فى اهتمام عظيم ، وكنت أستطيع أن أقرأ فى وجهها الأثر العميق الذى كان يحدثه كلامه فى نفسها ؛ فلما كان الغد قالت :

— إن كان عقلى قد منحه الله لى ، فلا داعى إذن أن يخضع لقوانين غير تلك التى فرضها الله له .

لم يكن لعقلى أن يفكر على غير هذا النحو .

فقلت لها : فى هذه الحالة لا داعى إذن حتى لأن نذكر الله .

فأجابت : لعلنا نستطيع أن نستغنى عن ذكره .

وفعلاً ، من ذلك اليوم تكلّفت ايفلين ألا تذكر هذا اللفظ الذى غدا وكأنه لم يعد يحوى فى نظرها أى معنى .

مسكينة ايفلين ! لم أكفّ مع ذلك عن حبها ، فاننى كنت لها مديناً بكل ما كنت قادراً عليه من حب أو شاعرية . غير أن تبدّلها كان يزداد كل يوم ، حتى أننى جعلت أسائل نفسى عما أحبه فيها : فَقَدَ وجهها بهاءه — وعبثا تلمّست عينىَّ حرارة نظرتها التى كان يذوب لها قلبى فى أول عهدى بها — وفَقَدَ صوتها ما كان يشيع فيه من خشية وأصبحت فى حركاتها وسكناتها أكثر ثباتا ؛ ومع ذلك كانت زوجتى . وكنت أعيد على نفسى أن ما أحببته فيها لا الزمن قادر على تغييره ولا هى نفسها . وأدركت أن هذا التغيير الطارئ الذى قد يؤدى إلى حطة محققة فى بعض الأحيان ، ليس إلا تغييراً غريبا عن الروح ، وهى نفس روح إيفلين ما علقت به روحى ، علقت بها بروابط لا سبيل إلى حلّها . وليس هناك شىء أشدّ على النفس عذاباً من أن ترى من جعلتها إلفا لك وزوجا إلى الأبد تزداد كل يوم توغلاً فى ليل الضلال .

وكانت تقول إذ ذاك فيما تبقى لها من حنو :

— وما بيدى ياصاحبى ؟ أننا لانسير فى طريق سماء واحدة .

كنت أعارضها ذاكراً أنه ليس فى الامكان أن تكون هناك

سماوات ، كما ليس فى الامكان أن يكون هناك إلهان ؛ وما السراب الذى تسير فى طريقه والذى تسميه ، سماءها إلا جهنم .

ولست بحاجة إلى القول بأن هذا كله كان يقربنى من الله ، ويعاوننى على إدراك هذه الصفة التى لا نظير لها ، وأعنى بها حبّ الله لله الدائم ، الذى هو على الأقل لا يتغيّر . وتذكرت قول الانجيل : « طوبى للذين يموتون فى الله » ، فقلت متمثلاً : « طوبى للذين يتحابون فى الله » ، ورددتُ مراراً هذه الكلمات التى غدت تبعث فى نفسى حنيناً شديدا ، لأن إيفلين كتب عليها ، للأسف ، ألا تعرف سعادة هذا الحب من بعد ذاك .

ذكرت أسباب الخلط العجيب الذى يرجع إليه خطئى فى تحديد الزمن الذى جرى فيه هذا الحديث بين إيفلين وبينى . كنت قد حدّدته خلال حملها الثانى ، بينما هو لم يجر فى الواقع إلا خلال حملها الثالث ، أى بعد سبع سنوات من ذلك التاريخ ، ولم يتبقّ لايفلين سوى القليل لتقطع الطريق الذى يوصلها إلى التمرد والكفر . وقد عرّض هذا الحمل الثالث حياتها للخطر ، واستطعت أن أؤمل ، بضعة أيام ، أن فكرة الموت سوف تردّها إلى خير مشاعر . وكان صديقنا القديم الأب بريدل لايفارق جوارها ويؤمل ما كنت أؤمل . وما بلغت إيفلين شهرها الثامن

حتى اعترتها نزلة برد خبيثة هدمت آمالنا . وضعت قبل الأجل المنظور جسماً لا حياة فيه . وفى اليوم التالى للوضع انتابتها حمى نفاس لازمتها أكثر من ثمانية أيام ، كانت فيها بين الحياة والموت . وبالرغم من أن درجة حرارتها ارتفعت إلى الأربعين ، ظلت محتفظة بكامل وعيها ، وعلى الرغم من ثقة الدكتور مارشان فى إمكان انقاذها كانت تعرف أنها فى خطر .

قال الدكتور مارشان : إن أول عوامل الشفاء أن تعتقد فى الشفاء . وعلى هذا كان يفتن بمختلف الوسائل فى أن يخفى عنها خطورة حالتها ، ويبعث فيها أوهاما كان يعتبر أن فيها الشفاء .

سألته : كم من النساء ينجون فى مثل هذه الحال ؟

قال : « واحدة من عشرة » ، ثم أردف على الفور فى يقين واطمئنان كبيرين استراحت لهما نفسى : « وهذه الواحدة فى حالتنا هذه هى إيڤلين » . ومع ذلك كنت قد حرصت على أن أنذر الأب بريدل . وكانت إيڤلين بالرغم من الحادها المتضاعف ما زالت تكن له شعورا أشبه بالحنو ، ولم تكن تصدمه أو تخفى عنه تقدم فكرها هذا التقدم المكدر .

على أنه لما كانت لم تقرن حرية الفكر بأى عمل يؤخذ عليها ، كان الأب بريدل لا يشك فى أن فى إمكانها أن تهتدى وأن تعرف

خطأها . كانت الساعة ملائمة ، وفى ذات مساء بينما كانت إيڤلين تشعر بضعف شديد غير عادى ، استدعيت الأب بريدل وتحدثت إليه قليلا فى حجرة الاستقبال وتأهبت لادخاله حجرة المريضة ، ومعه الزيوت المقدسة وقربان المناولة ؛ وكان الأب قد حرص على إحضارها معه .

وبينما نحن إذ ذاك على وشك الدخول ، إذ خرج الدكتور مارشان من الحجرة وأغلق بابها خلفه ومنع الأب من دخولها قائلا فى تلك اللهجة الآمرة التى يحسن اصطناعها :

— لقد بذلت كل جهدى لأردّ إليها الثقة والطمأنينة ، لا تهدما عملى ، إن أدركت أنكما تعتقدان أنها لا محالة ميتة ، فأخشى ألا يكون رجاء فى نجاتها .

وكان الأب بريدل يرتعد ، فتمتم :

— لاحق لك أن تقف فى سبيل إنقاذ هذه النفس .

وسأل مارشان : أفى سبيل إنقاذ هذه النفس تبغى قتلها ؟

فقلت مصالحاً : إن الأب بريدل قد اعتاد هذا النوع من الحديث الذى يسبق الوفاة ، وسوف يعرف كيف لايفزع إيفلين ، وفى إمكانه أن يعرض عليها المناولة لا كما تعرض على من دنا أجله ، بل . . .

فقاطعنى مارشان قائلا :

— وكم مضى من الزمن دون أن تتناول ؟ فلما طأطأنا الرأس دون أن نجسر على الاجابة ، قال :

— إنكما تريان أنه لايمكنها أن ترى فى ذلك إلا احتياطاً أخيراً .

فتناولت يد مارشان ، وكان أيضاً يرتعد ، وقلت فى لهجة حمّلتها أكثر ما أستطيع من عذوبة :

— ياصديقى ! إن دنو الأجل خليق بأن يغير أفكارنا تغييراً ... لاحق لنا فى أن ندع إيفلين تجهل خطورة حالتها ، ولا أستطيع أن أحتمل أن تموت دون عون الدين ، ولعلها دون أن تدرى تنتظر هذا العون وترجوه ، ولعلها لا تنتظر إلا كلمة وإلا هذا الفزع الأخير الذى تريد أن تجنبها إياه كى تتقرب إلى الله ؛ ولكم رأينا أناساً حملهم الخوف من الموت على ...

ونظر الىّ مارشان نظرة حملهـا كل ما وسعه من ازدراء ، ثم فتح باب الحجرة بنفسه ، وأفسح للأب بريدل مكانا للدخول وقال :

— حسناً . أذهب إليها وأفزعها .

كانت إيفلين تنظر بعينين واسعتين ، فلما رأت الأب بريدل يدخل إليها تبسّمت ابتسامة سريعة لا أستطيع وصفها إلا بأنها

أشبه بابتسامة الملائكة ، وقالت فى صوت خافت : « آه . ها أنت حضرت . كنت أفكر أنك ستجىء هذا المساء » . وعبّرت أساريرها فجأة عن جِدّ غير عادى وأردفت :

— وأرى أنك لم تحضر منفرداً .

ثم سألت الراهبة التى كانت ساهرة على خدمتها أن تنصرف .

دنا الأب من السرير وكنت جاثياً إلى أسفله ، ولبث لحظة صامتاً ثم قال فى صوت رصين رقيق معا :

— يا بنيتى ، إن الله الذى يرافقنى واقف إلى جانبك منذ أمد طويل ، وهو تعالى ينتظر أن تحسنى لقاءه .

فقالت : إن مارشان يحاول أن يطمئننى ، ولكن لا خوف عندى ، وأشعر منذ يومين بأننى على أهبة لقائه . روبير صديقى ، تعال قريباً منى !

ودنوت منها دون أن أنهض ، فوضعت يدها الهزيلة على جبينى ومرّت بها عليه فى هدوء ، ثم قالت :

— يا صديقى لقد ألمت بى أحيانا عواطف وافكار لعلها كدّرتك . هذا وأنك لا تعرف منها إلا بعضها ، وأود أن تغتفرها لى ؛ وإذا كان قد قدّر لى أن أفارقك الآن ، فاننى أود أن . . .

ووقفت عن الكلام برهة، ثم أدارت جبينها عنى وبذلت مجهوداً عظيما وقالت فى صوت أعلا وأوضح :

— أود ألا تذكرنى إلا إيفلين صاحبتك التى عرفتها فى عهدك الأول .

وزلقت يدها من جبينى إلى خدى فاستطاعت أن تحس بدمعى يبلله . أما هى فلم تكن تبكى .

وقال الأب بريدل : يابنيتى ، ألا تشعرين بحاجتك إلى أن تتصالحى مع الله كذلك ؟

فأدارت وجهها إلينا مرة أخرى ، وصاحت فى حدة مفاجئة :

— أوه ! مع الله ! لقد أسلمت له منذ أمد طويل .

وعاود الأب كلامه : ولكنه تعالى يا بنيتى لم يمنحك بعد هذا السلام ، وهو لا يقنع به ، وأنت أيضا ينبغى ألا تقتنعى به ، فالقربان لابد أن يختمه .

ثم مال إليها وقال : أتريدين أن يتركنا روبير على انفراد ساعة ؟

فقالت : ولِمَ ؟ ليس عندى قول أخصّك به ، ليس عندى ما أريد إخفاءه عنه .

فقال : إننى أدرك أن الذنوب التى تأخذينها على نفسك ليست

أعمالا اقترفت ؛ ولـكن ، عن أفكارنا أيضا قد يكون علينـا أن نتوب ؛ أتعترفين أنك أذنبت إلى الله بأفكارك ؟

فأجابت فى حزم : لا . لاتسألنى التوبة عن الأفكار التى قد تكون مرّت بخاطرى ، فلن تكون توبتى صادقة . ولبث الأب برهة لحظة ثم قال :

— أولاً تخشعين على الأقل له ؟ أتشعرين أنك على تمـام الأهبة للمثول أمامه تعالى ونفسك متواضعة وقلبك خاشع ؟

فلم تجب بشىء ، وعاود الأب كلامه :

— يا بنيتى ان المناولة لتأتينا غالباً بالسلام ، ويجب أن تأتينا دائماً بسلام يعلو سلام الأرض ، هـذا السلام الذى تحتاج إليه كل نفس ولا تستطيع أن تحظى به دون عون المناولة ؛ إنى آتيك بسلام « يفوق كل إدراك » ، أتريدين أن تتقبليه بقلب خاشع ؟

وإذ كانت إيقلين ما تزال صامتة ، أردف :

— ليس من المؤكد أن الله يشاء أن يستردّك الآن إليه . لاخوف عليك ، إن السلام الذى تأتى به المناولة عميق الأثر إلى حد أن جسمنا السقيم ليشعر به ، بحيث قد شوهد ، بل لقد شاهدت بنفسى شفاء كان لا أمل فيه حدث على أثر المناولة . يا بنيتى ، أسألك أن تهيىء نفسك ليصنع الله بك الآية برضاه تعالى . إن

كنت تؤمنين بالله فإن الله الذى قال لمن أشرف على الموت « قم وامشِ » قادر على أن يشفيك ، الله الذى أحيا من بعد موت .

وبدت على وجه إيڤلين علائم التأثر العميق ، وأغمضت عينيها ، وحسبتُ أن قد دنا أجلها . وقالت فيما يشبه الشكاية :

— إنك تتعبنى يا صديقى ، إصغ إلىَّ أود أن أرضيك ، ثق أنه لا يوجد لقلبى تمرد ما ، إننى مستعدة للخضوع ؛ غير أنه لا يروق لى أن أغش . أنا لا أؤمن بالحياة الأبدية ؛ وإننى لأتقبل هذه المناولة التى تأتينى بها دون أن أؤمن بها ؛ فلك أن تحكم بعد ذلك أأنا جديرة بتقبلها .

وتردد الأب لحظة ثم قال :

— أتذكرين ما كنت تقولين لوالدك وانت صغيرة ؟ سأعيده عليك بالنص ونفسى مطمئنة وقلبى راض : « إن الله سوف ينجيكَ بالرغم منك » .

واستغرقت إيڤلين ، على أثر المناولة ، فى سبات عميق . ولما أخذتُ يدها فى يدى ، فى سباتها ، وجدت أن حرارتها قد خفت ، ثم لما عاد مارشان فى أواسط الليل استطاع أن يشاهد التحسن العجيب الذى بدا عليها ؛ وقال : « ها أنت ترى جيداً إننى كنت على حق فى أن أؤمل » ، رافضاً أن يعترف ، رغم كل

الشواهد ، بفضل المناولة العجيب ؛ بحيث أن هذا الحادث الذى كان أبلغ ما يكون لأقناعه ، لم يفض إلا إلى إيغال كل منا فى اتجاهه الخاص . وخرجت إيفلين من دور النقاهة ، الذى دام طويلا ، وهى أشد جحوداً بنعمة الله وأشد تعنتاً ، أشبه شىء بأولئك الذين ذكرهم فى الكتاب بقوله : « ولهم أعين وهم لا يبصرون ، ولهم آذان وهم لا يسمعون » ؛ حتى لقد بلغ بى الأمر أن ندمت على أن الله لم يستردّها إليه حينما كانت أكثر خضوعاً له ، لما تقبلته رغم إلحادها .

وفى هذا الصدد خطرت لى بعض الخواطر أريد أن أذكرها هنا ، فإنها ذات أهمية خاصة .

وأول هذه الخواطر كان ثمرة حديث جرى بينى وبين الأب بريدل غداة هذه الليلة التى لا سبيل إلى نسيانها . كان هذا الخاطر يمتزج بالدهشة والأسى ؛ كنا نتساءل : كيف ذلك ! كيف يكون فى الإمكان أن يفزع الكافر من الموت أقل مما يفزع المؤمن ، رغم أن أسباب مخافة الله لديه أكثر ؟ إن المؤمن الذى يوشك أن يمثل أمام قاضيه الأعلى ، يدرك إدراكا أليماً مدى عدم كفايته ، وهذا الإدراك ، فى وقت واحد ، يعينه على التوبة ويبقيه فى حالة من القلق فيها صلاح النفس ؛ بينما ينتهى عدم الإدراك

بالكافر إلى التهلكة ، إذ يهيء له أن يموت فى حالة من الصفاء الخدّاع . ثم إن الكافر يستخفى من المسيح ، ويقابل التوبة التى تهدى إليه بالإعراض ، دون ان يحس ، للأسف ، بحاجته القصوى إليها ؛ بحيث أن هذا الهدوء الذى يعتقد أنه يحسّه ، وهذا الصفاء الذى يستقبل به الموت ، يكفلان له على وجهٍ ما ، اللعنة الأبدية ؛ بحيث أنه لا يكون أبداً أقرب إلى هذه اللعنة إلا حينما يكون أبعد عن التفكير فيها .

وأضيف ، فى الحال ، أنه لا يسعنى التفكير فى إيفلين وأنا أستعمل لفظ اللعنة الرهيب ، فإن إيفلين كما ذكرت آنفاً قد أسلمت وجهها لله فى ساعاتها الأخيرة على ما أعتقد ، واستطاعت أن تموت ميتة مسيحية على ما أحب أن آمل . ومجمل القول أنها حتى فى أثناء ذلك الإنذار المكذوب ، قد تقبلت الله . ورغم ذلك فإننا قد تساءلنا ، أنا والأب بريدل ، ألم يكن واجبنا إذ ذاك يقتضى أن نفزعها أكثر مما فعلنا ، بدلا من أن نسكّن روعها على نحو ما فعل مارشان ، وعنايته إذ ذاك بصالح الجسد أكبر منها بصالح الروح ، غير مدرك أن هلاك الروح قد يأتى عن سلامة الجسد .

أما ثانى الخواطر الذى جال بفكرى مع الأب بريدل ، فانه خاص بالمناولة وأثرها السيء فى نفس لم تشتهها بقدر كاف ، أو

لم تكن أهلاً لها ، إن صح هذا التعبير ، (ومن منا ، نحن الخاطئين ، أهل لهذه النعمة التى يعجز الوصف عنها ؟) نفس لا تبذل أى مجهـود فى سبيل التقرب إلى الله ؛ فى الحين الذى يسعى فيه الله إليها . وكأنما هذا النور الذى تتقبله فى غير حب يخيم عليها الظلام ؛ فلا غرو إذن إن بدت لى إيڤلين ، من بعد ذلك ، يغمرها ظـلام دامس . لما رأيتها بعـد عودتها من أركاشون ، حيث أتمت شفاءها ، وحيث لم أتمـكن من مرافقتها لأن أعمـالى فى باريس كانت تقتضى بقـائى بها ، شعرت أنها أشدّ مقاومة وأشدّ صـداً لـكل تأثير طيب ، بل ولـكل نصيحة التمست اسداءها إليها . كنت أقرأ على طىّ جبينها ، فى هـذا الخط العمودى المزدوج الذى كان قد بدأ يرتسم متوسطاً حاجبيها ، كنت أقرأ عناداً متضاعفاً ، وإنكاراً لا للحقائق المقدسة فحسب بل لـكل ما يتهيأ لى أن أقول وكل ما كان يأتى منى . كان مافى نظرتها من استقصاء ساخر يصل إلى أتقى أعمالى ، ويصما بما لا أدرى ، غير أن فيه القهر وفيه التروى والتـكلف ؛ أو بعبارة أخرى ، كانت نظرتها تفعل بى فعـل المشرط فتقتطع منى ذلك العمل أو تلك الحركة أو تلك الـكلمة ، بحيث تبدو كأنها ليست وليـدة نفسى بقدر ما هى مصطنعة . وبدلا من أن نبتهل إلى

الله معاً ونرقى قلبينا إليه سوياً ، على ما كان خيراً فعله ، انتهى بى الأمر إلى أننى بتُّ أتحرج من القيام بالصلاة فى حضرتها ؛ فان ثابرتُ أملاً منى فى أن أجتذب روحها فى إثرى ، فقدت صلاتى ، حتى تلك أضمرها ، كل سطوتها ، وهبطت علىّ فى تعسٍ كدخان ضحية لم يتقبلها الله . وعلى غرار نظرتها كانت ابتسامتها كلما بسطت يدى لزكاة ، تجفف قلبى فى الحال . وبسببها غدت هذه الحركة ، التى كان القلب يكفّ عن المساهمة فيها ، أشبه شىء بتلك التى اشتهرت عن فريسيِّ الإنجيل ، بحيث لم يعد قلبى يشعر بهذه الغبطة العميقة التى يتقبل بها أول ثوابه .

ذكرت أن كفر إيڤلين المتضاعف كان يضاعف إيمانى ويزيد عقائدى الدينية رسوخاً ؛ على أن ما لا يسعنى قبوله هو أن تقواى ، على نقصها الشديد ، استطاعت أن تصرف إيڤلين عن الايمان على ما يفهم من يومياتها . هذا الاتهام الشنيع ، الذى يرمى إلى طرح التبعة علىَّ فى انحراف فكرها ، أنا أدفعه . فان المؤمن ، وإن أساء التصرف مؤمنٌ ، وإن سبَّح بحمد الله فى صوت غير منسجم ؛ وإن الله لن يعاقبه ؛ وصورته تعالى فى أذهان الناس خليقة إلا يشوهها ذلك .

ورغم هذا ، لا أريد أن أسرف فى اتهام ايڤلين ، فانى

أعتقد ، حق الاعتقاد، أن طبيعتها كانت فى جوهرها خيراً من طبيعتى . ولكن ، أكان يجيز لها ذلك أن تعتبر كل ما لم يصدر عنى اعتباطاً ، لا صدق فيه ؟ كانت إيفلين صالحة بالطبع ، أما أنا فكنت أسعى لهذا الصلاح ؛ أولا يتحتم هذا على كل منّا ؟ أأخطأت أنّى لم أرض عن نفسى كما كانت ، وأنى ألزمتها أن تكون أفضل ؟ ماقيمة الانسان لولا هذا الالزام المتصل ؟ ألا يشعر كل بشر بأشدّ التعس إذ ترك لنفسه عنانها ؟ أمّا ما كانت تزدريه منى إيفلين ، فكان ذلك السعى إلى الكمال ، وهو وحده كان خليقاً ألاّ يزدرى . لاريب أنه قد التبس عليها الأمر فى البدء ، ولكن ما ذا كان فى وسعى ان أفعل ؟ لقد أعماها ، فى البدء ، حبّها لى عن عيوبى ونقائصى ؛ ولكن أكان يجيز لها ذلك أن تأخذ علىّ من بعد أننى كنت أقلّ فطنة مما توّهمت ، وأقل خيراً وصلاحا وكفاية ؟ . ما شعرت بشدّة نقصى إلا وشعرت بعوزى الشديد إلى حبّها . لم أكف عن التفكير فى أن « عظماء الرجال» عوزهم إلى الحب أقل من عوزنا . هذا وإن رغبتى فى أن أكون شبيه هذا الكائن الذى هو خير منى ، والذى حسبت فى البدء أنى كنته ، وهذا السعى الذى كنت أصرفه ، وهذه الهمة التى كنت أبذلها ، ألا يمنحنى هذا كله حقاً فى حبها ؟ .

إن التجربة التى قمت بها ، بعون الله وهديه ، بعد وفاة إيفلين ، قد برهنت برهاناً مستفيضاً على مدى المساعدة التى يستطيع الحب الزوجى أن يقدمها فى مثل هذه الحال . أىُّ شىء كان يستعصى علىّ فى حياتى ، لو أن زوجتى الأولى كانت أكبر إدراكا وأشد تعضيداً وتشجيعاً ! غير أنها كانت تصرف عنايتها كلها لتعود بى وتنزل إلى حضيض هذا الكائن الطبيعى الذى كنت أبتغى أن أعلو عليه . ولقد قلت ، قبلا ، إنها لم تكن تقدّر منى إلا ما يسميه السيد المسيح «الانسان القديم» ، الكائن فى كل بشر منا ، والذى يأتى تعالى ليخلصنا منه .

إيفلين ، يالها من مسكينة ! لم تكن تسمو إلى سماء ما ، فكيف كان فى مقدورها أن تساعدنى على بلوغ هذه السماء التى يتيح لنا الدين رؤيتها من هذه الأرض ؟ كيف كان فى مقدورى أن أرتجى رؤيتها فيها يوماً ما ؟ هذا الاعتبار هو الذى ساقنى ، بهدى من عنده ، وعناية منه تعالى ، إلى التزوج ثانية بعد ترملى بزمن يرضى عنه الحياء ، فلقد شاء الله أن يرعى حاجتى الشديدة إلى رفيقة أطمئن اليها ما بقى لى من أيام فى هده الدنيا ، وفى الآخره كذلك ، إن كان الله الذى سوف يفعم القلوب لا يختص ذاته حينئذ بكل حب .

چنفشيف

أو الاعتراف الذى لم يتم

بعـد مضى زمن قليـل على نشر « مدرسة الزوجات » ثم « روبير »، وردت إلىّ ، على صورة مخطوط ، بداية قصة ، من الممكن أن تعتبر إن ضمت إلى السابقتين ثالثة ثلاث .

وبعد أن انتظرت تتمتها طويلا ، أزمعت نشر هذه البداية ، كما هى ، مصدراً أياها بالرسالة التى كانت ترافقها .

أندريه جيد

أغسطس ١٩٣١

سيدى

أفى وسعى أن أرتجى موافقتك على أن تصدّر باسمك ، على غرار ما فعلت بيوميات والدتى ثم بدفاع والدى ، هذا الكتاب الذى أرسله إليك ؟

أخشى ألاّ يكون من شأن هذا الكتاب أن يروقك فلست شديدة الشغف بالأدب ، وأعترف بأنى لم أقرأ لك كثيراً ؛ على أننى طالعت لك قدراً كافياً لإقناعى بأن المسائل التى تثير اهتمامى أنت لا تأبه بها ، أو على الأقل لا أجد لها أثراً فى تآليفك . فالموضوعات التى تعالجها أنت ، لا تتعرض لما تراه « حوادث عارضة » غير خليقة بعنايتك . بيد أنك لن تجد هنا سوى مسائل ذات صفة عملية معروضة فى غير فن . إن عقلك يحلّق فيما هو مطلق ، بينا أتخبَّط أنا فيما هو نسبى . والمسألة عندى ليست كما هى عند أبطالك الذين تصورهم على نحو مبهم عام ، وكما هى عندك :

ما يقدر عليه الإنسان ؟ ولكن المسألة هي على نحو مادي دقيق : ما تقدر المرأة في أيامنا هذه على فعله ، وما يحقّ لها أن ترتجي ؟

أليس من الطبيعي ، وأنا ما زلت امرأة فتيّة ، أن تبدو لي هذه المسألة ذات خطر رئيسي ؟ وهي على خطورتها لم تبرز في وضوح إلا في أيامنا هذه . نعم ، فإنه منذ أيام الحرب فقط ، أخذ الناس يعترفون للمرأة بحقها لما أن برهن العدد الوافر من النساء على كفاية وهمّة ما كان ليظنّهما الرجال فيهن . وكذلك لم تشرع المرأة ، إلا من أيام الحرب فقط ، في المطالبة بحقّها في فضائل ليست سلبية مانعة ، كالطاعة والإخلاص والوفاء : طاعة الرجل والإخلاص للرجل والوفاء للرجل . فإن كل الفضائل الإيجابية قد اختص الرجل بها ذاته ، وآثر بها نفسه إلى الآن . وأعتقد أنه ما من أحد يستطيع أن ينكر اليوم أن مركز المرأة قد تغير من أيام الحرب تغيراً عظيما . ولعل هذه المأساة الفاجعة كانت أقل ما ينبغي ليتاح للنساء إظهار صفات كانت تبدو إلى تلك الأيام مقصورة على جنس دون جنس ، ومن ثم ليتاح لكفاية النساء أن تحظى بنصيبها من الاعتبار .

إن كتاب والدتي موجّه إلى جيل مضى . كل ما كانت

تستطيعه المرأة فى شباب والدتى ، هو أن تصبو إلى حريتها ؛ أما اليوم فقد تحوّل الأمر من الصَبْو إلى الظفر. كيف السبيل ؟ وإلى أى الغايات ؟ هذا هو المقصد ، وسأحاول الكلام عنه فيما يتصل بى على الأقل .

أنا لا أعرض نفسى مثلاً يحتذى ، غير أنه يخيَّل إلىّ أن سرد قصة حياتى البسيطة قد يكون فيه ما « يثير الحذر » . وإنى أقدِّمها على أنها تتمة ليوميات والدتى ، أو على أنها « مدرسة للزوجات » جديدة . وحتى أبيِّن فى وضوح أن هذا ليس إلا مثلاً خاصاً بين أمثلة عدة ، قد اتخذت له عنواناً « چنقييف » وهو الاسم المستعار الذى به دعيت فى يوميات والدتى .

١

فى ١٩١٣ ، لما أن بلغت الخامسة عشرة ، أدخلتنى والدتى المدرسة الثانوية رغم استنكار والدى . على أنه لما كان سلس القياد على الرغم مما كان يبدو عليه من ثبات وثقة بالنفس ، فقد كان ينزل دائماً عن رأيه ثم يقتصّ لنفسه بعد ذلك بصغير النقد الذى كان لا يكفّ عنه . وفى اعتقاده أن هذه التربيـة التى تلقيتها فى المدرسة الثانوية هى المسئولة عمـا أسماه « انحرافاً فى أفكارى » ، ثم فيما بعد « انحرافاً فى سلوكى » .

لقد ورثت عن والدتى شيئاً من حب العمل ومثابرة فطرية كانت تشجعنى عليها بتكلفها التعـلّم عن سبيلى . فحينما كنت أعود من المدرسة كانت تساعدنى فى واجباتى وتحفظ معى دروسى ، وكنت أنقل إليها كل ما درسته فى الفصل كما يفعل آخرون إذ يروون ما رأوا وما سمعوا بعد جولة فى المدينة . وهذا ، فى اعتقادى ، ماجعلها تتوهّم أن تأثيرى فيها كان أكبر من

تأثيرها فىّ . وهذا الذى توهمته قد كانت تسعى إلى نقله إلىّ ، وما من شىء عمل على إنضاج فكرى وتعهد جهدى ورعاية تلك الثقة بالنفس التى كانت تعوزها أكثر من ذلك الوهم .

وأنا أدين أيضا لوالدتى برغبة شديدة فى أن أكون نافعة ، رغبة كانت وكأنها حاجة من حاجات النفس ، إن كانت كامنة فيها من قبل فقد استطاعت والدتى أن تبعثها وتزكيها . هذه الرغبة كان يغذّيها لديها حبّ عجيب لمن كان معدماً أو من كان متألماً : أى لكل من كان يدعوهم والدى « بالأدنياء » وتأبى هى بأن تدعوهم بذلك . ولئن كنت شديدة الحرص على ذكر هذا فذلك لأن يوميات والدتى ودفاع والدى غفل منه . كانت والدتى تبذل نفسها بذلاً ، وتتفانى ، لا فى تحرج من الظهور فحسب ، وإنما فى شىء من الاستخفاء ، شأنها فى كل ما قد يعود عليها ببعض الثناء . هذا الاستحياء العظيم وهذا التواضع الجم (ويجب علىّ أن أعترف بأننى لم أرثهما عنها) كانا منها بحيث كنتَ تستطيع أن تعاشرها أمداً طويلاً دون أن تَفطن لفضائلها . أما أبى ، فعلى نقيضها ، كانت عنايته المطردة بالظهور تعدل عنايتها هى بالانزواء ؛ وكأنه كان يعلّق على مظاهر الفضيلة أهمية أكبر مما كان يعلّق على الفضيلة ذاتها . ولست أحسبه كان مرائياً بالمعنى الصحيح ، ولا أظنه إلا

كان يسعى إلى أن يصير ذلك الرجل الذى كان يتظاهر به ؛ غير أن إشارته أو عبارته كانت تسبق انفعاله أو فكرته ، بحيث كان يبقى دائماً متأخراً وكأنه لنفسه مدين . وكانت والدتى تتألم كثيراً من ذلك ، وكان حبى الفائق لها يحول بينى وبين كراهيته .

كانت جارتى اليمنى فى الفصل ، دون زميلاتى جميعاً ، تجتذب نظرى وتسترعيه . فقد كانت سمراء ، ذات شعر أسود أحجن كث شديد التخصل ؛ وكان يخفى صدغيها وجانباً من جبينها . كنت لا تستطيع أن تسمها بالجمال حقاً ، ولكنّ فيها سحراً غريباً كان أكثر فتنة عندى من الجمال نفسه . كانت تدعى « ساره » ولكنها كانت تصرّ على كتابة اسمها بالألف لا بالهاء : « سارا » . وحينما قرأت « الشرقيات » فيما بعد ، تمثلتها فى تلك الصورة التى وصفها الشاعر بقوله : « جميلة فى تراخيها ، فى مضجعها تتمايل » . كانت غريبة الزى ؛ وكنت تستطيع أن ترى ، من خلال فتحة ثوبها أسفل الجيد ، ثديا ناهداً تمّ تكوينه ؛ وكانت دقيقة الكفّ مقضومة الظفر ، وقلما كنت ترى يديها نظيفتين .

بادرتنى فجأة فى أول يوم قائلة :

— مالك ترمقيننى على هذا النحو ؟

فأدرت عينى فى خجل ، ولم أجرؤ على القول بأنى أراها فاتنة .

أما غيرى من التلميذات فكنّ لا يشاركننى رأيى - وفوجئت فى أحاديثهن بإجماع على نقد بشرتها « البوهيمية » . كان مظهرها الجدّى ودأبها على تقطيب حاجبيها ، تقطيباً شبه متصل ، يرسم على جبينها تغضناً خفيفاً ، ينم عن إرادة متوترة وعن إرهاف . . . إرهاف كان بودى لو أدرى إلام ، لأنه من دون شك لم يكن إلى الدرس . فإذا ألقى إليها سؤال تبـيَّن فى الحال أنها لم تكن تنصت ؛ وإذا بدا عليها فى أوقات توترها أنها تكبرنا جميعاً ، رغم قولها إنها من سنى تماماً ، فسرعان ما كان يعتريها فرح مفاجىء ويختاجها حبور دافع يعودان بها إلى عهد الصبا فوراً .

فى الأيام الأولى من تعارفنا علقت بها بشعور غامض لم أحس به نحو أحد ما من قبل ؛ وكان هذا الشعور يبـدو جديداً على نفسى غريباًفى نوعه بحيث تساءلت : أكنت أنا نفسى أحسّه ، أم أنَّ شخصية غريبـة عنى قد سيطرت علىَّ وسلبتنى قيادى وحسّى . ومع ذلك فان سارا كانت تتصرف وكأنها لاترانى ؛ ولست أدرى أى تطرّف كنت أشعر أننى قادرة على إتيانه حتى أستثير اهتمامها بى . ولسوء الحظ كانت فيما يظهر لا تـكترث بالتفوق المدرسى أياً كان نوعه ، وزاد من امتعاضى أننى رأيتها تـكاد لا تلحظ تفوّقى ألبتة . وكنت أراها اذا ما حدثتُها

لا تجيبنى إلا نزراً وكأنها لا تأبه بما أقول . كانت ، ولا ريب ، أبعد ما تكون عن الغباء ؛ وكان سلطانها علىَّ بحيث لم يكن فى وسعى إلاّ أن أظنَّها متفوقة فى فن من الفنون . ولكن كان يستعصى علىَّ أن أكشف عن موطن تفوُّقها . وإذ كنا ذات يوم نقوم بمسابقة فى إنشاد الشعر تكشّف لى الستر فجأة . فبعد أن أنشد عدد من التلميذات ، وأنا منهن ، فى عناء شديد أو قليل أبياتا من تمثيلية « السيِّد » أو من حلم « أتالى » أو من حديث « ترامين » وكنا إذ ذاك ولا همَّ لنا إلا أن نتحاشى عثرة اللسان ، كأنما هذا الشعر لم يقصد به إلا إلى تدريب الذاكرة ، دعت مدرِّسة اللغة الفرنسية سارا قائلة :

— دعى مكانك ، تعالى إلى المنصة وأرينا كيف ينبغى أن ينشد الشعر .

وتقدمت سارا فى غير حرج ثم وقفت قِبل التلميذات وشرعت تنشد أول مشهد من تمثيلية « بريتانيكوس » . كان صوتها ممتلئاً رصيناً على نحو لم نألفه منها ، يخالجه رنين لم أعهده فيه من قبل . كنت كغيرى من التلميذات ، قد حفظت هذه الأبيات عن ظهر قلب ، وكانت مدرِّستنا قد شرحتها لنا وعلّقت عليها وبيَّنت جمالها ، على أننى لم أكن قد تنبهت بعد إلى ما فيها من

روعة . وتراءت لى هذه الروعة فجأة خلال إنشاد سارا ، وشعرت بنشوة أشبه بنشوة المتعبِّد تسرى فى بدنى كله ، فإذا بى أرتعد من قمة رأسى إلى أخمص قدمىّ ، بينما كان الدمع يغمر عينىّ . وكانت المدرِّسة نفسها تبدو وكأنها تغالب تأثرها .

فلما أن انتهت من إنشادها قالت المدرِّسة :

— يا آنسة كيلر إننا نشكرك جميعاً . على أنه لا يغتفر لك ألا تجدِّى أكثر مما تجدِّين وفيك هذه المواهب .

وحيَّتها سارا تحية قصيرة ساخرة استدارت فيها قليلاً ، ثم أقبلت إلى مكانها بجانبى .

كنت أضطرم إعجاباً وحماساً ، وكان بودِّى لو أستطيع الإعراب لها عنهما ولكن لم ترد إلى بالى حينئذ سوى عبارات كنت أخشى أن تراها بلهاء . وأوشك الدرس أن ينتهى ، فأسرعت ومزَّقت أسفل ورقة من كراستى ، وعلى هذه القصاصة كتبت وأنا أرجف : « أودّ أن أكون صاحبة لك » ، وناولتها دون كياسة هذه الرسالة .

رأيتها تطوى الوريقة فى يدها طياً وتديرها بين أصابعها ؛ وأمَّلتُ نظرة منها أو بسمة ، ولكن وجهها ظلّ جامداً وكأنه أشد غموضاً مما كان . وشعرت أننى لا أستطيع أن أحتمل

ازدراءها ، فتهيـأت لبغضها ؛ وقلت فى صوت منفعـل :

— مزِّقى هذه .

ولـكنها بسطت الورقة فجأة ومرَّت عليها بيـدها تسوِّيها وكأنها قد ارتأت رأياً . فى هذه اللحظة سمعت اسمى : كانت المدرِّسة تسألنى . فنهضت على مضض ، وأنشدت فى سرعة وعلى نحو آلى قصيدة قصيرة لڤكتور هوجو كنت لحسن حظى أجيدها . وما كدت أجلس حتى دسَّت سارا الرسالة فى يدى . وقد كتبت على ظهرها : « تعالى عندنا يوم الأحد القادم فى الساعة الثالثة » .

حينئذ غمر الفرح قلبى فتجرأت قائلة :

— ولـكنّى لا أدرى أين تسكنين !

فقالت :

— أعطينى الورقة .

ولما كان الدرس قد انتهى وأخـذت التلميذات يجمعن حاجاتهن ، وينهضن للانصراف ، كتبتُ على أسفل الرسالة : « سارا كيلر ، ١٦ شارع كامبانى — پروميير . »

وأضفتُ فى شىء من الحرص :

— لا أدرى أفى وسـعى ذلك ، ينبغى أن أسأل والدتى .

لم تبتسم ، ولـكنها رفعت طرفى شفتيها فيما يشبه التهـكم ؛ فقلت فى سرعة :

— أخشى أن نكون فى هذا اليوم مرتبطين بدعوة سابقة.

ولما كنت أسكن حيّاً بعيداً عن المدرسة، غير حىّ سارا ، فقد كنت مضطرة إلى فراقها لدى انصرافى . كنت عادة أعود وحدى وفى عجلة ؛ وكانت والدتى ، كيما تبرهن لى على وثوقها بى ، لا تحضر لمصاحبتى فى إيابى ، وإن كانت قد استوعدتنى أن أقبل إلى البيت دون أن ألوى أو أن أتلـكأ بالحديث إلى أترابى . فى ذلك اليوم قطعت نصف الشوط جرياً لشدة تعجلى إلى إحاطتها بما عرضته سارا ، كنتُ غير واثقة من قبول والدتى هذا العرض ، لأنها قلّما كانت تأذن لى فى الخروج وحدى إلا إلى المدرسة . لم يكن من عادتى أن أخفى عنها شيئاً ، ومع ذلك فإننى لا أدرى أى حياء منعنى إلى ذلك اليوم من أن أحدّثها عن سارا . ورأيتنى ولا مناص لى من أن أروى كل شىء دفعة واحـدة : من إنشادها شـعر بريتانيكوس ، إلى حماسى الذى كنت لا أحاول إخفاءه ، بل إلى هذا الميل الغريب الذى كنت أشعر أننى عاجزة عن سـتره إذ كان يتجـلّى فى حديثى قسراً . ولما أن سـألتها أخيراً : « أتأذنين لى فى الذهاب إليها ؟ » لم تجب

فوراً — وكنت أعرف أنه يشق عليها دائماً أن ترفض لى مطلباً — وقالت :

— أود أولاً أن أعرف عن صاحبتك وعن أهلها أكثر مما ذكرت . هل سألتِها ما يعمل والدها ؟

واعترفت بأننى لم أفكر فى هذا ، ووعدتها بالسؤال ، ولم يكن يفصلنا عن يوم الأحد سوى يومين .

وقالت والدتى :

— غداً سوف أذهب إلى المدرسة ، وألتقى بك عند انصرافك ، حاولى أن تقدِّمى هذه الفتاة إلىَّ . أودُّ أن أعرفها .

وفى يوم السبت راقبت سارا وأنا أتساءل فى شىء من القلق عن الأثر الذى قد تحدثه فى والدتى . وبدا لى أن زيَّها كان مهملاً أكثر مما عهدته ، وأن شعرها خاصةً كان مسترسلاً دون نظام . فقلت لها فى شىء من الحياء :

— أصلحى شعرك قليلاً .

— لِمَ ؟

— لأن والدتى سوف تحضر لمرافقتى، وهى تود أن تعرفك .

— نعم ، حتى تقرر أتأذن لك بالمجىء عندى يوم الأحد . أليس كذلك ؟

لم يسعنى أن أعترض عليها ، ومع ذلك كان لا يروقنى أن أظهر أن خضوعى لوالدتى بالغ . قلت :

— لعل الأمر كذلك . لشدَّ ما أود أن تعجبها !

وأمسكت نفسى عن إضافة : « وأود أن تعجبك . . . » ، ولكنى فكرت فى الحال فى ثوب والدتى وقبعتها .

وقالت سارا :

— إن هذا الاختبار لا يروقنى كثيراً .

ومع ذلك لم تتهرب لدى انصرافنا كما كنت أخشى ، وكانت والدتى بالباب تنتظرنا . وأظن أنها كانت معنيَّةً بأن تحظى بإعجاب صاحبتى ، ولم أرها قط أظرف مما كانت فى ذاك الحين .

وأقبلتْ فى تلطف رقيق على سارا قائلة :

— كان بودى لو أسمعك تنشدين شعر راسين ، إنه جميل حقاً . . . وعندى أنك ما كنت لتنشديه على هذا النحو الرائع إلا لأنك تحبّينه .

ومن الجلىّ أنها كانت تسعى إلى حمل صاحبتى على الكلام ، وكانت هذه أقل منى اضطراباً فقد قالت :

— نعم ، ولكن كنت أوثر أن أنشد شيئاً من شعر بودلير .

لم أكن من قبل قرأت شيئاً لهـذا الشاعر ، وخشيت أن تكون والدتى مثلى ؛ ولـكنها سألتها :

— وأى شعر له مثلا ؟

— قالت أوثر « مصرع العاشقين » .

وشعرت أن الدم يصعد إلى وجنتى . ما من شك فى أن هذا العنوان لابد أن يصدم والدتى. نظرت إليها فرأيتها تبتسم ،وقالت:

— هـذا الشعر ، بلا ريب ، ليس مما يدرس فى المدارس الثانوية ، ألديك إخوة أو أخوات ؟

— أخ أكبر منى هو بالجزائر يؤدى خدمتـه العسكرية .

ثم أضافت — وكأنها تسبق سؤالا همّـت به والدتى :

— إن والدى مصـوّر .

— ماذا ! أتكونين بنت ألفريد كيلر الذى أعجبت لوحاته الناس جميعاً فى المعرض الذى أقيم أخيراً ؟ إن هـذا يفسرّ لى ميولك الفنـّية .

واغتبطت لعلمى أن والد سارا كان شهيراً . ولـكن مالبث أن تقـطّب جبين والدتى فجأة ، واكتأبتُ إذ سمعتها تقول لها :

— أنا أعـرف أنك دَعَـوْتِ چنفييف لزيارتك يوم الأحد ، ولـكنها مع الأسف مرتبطـة بموعد فى هذا اليوم .

ولما أن أجابت سارا فى شىء من الجفاء: « أنا آسفة لذلك » ، بسطت والدتى يدها إليها قائلة: « إلى يوم آخر » .

وما إن فارقتنا سارا حتى قالت والدتى:

— ولكنك لم تذكرى لى . . . أنها يهودية !

كان هذا اللفظ لا يكاد يعنى لدىَّ شيئاً . كنت قد درست التاريخ المقدس ، وكنت أعرف ما كان اليهود فيما مضى ؛ ولكنى لم أكن أعلم ما هم اليوم . وأصاب قلبى إصابة جارحة ما تبيّنتُه فى لهجتها من تمييز وإن كان لا يكاد يحسّ . فصحت:

— يهودية ؟ وبِمَ يعرف ذلك ؟

— حسبى أن رأيتها . وهى على أية حال جميلة جداً .

ثم — وكأنها كانت تتابع فكرتين فى وقت واحد — أضافت:

— على أية حالٍ ، ففى المدرسة عدد كبير من اليهود .

وإذ ذاك تجرأتُ قائلةً:

— ألأنها يهودية لا تسمحين لى بزيارتها ؟ لِمَ قلتِ لها إننى مرتبطة بموعد يوم الأحد ، وأنت تعلمين أن هذا ليس صحيحاً ؟

قالت:

— يا بنيَّتى ، لم أكن أستطيع أن أقول لها فى خشونة ، إننا

لا نقبل دعوتها . لا ذنب لها فى أنها يهودية ، وفى أن والدها مصوّر . كنت لا أبغى أن تتأذَّى .

ثم قالت ، لما أن رأت عينىّ يغمرهما الدمع :

— على أن لليهود مزايا عدة ومنهم النابغ ؛ ولكنى أفضل ألا أدعك تذهبين إلى وسط يختلف كل الاختلاف عن وسطنا دون أن ألمّ من قبل ببعض خبره .

— أمَّاه ! لشدَّ ما كانت رغبتى . . .

— يا بنيّتى ، أمّا هذه المرة فلا . لا تلحّى ؛ وعلى أية حال فقد انتهى الأمر . . .

ثم أضافت ، وقد زادت حنواً :

— چنقييف ، أنت تعلمين حق العلم أنه يؤسينى أن أكدّرك .

نعم ، كنت أعلم هذا حق العلم ، ولكن والدتى كانت ، وهى ترفض لى هذا الطلب ، تخضع فيما يظهر لدواعى مردّها اللياقة ، ومرجعها الأكبر محيطنا ومركزنا الاجتماعى . كنت أشعر بذلك شعوراً غامضاً ، وكانت قد درجت فى تعليمى على ألا أحسب لهذه الدواعى حساباً ؛ على أنه كان طبيعياً منها ، وأنا على ما أنا عليه من شباب ولين جانب ، ألاَّ تسمح لى بمعاشرة أناس لم تخبرهم ، فلعلهم أن يكونوا من معشر السوء . وهذا أيضا كنت أحس به

إحساساً مبهماً؛ ولا شك فى أننى، فى أعماق نفسى، كنت لا أستنكر ماقرّرتْ؛ ولكن كان يخيل إلىَّ أن مجموعة ضخمة من الأوضاع تفصلنى عن صاحبتى الجديدة ، فشعرت لذلك بأروع الأسى .

وعاودت والدتى الكلام بعد صمت طويل فقالت :

— على كل حال ، أنا لا أمنعك من رؤية زميلتك ، بل يمكنك أن تدعيها لتأتى عندنا ، وسوف أتكلم معك فى ذلك فيما بعد .

ما من شك فى أنها كانت مكتئبة ، لأنها سبَّبت لى هذا الأسى . ولعلها كانت تسعى إلى الاعتذار عنه والتخفيف من أثره . هذا ولم يكن بد من أن أضيف إلى أساى أسى آخر أشدّ وقعاً على نفسى ، فإننى ما كدت ألتقى بسارا يوم الاثنين التالى حتى بادرتنى بقولها :

— أنا آسفة لأن والدتك لم تسمح لك بالمجىء .

وأضافتْ فى شىء من القسوة ، كأنما كان يلذ لها أن تمزج سمّ الغيرة المرير بأسفى :

— لقد كانت چيزيل عندنا ، واصطحبنا أبى إلى قصر الجليد ، وقد رضّت قدمها وهى تتزلق . وهى لذلك لم تحضر هذا الصباح ، غير أننا استمتعنا أحسن المتعة .

كانت چيزيل پارمنتييه خير تلميذات فصلى . وكان والدها ،

قبل وفاته التي ترجع إلى عدة سنوات ، أستاذاً يشار إليه في الكوليج دى فرانس ؛ وأما أمّها فكانت إنجليزية ، وكانت چيزيل ، بنتها الوحيدة ، تجيد الفرنسية والانجليزية على السواء . كان ذكاؤها أدنى إلى العمق منه إلى الحدة . كان لا يبدو أنّ عليها أن تبذل مجهوداً ما لتكون على رأس أترابها . على أن تبادل الودّ بينها وبين سارا لفت نظرى إليها أكثر من أى شئ آخر . وكانت تجرى بينهما أحاديث طويلة . وقلما كانت سارا تتحدث إلى أحد سواها . أما چيزيل فعلى نقيضها ، كثيرا ما كانت تُرى ، وقد التف حولها عدد من التلميذات دون أن تأبه بتاتا بالتلميذة الجديدة التي كنتها . وكانت تحتلّ فى الفصل مكاناً نائيا ، ولم أكن أستطيع خطابها إلا خلال دقائق الفسحة حيث كانت التلميذات يَمْرَحْنَ فى فناء متسع تكتنفه الأشجار .

وذات يوم ، إذ دنوت من لفيف من التلميذات تتوسطه چيزيل يتحدثن فى حماس وحمية إذا بتلميذة تلتفت إلىَّ وتسألنى رأيى فى موضوع شائك غاب عن ذاكرتى ، وكنَّ ، على ما يظهر ، يختلفن فيه . فلما لم أعجل بالجواب صاحت تلميذة أخرى :

— ألا ترين أن الآنسة من فائق الأدب بحيث تتورع من الإجابة . لعلها تخشى التورّط !

وبدا لى هذا الزعم ظالماً أظلم ما يكون ، وشعرت فى الحال بقدرة على إتيان أى شىء لأبرهن لجيزيل على أننى جديرة بتقدير يُضنّ به علىّ ، ولأبرهن ، لها ولى ، على أن خشية التورط لن تقف فى سبيلى ، وهذا رغم تحفّظى وظاهر « أدبى الفائق » — قدرة على . . . ولكن حقاً لم أكن أدرى علامَ . فرفعت كتفى وتمتمت :

— ليس أكثر النساء قولاً . . .

فصاح فريق منهن فى صخب :

— ماذا تقول ؟ ماذا تقول ؟

— هن العاملات .

وما كدت أنطق بعبارتى حتى بدت لى سخيفة . ولحسن حظّى لم يعترض عليها أحد .

حينما أخبرتنى سارا أن جيزيل قد رُضّت قدمها شعرت بفرح خبيث وفكرت : إن فى ذلك لمهلة ! كانت جيزيل وسارا التلميذتين اللتين كنت أصبو إلى ودّهما . ولما كانت إحداهما تزدرينى ، وكنت مسيّرة برغبة والدتى إلى رفض عروض الأخرى ، كنت أشعر شعوراً أليما بعزلتى ، وأغوص فى لجة من السأم . وبينا أنا على هذه الحال إذا بوالدتى ، وقد لاحظت

اكتئابى ، تقول لى ذات يوم إنها تمكنت من إقناع والدى بالكتابة إلى والد سارا لدعوته معها إلى اجتماع من الاجتماعات التى كنا نحييها يوم الخميس مساءً .

على أنه لم يكن لوالدتى « يوم » خاص تستقبل فيه . لأنها كانت تنفر من هذه الفروض الاجتماعية نفوراً شديداً كان يلومها عليه والدى دون انقطاع ، ويحمّلها لذلك أسباب إخفاقه فإنه ، كغيره ممن لا كفاية لهم ، كان يروقه الاعتقاد بأن كل شىء تحظى به إما بالدسّ أو بالوساطة . وعندى أن أوضح شىء فيما كان يسمّيه فى تعظيم « عمله » كان يتألف من تحيات وانحناءات يؤديها أو يتقبلها ويحسب لها أكبر الحساب . وأنا أقرّ والدتى على استنكارها هذه الأعمال التى تفسد ضميرنا وتضعف فينا شعورنا بالأمانة الخلقية والعقلية ، هذا الشعور الذى كانت تود أن أحافظ عليه . ولا سبب عندى يمنعنى من أن أقضى على والدى قضاءً صارماً أشد مما فعلت والدتى فى يومياتها . وأنا أرى أنه ما من شىء يفسد أخلاق الأحداث أكثر من فرضك عليهم احترام أبوين لم يصبحا أهلاً للاحترام . أما والدتى ، فعلى نقيضه ، كانت أهلاً لتجلتى ؛ وحبى لها أشبه بالعبادة . وأما والدى ، فسرعان ما اعتبرته مغالطاً لا يُطمأن إلى قوله . وما من شك فى أن هذه

الخواطر لم تكن بالتى تفكر فيها الطفلة الغريرة التى كنتها حينئذ ؛ ومع ذلك كنت أضيق بتناقض أقواله ، وانتحاله آراء الغير وإسنادها إلى نفسه ، وجهره بعواطف سامية كان قاصراً عن أن يمدّها بغذاء من عنده ، وتصريحه بعقائد ثابتة لا تتزعزع ، تستر ستراً ضعيفاً ما فى خلقه من التواء شديد ولين . وكان يروقه أن يسمى هزيل همّته فى المجتمع « آداب السلوك » ، ويفتنّ فى رد أسباب خيبته إلى رقة شمائله وفرط صدقه وأمانته ، وذلك فى براعة بالغة وسذاجة فائقة كانتا تستفزان والدتى المسكينة . ولقد تكلمَتْ عن ذلك فى يومياتها خيراً مما أستطيع أن أفعل ، وما أذكره لا يضيف إلى كلامها شيئاً .

كم من قارئ سوف يغضب إذ يسمعنى أتكلم عن والدى بهذه الحرية ؛ ولكنى لا أكتب لهذا القارىء ، وعزمى معقود على أن أتجاوز هذه الاعتبارات المدعوة لياقةً وخشيةً واستحياءً ، فلا قيمة لقصتى إن لم تكن صريحة الصراحة كلها . ولئن اصطبغ حديثى أحياناً بلون من المجون أو القحة ، فإنما علة ذلك هذه العادة المتأصلة فينا ، وهى تعودنا النظر إلى الأمور دون مواجهتها ، وتورعنا عن التعرض لبعض المسائل إلا بعبارات ملتوية ؛ مسائل أريد أن أعالجها هنا كما يجدر أن تعالج .

وأظن (ولكن هذه الخواطر التي أصرح بها إنما هي من خواطر الحاضر) أظن ظناً يزداد كل يوم ثباتاً أن قليلاً جداً من أدوائنا لا يرجع إلى الجهل ، ولن نصل إلى علاج لها إلا بأن ندرسها أولاً في جلاء تام وصراحة مطلقة . إن اعتبارات الحياء والأخلاق لا محل لها هنا ؛ فمن شأنها أن تفسد كل ما تمسه من مسائل . هذا إلى أننا لا نقبل على بعض هذه المسائل إلا في تحفظ شديد ، شالٍّ للفكر ، شبيه بذلك التحفظ الذي عاق تقدم الطب ، وحال دون معرفة جسم الإنسان وتشريحه ، ما اعتبر فحص الجسم الانساني وتشريحه أمراً نابياً ، منافياً للآداب ، مخلاً بالعرف . هذا ولا بد أن يسبق دقيقُ الفحص لما هو كائن ، كلَّ اتجاه إلى ما قد يكون ، أي إلى كل إصلاح مزمع أو تحسين مرجو ، سواء أكان موضوعه الفرد أم المجتمع . أنا لا أكتب رواية من الروايات ، لذا سوف يحلو لي أن أقف قليلاً عند بعض الخواطر وقفات قد تبتر قصتي ، ولكن أهمية هذه الخواطر عندي أكبر من القصة نفسها . وأنا ، إذ أروي ظروف اختباري للحياة ، لا رائد لي إلا أن تكون روايتي ذات نفع وعون ؛ لذلك لن أمسك نفسي عن التعليق والنقد ، وإن أضرَّ بالقيمة الفنية لهذه الصفحات . وقد سبق أن قلت أن ميلي إلى الأدب محدود ، بل إنه

ليخيّل إليّ أن ضرباً من الكمال ، لا أرتضيه لنفسى ، لا يمكن الوصول إليه إلا على حساب الحقيقة ، فما تكاد هذه تخرج من نطاق المجردات إلى نطاق الحياة الملموسة حتى تبدو معقدةً مزعزعةً لا تقبل دقةً ولا صفاءً . . . صفاء أنا على أية حال لست بارعة فى تصويره . لا أحفل بأن يكون ما أكتبه هنا لا يثير إلا اهتماماً عابراً ، كما لا أقصد البتة إلى إثبات أى شئ يدوم أبداً ، ولا أتوهم أن لى قدرة على ذلك . فإن كفّت هواجسى بالأمس وشواغلى اليوم عن أن يكون لها خطر ما ، فإن ذلك يثلج صدرى .

ها نحن أولاء بعيدون كل البعد ياسيدى عن الاعتبارات التى أملتْ عليك كتبك . كنت تقول فيما أذكر « إننى أكتب كيما تستعاد قراءتى » أما أنا ، فعلى النقيض ، أكتب ما أكتب كيما أساعد قارئى أو قارئتى على المضىّ . كل ما من شأنه أن يعين على التقدم ، كل ما من شأنه أن يعين الإنسان على أن يرقى قليلاً عن حالته الراهنة ، يجب أن يدفع بالقدم دفعك لدرج اتخذته مرقاةً .

كان والدى يدعو إلى العشاء ، مرة فى الأسبوع ، عدداً من الشخصيات ، على أمل أى يكتسب رضاهم . وكنت فى هذه الليالى أترك المنزل ، وأتناول العشاء عند أبناء عمنا فروبرفيل .

فإذا كان الغد رأيت مائدتنا قد أفادت من مأدبة الأمس وحفلت بأصداء أحاديثها ، وكان والدى يبــدو إذ ذاك أكثر إيمانا بخطره مما كان قبل .

وإلى جانب هذه الدعوات ، كنا نرّحب كل خميس مساءً بنفر من الأصدقاء الأوفياء ، ومن بينهم الدكتور مارشان وزوجه ، وكان كل منهما صديقاً لوالدتى أكثر منه لوالدى . وقد طُرح هذا السؤال — كما صرحت لى والدتى بعدئذ — : أيدعى والد سارا إلى العشاء الرسمى أم إلى الاستقبال العائلى يوم الخميس ؟ لو دعى يوم الخميس فلعل العشاء أن يبهره . . . ولـكنه كان من العسير اختيار القوم الذين نضم إليهم هذا القادم الجديد . . . إذ كان والدى يخاف أشد الخوف من أن يبدو من كيلر مايشين . وكان يروق والدى أن يتشدَّق بحرية فكر واسعة ، غير أن ذلك لم يكن إلا تصنعاً منه ، فإنه كان ثابتاً على مبادئه المرسومة ثباتا راسخاً . كان يقول لمن أراد الاستماع إليه : إن النبوغ يغتفر كل شىء ، غير أنه لما كان هو نفسه لا نبوغ له كان لا يغتفر شيئاً . وكان لا يضيق بشىء ضيقه بما كان يدعوه إخلالا « بآداب السلوك » ، لأنه كان لا يكاد يحسن معرفة شىء سواها . وهو وإن لم يكن معاديا اليهود ، جاهراً بعدائه لهم ، فإنه كان

يرتاب بهم جميعاً ؛ إلا أن دعوة كيلر إلى إحدى سهراتنا العائلية لم تكن أمراً ملزماً ، ومهما كان الأمر فلم يكن الغرض من هذه الدعوة إلا أن اجتمع بسارا رغم بادى استياء والدى من أن يرى ابنته تعلق بمن ليس من « مجتمعه » .

وسُرَّ والدى بقراره هذا أشدّ السرور ، إذ أتاه جواب كيلر يعلمه بأنه لا يخرج أبداً إلا برفقة زوجته ، وعلى ذلك فسوف تصحب مدام كيلر ابنتها سارا .

هذه السهرة التى عللت نفسى بمسرات فيها أخذت أرقبها ، قد عادت علىَّ بآلام جسام ؛ فما كاد ضيوفنا الجدد يدخلون حتى تبيَّنت على حداثة سنى إذ ذاك ، أن وجودهم فى مجتمعنا المحافظ أمرٌ شديد النبو . ولم أعلم (وكذلك والداى لم يعلما) إلا بعد ذلك بزمن أن كيلر لم يكن متزوجاً زواجاً صحيحاً ، من والدة سارا ، التى كانت من أصل وضيع جداً (كما كان هو) ، وقد اتخذها نموذجا لفنه قبل أن يتخذها خليلة . وكان من رأى والدى أن من يتزوج نموذجه يأتى أكبر النكر ، فلما علم أن صلة كيلر بصاحبته لم تبلغ الزواج زاد ازدراؤه له . لم نكن نعلم وقتئذ شيئاً من ذلك وإلا « لما دعوناهم بطبيعة الحال » كما كان يقول والدى فيما بعد . ولقد علمت

من بعـد أيضاً أن الإلفين كانا يعيشان فى أتم وفاق . على أن والدى كان يقول أيضا : « إن هذا لا يغير شيئاً من الواقع » . ولا بد أن مدام كيلر كانت جميلة فى شبابها ؛ فإنها كانت لا تزال وضيئة رغم بدانة كانت تعيبها . كانت ترتدى ثياباً فاخرة زاهية وكان ذلك شاذاً فى بيئتنا القاتمة ، ثياباً وصفها والدى غداة تلك الليلة بأن « فيها نزعة إلى الجموح » . وقد أفاد جموحها هذا فى بيان ما فى زى مدام مارشان وزى والدتى من احتشام رصين . ولـكنى رأيت ثوبيهما القاتمين ، الصاعدين حول العنق ، عتيقين ضيقين ملائمين للمألوف إلى حد ممل . أما أنا ، وقد اتخذت ذاك المساء ثوباً فاتح اللون ولـكنه بالغ الاحتشام ، فلقد شعرت بأننى أبدو جامدة ، بالقياس إلى سارا التى كان يلفّـها ، فى انسجام ويسر ، ثوب من الحرير الأحمر الرخو ، يتوقد ويشعّ على بشرتها السمراء أضواء تزيدها بهاء . ليس منى أن أعلق بالثياب أهمية بالغة ، غير أننى لما لامست ظرف سارا ورشاقتها ، وأبصرت ، على ضوء حبى الشديد لها ، مثوانا ، بعين استمدت نفاذها من نفاذ عينيها ، رأيت هذا المـكان الذى عشت فيه إلى ذلك الحين وقد شفّ عن ضعف شأنه وابتذاله الوضعى . وفجأة غدا كل شىء ضمّـه : ثريات ، سدائل ، مقاعد ، متاع — غدا كل شىء ، وكأن السحر الذى

لازمه طوال ذلك الزمن قد زال عنه فجأة ، فاذا هو يخبو ويشحب . لم تكن علة ذلك أن مثوانا كان لا حسن فيه ، فما كان والدى ولا والدتى يوصمان بما درج الناس على نعته « بفساد الذوق » ، ولكن كلا منهما كان يضحى ببعض ذوقه مراعاة للعرف . كان طابع التحرّج نفسه الذى يلازم الطراز الذى تؤثره الطبقة الوسطى (البورچوازى) يرضيهما ؛ فلما أن بدت مدام كيلر وسارا فى ثيابهما الفاخرة نمَّ هذا الرضى عما فيه من ضعف حيلة وعجز .

قالت سارا : « ما أغنى مثواكم ! » كانت هذه أول عبارة وجهتها إلىَّ فى صوت يتعذر وصفه ، داخله مزيج من الدهشة والعجب ، وسخرية لا أدرى ما تنطوى عليه ، إلا أن فيها شيئاً من الزراية شعرت على أثرها بأن وجنتىّ تحمرّان خجلاً .

كان والدى قد استخبر عن كيلر وأبلغنا أن لوحاته تنفذ سريعاً وتباع بأثمان باهظة ، ولكنى لما دخلت بعد ذلك بقليل إلى مرسم والد صاحبتى لم أر ما يدلّ على الثراء فى صورة ناطقة . أما دارنا ، فعلى النقيض ، كان كل شىء فيها وكأنه ينطق دون تحرج بمقدار دخلنا .

لم يكن سبيل إلى الشك فى أن الأثر الذى أحدثه آل كيلر

فى نفس والدىَّ كان سيئاً . لقد كان ذلك أبين ما يكون لعينى رغم حداثة سنى ، وكذلك كان أبين ما يكون لعينى جهود والدىَّ فى اخفاء هـذا الأثر . وأخـذ كل يعنى فى ذلك المساء بأن يظهر التبسط والارتياح . وعندى أنه لم يكن أحد غيرى يشعر حقاً بألم لهذا التباين ، ولا شك فى أن علة ذلك كانت صدق ودِّى لسارا . كنت قد انفردت بها بينا اتخذ أهلنا من بعض لوحات معلّقة إلى الجدار ذريعـة للحديث . وكان أكثر هذه اللوحات من صنع صـديقنا برجقيلسدورف الذى توفى من أمد قريب ، وقد أخرجها والدى من خزائنه بعد وفاته لأن التجار والجمهور كانوا قـد تنبهوا فجأة إلى قيمتها . أما والدى ، وقد كان وقتئذ معنياً بمجلة فنية ، فـكان يقول إنه سعى ما وسعه السعى كيما يعرِّفه ، ويظفره بمجد أباه عليـه الناس فى حياته .

وقالت سارا :

— إن والدى يصطنع الإعجاب بهذه الصور ، ولـكنه فى ضميره يراها بشعة .

وسألتها فى تهيب :

— وأنت ؟

— أنا لا أهتم بفن التصوير ، وإننى أرى من الصور عدداً بالغاً ، ولست أحب إلا الموسيقا والشعر .

كنت راغبة أشد الرغبة فى أن يكون رأيى فى أبوىّ صاحبتى حسناً ، ولكن كم كانت مدام كيلر تبدو مبتذلة بالقياس إلى مدام مارشان وبالقياس إلى والدتى ! كان صوتها يعلو بالضحك لكل شئ ، وكانت تلقى برأسها إلى الوراء ، وتخفى ضحكها خلف مروحة واسعة منشورة . ولما أتيح لى معرفتها فيما بعد وجدتها امرأة طيبة ، ولكنها على شىء من الحمق وكثير من الجهل . أما كيلر فلست أدرى كيف اتفق أن يكون فى وقت واحد مشابها لابنته ودميماً إلى هذا القدر الذى كان عليه . لا أذكر شيئا من أقواله التى كان يلقيها فى ثقة عظيمة ، ولكنى أذكر جيداً الحنق الشديد الذى كان يبدو على الدكتور مارشان وضيقه بأقواله .

فلما أن قدّمت المرطّبات انتهز مارشان هذا الطارئ ليطلب إلى سارا أن تنشد لنا شيئاً من الشعر . قال :

— لقد حدثتنا جنقييف عن موهبتك العجيبة ، أظن أن بين جماعتنا من يستطيع أن يتذوق الشعر الذى تنشدين ، خيراً من زميلاتك فى الفصل .

لم تدعنا سارا نلح فى الطلب ، ولكنها لمّا ترددتْ وسألتْ عما نرغب فى سماعه ، قالت والدتى فى ظرف :

— لِمَ لا تنشدين « مصرع العاشقين » هذه القصيدة التى حدثتِنى من قبل بأنك تؤثرينها ؟

وقال والدى فى لهجة خطابية :

— إنها إحدى روائع الشعر الفرنسى . أتريدين الديوان يا آنسة ؟

ثم قال إن بودلير شاعره المفضّل وإن ديوانه « زهر الشر » إلى جانبه دائماً . وأخرج على الأثر من مكتبة صغيرة دائرة ، على البيان ، سفراً كان ولا شك يبتغى من إخراجه أن يستثير إعجاب القوم بجلدته ، فقد كان بلا ريب يعرف أن سارا إنما تنشد شعرها عن ظهر قلب . وأسندت سارا ظهرها إلى البيان ، واتخذت أساريرها ما يعرب فى نفس الوقت عن الحزن والابتسام ، فبدت أجمل مما كانت ! وأنشدت ، فى صوت سوىّ غنىّ عذبٍ رخيم معاً ، هذه القصيدة الرائعة التى كنت أجهلها . الواقع أننى لا أميل إلى الشعر ، ولو أننى كنت قرأت هذه القصيدة بنفسى ما حفلت بها ؛ أمّا وقد أنشدتها سارا على هذا النحو ، فقد وقعت من قلبى أبلغ

الوقع . كانت الألفاظ لدى إنشادها ، تفقد معناها الصحيح فلا أكاد أتفهـّمها . كان كل لفظ يتحـوّل إلى نغم موسـيقى يوحى بجنة أحلام كل ما فيها عجيب . وتـكشـَّف لى فجأة عالم آخر ليس عالمنـا الخارجى إلا ترجيعاً شاحباً له . وفيما بعد كنت أقول لهـا :

— سارا . . . ليس هذا العـالم الشعرى ، أياً كان جماله ، بالذى نسكنه ونستطيع العمل فيه . لِمَ إثارة الحنين والشوق إليه ؟

فـكانت تجيب :

— إنمـا فى مقدورنا ، إن شئنا ، أن نحيا فيه .

ولقد علمت فى نفس ذاك المساء أن سارا كانت تهـدف إلى أن تصبح ممثلة . وسوف أروى كيف رأيتها من بعد تنقاد رويداً إلى لبس شخصيات مستعارة من عالم المسرح حتى لتنسى نفسها ، وتفنى شخصيتها فى هذه الشخصية المستعارة التى سيطرت عليها سيطرة تامة . ورأيى اليوم ، أنه لا خير (وكدت أقول لا أمانة) فى أن تجرّد حياتنا الدنيا من أسباب شقائها ، وأن نحيا على غرار ما يفعل بعض المتعبّـدين ، فى أحلام حياة أخرى ؛ فإن هذا التهرب من الواقع شبيه عندى بالخيانة . ولـكنى فى هذا المساء

لم أحاول أن أرد نفسى إلى الواقع ، وأسلمت قيادى لسحر صوت سارا كما نسلم قيادنا لشدو أو رقيه .

ثم أنشدت سارا ، إجابة إلى طلب والدى ، « الدعوة إلى الرحيل » و « النافورة » . وكان سرورى ودهشتى عظيمين لما سمعت والدى يذكر بعض آراء أعجبت بها ، فيها إطراء لبودلير آراء أسندها إلى نفسه كما كان يفعل دائماً .

فلما كان الغد ، قال :

— إن هذه الفتاة، على صغر سنها، لهى ممثلة حقاً . أنا لا أكره أن أرى الممثلين على المسرح، ولكنى لا أحب أن أراك تعاشرين هذه الجماعة .

ومع ذلك ، لم يجرؤ على منعى من قبول دعوة آل كيلر الذين حرصوا على أن يردّوا لنا تحيتنا بالمثل ، وقال :

— هذه ثمرة دعوتنا إياهم ، إننا لا نستطيع الآن أن نرفض .

ولما كان والدى يحرص دائماً على أن يكون سليم التصرف ، كان يعتبر كل تهرب مما يمثل « آداب السلوك » عنده ، أمراً مستنكراً ؛ على أنه كان يطلب إلى والدتى الإجابة على ما ثقل عليه منها . لذا أضاف :

— ستذهبان وحدكما ، فسوف يكون لدى مانع .

وهذا أقصى ما كنت أستطيع أن أتمنى .

كانت كثرة المجتمعين عند آل كيلر من الفنانين ورجال الأدب. فلما أن دخلنا قاعة التصوير قدّمنا إلى عدد منهم. ووجدتنى ، فى هذه القاعة المزخرفة على نحو بعيد عن المألوف ، غريبة أروع ما تكون الغربة . وكذلك كانت والدتى بلا ريب، فإنها أفضت إلىّ فى اليوم التالى بأنها شعرت بنفسها فى هذا الوسط كالضالة ، وأنها ترجو ألا يكون بينها وبين أبوىّ صاحبتى علاقة متصلة . فلم يكن طرازهما يروقها ، ويجب أن أذكر أن والدتى وإن كانت على حرية فكر واسعة فقد كانت شديدة التحفظ وأضافت :

— ومع ذلك ، فصاحبتك تبدو لى ظريفة ولا أريد أن أمنعك من رؤيتها . هى بلا ريب ذكية موهوبة ، على أنه يخيل الىّ أن مواهبك ومواهبها ليست من ضرب واحد ، حتى ليدهشنى أن يسود بينكما التفاهم طويلاً ، ولن يكون فى مقدورك أن تقتفى خطواتها ، ولئن تعلّقت بها ليجرن عليك ذلك أحزاناً وأكداراً. أما الأخرى (ما اسمها ؟) . . . فهى أشد شبهاً بك .

أما الأخرى فقد كانت چيزيل بارمنتييه التى لبثت زمناً آسفة

لعجزى عن التقرب إليها . ذكرت أنها لم تكن لهـا صاحبة سوى سارا ، ولم يكن فى وسعى أن أتبين من أيتهما كنت أغار ، فقد كان كلفى بكلتيهما سواء وإن اختلف شعورى نحوهما اختلافاً بيناً . لم يكن كلفى بجيزيل من قبيل هذا الميل الجنسى الذى كان ينطوى عليه كلفى بسارا ، وإنما كان من شئ له فى القلب أثر عميق لاسبيل إلى تحديده . لا ، إنما كنت أغار من تصادقهما . فى هذا المساء ، إذ رأيتنى لأول مرة بجوارها ، شعرت بشئ من الحرج وكأننى دخيلة لا يواتينى القول رغم قلبى المفعم بالودّ . وأملت أن أسمع سارا تنشد الشعر ، ولكن فتاة لا تكاد تكبرنا سناً تقدمت إلى البيان وشرعت تغنى وهى تعزف . وجـذبتنا سارا ، جيزيل وأنا ، إلى حجرة أخرى خالية مضاءة يفصلها عن قاعة التصوير ستار مسدول وقالت :

— إن والدىّ يطلبان منها أن تغنى حتى يجدا لها تلاميذ ، فهى لا تجـد لها مورداً للعيش إلا من دروسها فى البيان والغناء ، ولـكن لا طاقة لى باحتمال صوتها وأسلوبها فى العزف ، وكذلك والدى ؛ غير أنه طيب القلب إلى حد كبير .

والتفتت الىّ وسألتنى :

— وأنت ، أطيبة القلب أنت ؟

وبدا لى أنه من التسرع أن أجيب : نعم . هـذا إلى أننى لم أكن أدرى « أطيبـة أنا أم لا » ، ولحسن حظى لم تنتظر جوابى بل استأنفت كلامها قائلة :

— إن چيزيل تسعى إلى حب الناس جميعاً ، وعندى أن هذا ليس بالحب وإنما هو ، كما يقول أستاذنا ڤيـديل ، نزعة الإحسان إلى البشر .

واعترضت عليها چيزيل قائلة :

— لا ، أنا لا أسعى إلى ذلك . . . والدتى تقول دائماً . . .

فقاطعتها سارا :

— مدام پارمنتييه . . . إنها الطيبة ذاتها . ما من مرة تناول القوم فيها أحداً بالتجريح إلا اعترضت ولم ترض إلا أن تجد لعيوبه ما يشفع لها . . . وما تقول والدتك إذن ؟

— إنها تقول إن عدداً عظيما من الناس أعظم مما نظن جدير بالحب . وحسبنا أن نفهمهم أحسن مما نفهمهم حتى نحبهم أحسن مما نحبهم ، ولأجل أن نفهمهم أحسن مما نفهمهم لا بد أن نمعن النظر أحسن مما نمعن .

ذكرت چيزيل هـذه البديهية دون تعمّل بل فى رصانة مستظرفة ، وتراءى لى أننى إذا لم أتكلم فى الحال قضى علىّ بالسكوت

بقية السهرة . كان جَرْس صوتى يخيفنى من قبل أن أنطق، وكنت أشعر بانقباضه انقباضاً مخيفاً ، فألقيت فى عناء وجهد :

— أظن أننى لست طيبة بالفطرة، على أننى قادرة على كثير الحب .

وكنت أريد أن أضيف إلى ذلك أنه يلوح لى أن الحب كلما اقتصر على بعض الناس، ولم يشملهم كلهم، كان أقوى . وكنت أرمى على الخصوص، بقصرى الحب على بعض الناس، إلى أن تدرك چيزيل وسارا أنهما المقصودتان بما أعنى . ولكن كيف السبيل إلى الإعراب عما بخاطرى فى أسلوب لايكون متكلفاً ؟ هذا التصريح الذى كنت أتوق إلى إلقائه ، والذى كان حلقى يختنق به ، خجلت منه كأنما ألقيته بالفعل . ونظرت إلى چيزيل وسارا ، فلما أن أبى اللفظ أن يخرج من فمى قالت سارا :

— إن الحب ضروب ، ولا قِبَل لى مثلا بالحب الزوجى .

فقالت چيزيل :

— وما أدراك بذلك ؟ يوم أن تصادفى . . .

فقاطعتها سارا مرة أخرى :

— أنا لا أعنى أننى لن أحب أحداً يوماً ما ؛ ولكن أن أضحى من أجله بميولى ، بحياتى الخاصة ، ألاّ أُعنى إلا بملاطفته والقيام بين يديه . . .

— يالها من فكرة طريفة تتصورينها عن الزواج !

— لا ، أؤكد لك أن الزواج كله يكاد يكون من هذا القبيل . فما نكاد نتزوج حتى لا نجد وقتاً لأى شئ كنا نهتم به من قبل ، وما قد نجده نخص به المنزل والأولاد ، إن كان لدينا أولاد . أنظرى إلى إميلى ن *** (كانت هذه الأخت الكبرى لإحدى خريجات مدرستنا) كانت لا تحيا إلا للموسيقا ، وظفرت بالجائزة الأولى فى معهد الموسيقا ، وهى مذ تزوجت لم تفتح بيانها .

فقالت چيزيل :

— لم تكن مع ذلك تستطيع أن تحمله معها فى شهر العسل .

فأجابت سارا :

— لا ، لا ، لقد قالت لى ، كما قالت لوالدتى ، إنها انصرفت عن البيان إنصرافاً تاماً ... وهى الآن لا تجد من الوقت أى متسع ، ولا تحرص على أن تجيد فناً يحول بينها وبين زوجها . هذه هى كلماتها بالنص .

فألقيتُ اعتباطاً :

— ما كان عليها إلا أن تتزوج موسيقياً .

وما إن ألقيت عبارتى حتى خجلت فى هذه المرة من حماقتها .

وأجابت سارا :

— إن أصوب الأمر ألاّ تتزوج أحداً .

فلما أن عاودت القول بأن حياة الوحدة مسئمة تخلو من المرح ، قالت :

— ليس فى ذلك ما يضطرك إلى الوحدة .

ما كنت لألتفت إلى هذا القول لولا صيحة الاستنكار التى صدرت عن چيزيل على الأثر ، بحيث أجابت سارا :

— ومع ذلك فإنك تفكرين مثلما أفكر ! وما استنكارك إلا من أجل چنڤييڤ .

عندئذ ، ودون أن أدرك أو أعى ما سوف يقيدنى به ما قد أقوله ، ورغبة شديدة منى فى ألاّ أظل بمنأى عنهـا ، وفى أن أظهر ودِّى ، صحت :

— ولـكنى أنا أيضا أفـكر مثلما تفـكر سارا . يجب ألا تخشيانى ؛ أنا لا أحسن التعبير لأنه لم يتسنَّ لى إلى اليوم أن أتحـدث إلى أحد ، ولـكنكما لو بلوتمانى لأدركتما أنه من الممكن أن أكون لـكما صاحبة .

وأفضيت بمـا أفضيت جملة وفى عناء عظيم . وإذ كنت خجلة

مدهوشة مما أقدمت على قوله رأيتنى ، وقلبى يخفق ، أمسك فى الوقت نفسه چيزيل بيد ، وبالأخرى كتف سارا ضاغطة جبينى عليها كأنما أحاول إخفاء خجلى . وشعرت بيد چيزيل تداعب شعرى فى لطف . فلما أن رفعت جبينى كان الدمع يغمر عينىّ ، ومع ذلك أمكننى أن أبتسم . وقالت سارا :

— أصغيا ، يمكننا والحال هذه أن نكوّن من ثلاثتنا رابطة ، رابطة خفية ، رابطة لاستقلال النساء . وعلينا لذلك أن نبدأ بالتعاهد على الكتمان . چيزيل ، أقسمى فى الحال على ألا تروى لوالدتك شيئا من ذلك .

— وما تريدين أن أروى ؟ لا شىء فى ذلك يروى .

— لا شىء ، كيف ! أتسمين « لا شىء » انضمامنا ثلاثتنا ، وتعاهدنا على الإخلاص لمنهجنا .

— ولكن أى منهج تعنين ؟

— سنعنى بوضعه فيما بعد ، أما الآن فلا بد من أن نقسم على كتمان ذلك.

لم أكن كتمت عن والدتى شيئا من قبل ، ولكنى رضيت أن يكون هذا أول ما أكتم ، وقلت :

— ولكنى أريد أن أعرف موضوع الترامى قبل أن أقسم .

وعند ذلك أخذت أضحك ، وشعرت بارتياح تام . وعاودت سارا الكلام قائلة :

— إن رابطتنا ستدعى « رابطة استقلال النساء » وسيكون شعارنا غصنا من السرو[١] ، وبما أننا منشئات هذه الرابطة فلا يستطيع أحد الانضمام إليها دون موافقة منا . أما الأعضاء الجديدات فيدفعن رسماً .

فسألتها جيزيل :

— ولِمَ هذا الرسم ؟

قالت : لنجابه . . . لا يمكننا أن نعرف مقدما أى شىء نجابه . ولكن لكل رابطة صندوق وأموال تخصص ، مثلا ، لإعانة الفتيات الأمهات[٢] .

وأغربت جيزيل فى الضحك ، ولا شىء على الاطلاق بدا لى أظرف من محياها الرصين وقد أشرق . وصاحت :

— كنت أنتظر هذا ! فكرة متسلطة على سارا . لا يا عزيزتى ، أنا لا أريد أن أتعهد بالإحجام عن الزواج

---

(١) السرو بالفرنسية I F ، وهما الحرفان اللذان يرمزان إلى الرابطة Indépendance Féminine .

(٢) الفتاة الأم : التى أنجبت دون زواج .

إلى ما شاء الله ؛ وأنا أزعم أن المرأة ، حتى فى زواجها ، تستطيع أن تحتفظ بحريتها ، فضلا عن أنها فى الزواج العرفى لاتحتفظ بها حتما فانه لايقل عبء الأولاد فيه عمـا هو عليه فى الزواج الشرعى .

وأثار هذا الاعتراض ظلمة فكرى قليلاً ، ولولاه ما كنت فهمت الفكرة المتسلطة على سارا ؛ على أننى كنت لا أجرؤ أن ألتمس زيادة الإيضاح مخافة أن أظهر جهلا فادحا أو حمقاً خارقاً. وكانت هذه أول مرة أسمع فيها عبارة « الفتاة الأم » . لم يكن لها معنى دقيق عندى ؛ وإن كنت قد صدمت قليلا لما سمعتها ، فلم يكن فى وسعى أن أعرف السبب . لقد لبثت زمناً أعتقد فى سذاجة أن الزواج شرط لازم لإنجاب الأولاد ؛ ومع ذلك كنت لا أجهل أن الأولاد هم ثمرة طبيعية للاتصال الوثيق بين الجنسين ؛ وكانت والدتى قد رأت أنه من الخير أن ترشدنى ذاكرة أن الإنسان لا يختلف فى ذلك عن الحيوان ، ولكنى كنت أقرن هذا الاتصال الوثيق بالزوجية قرناً تاماً ، وما كان يدور بخلدى أنه مقبول خارج حدود الزواج . ومع ذلك كنت أعرف تماما أنه يوجد رجال ونساء يعيشون معاً دون زواج . ولو كنت فكرت فى ذلك لتنبهت إليه ؛ غير أننى فى الواقع

لم أفكر فيه قط . ولم تكن لمعلوماتى النظرية فى هذا الشأن علاقة مباشرة بالحياة .

كان وجود چيزيل وسارا يشل فكرى ، فأرجأت فحص هذه المسألة إلى ما بعد ؛ وبدا لى واضحاً أن سارا لم تكن ترغب فى الزواج ، ومع ذلك فهى لا تتطلع إلى أن تظل وحدها . فاحتميت بمعارضة چيزيل ، ورأيتنى أخاطبها فى غير كلفة :

— لن أتعهد بشىء حتى تتخذى قراراً .

كنت أؤمل أن أحظى منها بجواب ، ولكنها التفتت إلى صاحبتها وقالت :

— أصغى ياسارا ! إنه فى إمكاننا أن نكوّن رابطة ولكن على أن نقصر تعهدنا على أن نحجم عن كل عمل يخالف ضميرنا أو يصدر عن محاكاة .

فعادت سارا إلى القول :

— أو يكون خضوعا للعرف .

فقالت چيزيل فى شىء من التردد :

— نـ . . . ـعم

ثم التفتت إلىّ وقالت :

— أظن أننا نستطيع أن نتعاهد على هذا . والآن فلنضم

أيدينا اليمنى ، كما فعل القوم فى عهد جروتلى[١] ، وليكن قسمنا : أقسم أن أخلص لرابطة استقلال النساء .

وفعلنا هذا فى جد عظيم .

ثم ساد صمت طويل أشبه بذلك الذى يعقب تناول القربان .

وفجأة وجهت سارا كلامها إلى چيزيل سائلة :

— فيم تفكرين ؟

فأجابت چيزيل :

— أفكر فيما إذا كان قسمنا يربطنا تماما .

فقالت سارا :

— إن كنت تحاولين من الآن التهرب منه . . .

فى هذه الآونة رفعت والدة سارا الستار الذى كان يفصل قاعة التصوير عن الحجرة التى كنا فيها وقالت :

— يا بنيّاتى ، جئت لدعوتكن . إننا فى حاجة إلى فتيات يقدمن المرطبات .

أعتقد أننى نقلت فى أمانة ما جرى بيننا من حديث ، وهو فى نظرى الآن حديث صبية ؛ غير أنه كان عندى فى ذلك الوقت من الأهمية بمكان ، ولم أكف عن تدبره فيما تلا من الأيام .

---

(١) عهد جروتلى : عهد كان بين بعض الزعماء فى سويسرا سنة ١٣٠٧ .

ولما حان وقت الانصراف دنت والدتى من چيزيل وسمعتها فى دهشة تقول لها :

— علمت أن مسكنك قريب من هنا يقع فى طريقنا ؛ أتريدين أن نرافقك ؟

كنت قد حدثت والدتى ، من قبل ، عن چيزيل ، وكانت تعلم أن عرضها مصاحبتها يقع من نفسى أحسن وقع . وكانت ترغبُ فى أن تتحدث إلى چيزيل كما رغبت من قبل فى معرفة سارا . فلما خرجنا قالت لها :

— إن والدتك تسمح لك بالخروج وحدك . إنها توليك ثقة لا ريب عندى فى أنك تستحقينها .

فقالت چيزيل مبتسمة :

— إن رغبتى فى أن أستحقها شديدة بحيث لا أجرؤ على إتيان أى عمل لا يرضيها . وأظن أننى لو كنت أعامل فى صرامة شديدة لكان استحقاقى لهذه الثقة أقل .

كانت چيزيل تعبر فى أسلوب ظريف طبيعى ، فيه طلاوة ودعابة ، من شأنه أن يعجب والدتى . وكنت أحس بهذا الإعجاب وأسر له . وعادت چيزيل إلى الكلام :

— ولكنك أنت أيضاً يا سيدتى لست صارمة مع

چنڤييف . إنك لا ترافقينها دائما ، فهى تحضر إلى المدرسة وحدها . (أتراها لاحظت ذلك !)

فقالت والدتى :

— إننى أرافقها ما تيسر لى ذلك ، لا عن قلة ثقة وإنما حباً فى أن أكون معها ، وسوف أشعر بفراغ عظيم يوم تفارقنى .

— هذا ما أفكر فيه أنا أيضاً بالقياس إلى والدتى .

كانت لهجة چيزيل وهى تقول هذه العبارة قد تحولت إلى جد شديد . وأدركت أنها تحب والدتها فى حنو عظيم . وفجأة رأيتنى أنحى على نفسى باللوم على تقصيرى فى حب والدتى . وسرنا حيناً دون كلام ؛ كنت لا أعرف أين تسكن صاحبتى الجديدة ، واكتأبت إذ سمعت والدتى تقول فجأة :

— أظن أننا الآن أمام بابك ؛ هل تتلطفين يا آنسة چيزيل بتبليغ والدتك بأننى أحب أن أعرفها ؟

وما إن فارقتنا چيزيل حتى ضممت والدتى إلى صدرى ، فقالت وهى تضمّنى :

— ما بك ؟ يا عزيزتى چنڤييف ، إنى أكاد أقع .

— أحسب أننى لم أدرك إلا الليلة فقط كم أنت لطيفة .

وتكلفتْ الضحك لتخفى انفعالها، ثم قالت، وكأن شيئاً لم يحدث :

— أفٍّ لدخان هذا المرسم ! يجمل بنا أن نسير قليلا بعد الخروج منه .

لم أتحدث بعد عن أخى ؛ وهو على أنه أصغر منى بعام لم يكن يشغل حيزاً كبيراً فى حياتى . ولما كان رقيق الصحة كان مدللا أكثر منى ؛ ولا أظن أن ذلك كان سبب حفيظتى عليه ، بل لعل أسلوبه فى تملق والدى ، حتى يظفر بما يبتغى ، كان هو السبب ؛ ولقد كان ينجح دائما فى ذلك ويحظى بما يريد . ولم يرفع والدى يده عليه قط، بيد أننى أذكر أنه ضربنى مرة. حدث ذلك فى يوم كان يسدى إلينا النصح فيه، ويحثنا على التشبه بالنملة كما كان يفعل سليمان الحكيم ؛ فلما فرغ من قوله ، وكنت حين ذاك فى التاسعة من عمرى ، تجرأت قائلة : « ولكنك يا أبتاه ، ما تفتأ تنهانا عن التشبه بالحيوان . »

أنا لا أستنكر الضرب ذاته (فكثيراً ما لجأت إلى العقاب الجسدى لتربية ابنى) ولكننى كنت أشعر أن والدى لم يلجأ إلى ضربى إلا لعجزه عن الجواب ، وعقاباً لى على

إدراكى تناقضه . أما جوستاف فقلما كان التناقض يضيره ، وصار يعمد رويداً إلى تعديل ميوله وآرائه بما يلائم الظرف والساعة ، على غرار ما كان يفعل والدى . ذكرت أنه كان يصانع والدى وذلك بتكلفه الإعجاب بكل ماينطق به ، ولعله كان يعجب خاصة بالسهولة التى كان يغيربها آراءه كما يغير الناس ملابسهم .

كان ذلك يتيح لجوستاف أن يستشهد به فى كل حين وأن يحتمى دائما بهذه العبارة « كما يقول أبى » ، ويكثر من ترديدها لا سيما أنه كان يعرف أنها تستفزنى . وسرعان ما صرف فكره عن كل ما لا يبدو فيه نفع أو لا يعود عليه بفائدة — وأعنى بالفائدة ما كان منها عملياً مباشراً الى أعظم حد .

ورغم حياتنا معاً ، لم نكن نتبادل الحديث إلا نزراً وما كان قط يميل الى شىء أميل إليه . كنت أظنه لا يحفل بى ، وما كنت لأرتاب فى عدائه الذى كان يضمره لى ، وقد أخذ عداؤه يتزايد شيئاً فشيئاً وإذا به ذات يوم ينفجر . حدث ذلك بعد الفترة التى وقفت عندها فى قصتى بزمن قليل . فقد أقيم فى ذلك الحين معرض خاص لأحدث آثار كيلر ، وأخذت الجرائد تتحدث عن الآثار الموجودة فى هذا المعرض وتثنى بنوع خاص على لوحة عنوانها « المسترخية » كانت تعدّ أهم ما فيه . وكانت مجلة

الألستراسيون قد نشرت صورتها ، وهى تمثل امرأة عارية مستلقيـة على أريـكة تتأمل فى مرآة ذات مقبض ، تحجب وجهها .

كنت قد سمعت كيلر يصرح بأن موضوع اللوحة لاخطر له ، وإنما الخطر كله فى جودة التصوير . وكان الإجماع على أن التصوير كان أجود ما يكون . وكنت أبتهج لذلك من أجل سارا . ذكرت أن والدى كان لا يرتاح إلى صداقتنا ؛ ورأى جوستاف وسيلة للزلفى إليه فى أن يجرّح صاحبتى تجريحاً دنيئاً . كان يعرف أننى كثيراً ما أراها خارج الدرس ، وأننى كنت أزداد كلفاً بها ، وأخيراً كنت قد أثنيت عليها أمامه دون حذر ؛ لذلك كله عول على الحطّ من شأنها .

حدثت الواقعة بعد الغداء مباشرة . كنا قد تناولنا الطعام فى صمت شديد ينذر بالخطب . وكان من عادة والدى أن يقرأ صحيفته فى أثناء الطعام . وكان يقطع قراءته عادة بملاحظات يبديها عن السياسة كأنه بذلك يعتذر عما تحدثه هذه القراءة من امتهان لوالدتى . كان كل يوم يجد صحيفته بجوار طبقه ، ولـكنه تركها فى هـذا النهار دون أن يتصفحها ، وكان يقطب حاجبيه ويرمق فى شدة . وكنا نشعر بأنه إن كان يصمت فليس

ذلك لأنه لا يجد ما يقول ، وإنما لأنه أراد أن يرجئ قوله إلى ما بعد الغداء . كانت العاصفة تضطرم وتهددنى بالذات ، ما من شك فى ذلك ، فأن جوستاف ، وقد كان بلا ريب يعرف ما وراء ذلك ، كان يرنو الىَّ بطرفٍ فى تهكم . كنا نتناول القهوة فى مكتب والدى . وأنا إذ أذكر « كنّا » بضمير الجمع أعنى أن اجتماعنا حول القهوة كان يعدّ تقليداً لابد أن نشترك فيه جميعاً ، وإن كان والدى هو الوحيد من بيننا الذى يتناولها . فلما أن هممنا بالانصراف من حجرة الطعام قال لجوستاف :

— دعنا .

وعلمت بعد ذلك أنه ظلّ فى الحجرة المجاورة ملصقاً أذنه بالباب يستمع ولا يدع شيئاً يفوته مما دبره خفية وغدراً .

ولما كان والدى يعرف أن لا سلطان له علىّ ، ويتوقع منى مقاومة كان يريد أن يقهرها ، فقد دعا والدتى لتقوم حكماً بيننا ، ووجّه إليها الخطاب . وفجأة ضرب المنضدة التى كان يجلس اليها براحته لا بقبضته ، لأن الضرب بالقبضة مرذول ، وانفجر قائلا :

— لن أقبل أن تخالط جنفييف سارا بعد الآن .

قال ذلك فى لهجة لا تحتمل جواباً ؛ ولكن والدتى قالت فى صوت هادئ :

— أنت لا تزعم مع ذلك إخراجها من المدرسة .

لم يكن والدى يشعر بأنه من القوة بحيث يقهرنا ، وكنت أشعر بأن والدتى تناصرنى ، فزوّدنى ذلك بشجاعة كبرى . ولكنه حاول أن يشركها معه فى رأيه فقال :

— إن اقتضى الأمر إخراجها من المدرسة أخرجناها ، وإلى هذا فإنى أحظر عليها (كان هذا اللفظ من ألفاظه المأثورة) أن تلقى هذه الفتاة خارج الدرس .

ثم ضرب المنضدة مرة أخرى براحته . ولكن التوفيق خانه فى هذه المرة فقد وثبت ملعقة القهوة فأصابت أنفه بينا هو يقول :

— هل فهمت ؟

وأفسدت الملعقة عليه فعله ، وفوّتت عليه قصده ، فغالبنى ضحك شديد تعذر علىّ أن أوقفه . هذا إلى أنه كان يعرف أنى لم أعد أحمل كلامه محمل الجد أو الصدق . وأثار كل هذا حنقه فقال :

— ليس هذا وقت المزاح .

وأسرعت لالتقاط الملعقة ثم نهضت قائلة ، دون أن أنظر إليه ، حتى لا يبدو فى مظهرى ما يفيد التحدى ، ولأخفف من وقع ماقد يبدو فى منطقى من قحة :

— ليس فى نيتى أن أطيعك .

وساد صمت أليم استطعت أن أرى إبانه والدتى وقد امتقع وجهها ، ووالدى وقد أخذت يداه ترتجفان

وأخيراً قال :

— چنڤييڤ حذار . . . إنك ستضطريننا إلى أن نلجأ إلى . . .

ولما لم يكن ولا ريب يعرف إلام يلجأ . . . استعاد عبارته قائلا :

— ستضطريننا إلى عقابك .

ثم التفت إلى والدتى وقد كان يصطنع لخطابها فى خطير المناسبات الصيغ الرسمية حتى يكون كلامه أبلغ وأفخم ، وقال :

— أنظرى ياسيدتى .

وأخرج من جيب سترته الداخلى ورقة من صحيفة ، أو على الأصح من مجلة ، بسطها وقدّمها إليها قائلا :

— اقرئى هذا ياسيدتى ، أرجوك ، إقرئيه بصوت عال .

وقالت والدتى دون أن تتناول الورقة :

— أوجوستاف هو الذى أتاك بها ؟

ثم أضافت فى صوت خافت :

— الشقى !

وصاح والدى فى حنق :

— أجل ؛ اتهميه الآن :

فقالت والدتى وهى لا تزال هادئة المظهر ، رغم شدة امتقاع محياها حتى لتوقعتُ أن أراها تضعف :

— أياً كان الأمر ، فقد قرأت هذا المقال القذر من قبل .

— وإذن ، لِمَ لمْ تحيطينا علماً به ؟

— لأننى لم أجد فيه ما هو جدير بالاهتمام .

وسألتُ وأنا أستولى على الورقة التى كانت قد سقطت إلى الأرض :

— فيم هذا كله أخيراً ؟

فقرأت فيها تحت عنوان « يقولون إن » :

« ... الآنسة سارا كيلر ، بنت المصور المشهور ، قد كانت تجلس إلى والدها نموذجا « لهذا الجسم العارى الفخم » الذى أعجب به كل من رآه فى المعرض . فالى المصور ، وإلى المثال نهدى عظيم التهانى . إن هذا الجسم

العارى لتحفة مستملحة ، وإننا لنشكر المصور فقد أظهرنا على دخيلة أهل بيته . ولئن تأذت من ذلك الآداب العامة (البورجوازية) فلنذكر ألفريد كيلر بقول بودلير :

دع أفلاطون يقطب جبينه الصارم ،
وصور ما خفى من محاسن هذه العذراء اليانعة .

« إن الفن والحياء ما كانا قط على وفاق . »

ورفعتُ كتفىّ وقلت :

— ألهذا تبغى منعى من لقاء سارا ؟

والتفت والدى مرة أخرى إلى والدتى قائلا :

— أسألك ، أمن المقبول أن تواصل چنڤييف معاشرة فتاة متبرجة لا تتقى ولا تستحى من عرض جسمها عارياً على أنظار الناس ؟

فقلتُ :

— لو أن هذا الصحفى القذر قد سكت مادرى أحد بأن الصورة لها .

فكرة طائشة دفعتنى إلى مأزق إذ أتاحت لوالدى أن ينقضها بقوله :

— وإن يدر أحد من ذلك شيئاً ، فهو على كل حال أمر

واقع . أنت تعلمين حق العلم أنى لا أحفل بآراء الغير ، وإنما يهمنى الأمر نفسه .

وكنت أعرف عنه نقيض ذلك تماماً ، فقد كان يحفل بآراء الغير كثيراً ، بل لعله ما كان يحفل إلا بها . ولكنى كنت قد هيأت له السبيل ليسيطر علىّ . واستأنف قوله :

— إذن فقد كنت تعرفين ذلك ؟

— لا ، لم أكن أعرف ؛ على أننى لو عرفته لما تبدّل شعورى نحو سارا ، ولحرصت على ألاّ اذكر لك شيئاً منه .

فبادرتنى والدتى فى صرامة قائلة :

— جنقييف !

وتكلف أبى الدهشة قائلا :

— كيف ! ألا تنتصرين لها ؟

— إننى لم أرض قط عن قحتها .

— ومع ذلك فإنها تعتمد عليك دائما فى معارضتى . ولكن ليس هذا موضع الجدل . . . أمصرة أنت على عصيانى يا جنقييف ؟

— كل الإصرار .

وبدا متردداً قليلا، حتى ملك نفسه، ثم ألقى فى لهجة متعالية :

— حسناً ، أنا أعرف ما علىَّ أن أفعله .

وفى الحق أنه كان يجهل ما عليه أن يفعله ؛ وقصارى القول، لم يفعل شيئاً .

لقـد كنت كاذبة حين زعمت لوالدى أن شعورى نحو سارا ما كان يتغير لو أننى عرفت أنها جلست عارية إلى والدها . وهذا ما أدركته حين خلوت إلى نفسى بعـد ذلك . ولما كان قلبى مفعماً بهم شديد لا أستطيع توضيحه أسرعت إلى غرفة الاستقبال لأبحث عن المجلة التى نشرت لوحة كيلر ؛ فلم أكن قد رأيت هذه اللوحة من قبل ، الا فى صورتها المنشورة فى المجلة . والآن وقد عرفت أن هذه المرأة العارية إنما هى سارا فقد شعرت برغبة فى مشاهدتها مرة أخرى فلم أكن قد أطلت النظر إليها . وكان عدد هذه المجلة على المنضدة ، فلما فتحته تبينت ، فى دهشة ، أن الصورة قد انتزعت من مكانها وقصَّت فى عناية . . . وقدّرت فى الحال أن ذلك فعل جوستاف ، فانطلقت إلى حجرته وثباً . ولا شك فى أنه لم يجلس إلى منضدته

إلا من لحظة يسيرة، غير أنه تكلف الانهماك فى الدرس ، ودون أن يرفع رأسه عن الأطلس الذى كان أمامه . قال :

— فى إمكانك أن تطرقى الباب قبل الدخول .

كنت أحاول أن أحتفظ بهدوئى ، ولكن الغضب كان يرعد صوتى ، فقلت :

— أنت الذى أخذت الصورة من المجلة ؟

— أية صورة ؟

قال ذلك فى سذاجة مصطنعة وابتسام خفيف فيه معنى التحدى .

— لا تتكلف البراءة ، أنت تعرف ما أعنى تماماً . من أذن لك فى انتزاع هذه الصورة ؟

فأعاد النظر إلىَّ فى تحدٍ واستهزاء ، وأجاب :

— لعله كان من الواجب أن أستأذنك ؟

— جوستاف ، أعطنى هذه الصورة فى الحال .

— هذه الصورة ! هذه الصورة ! . . . أولا إن هذه الصورة ليست لك .

فانقضضت عليه وأنا لا أملك غضبى ، وقبل أن يجد من الوقت فسحة لأن يتقينى ، رفعت الأطلس فرأيت الصورة تحته فالتقطتها ؛ ولكنه نهض فجأة واختطفها من يدى ومزقها إرباً قائلا :

— هــذا ما تستحقه الآنسة سارا كيلر ، صاحبتـك الحسناء . . .

ولبثنا آونة ، يحدق كل منا فى صاحبه وهو يضطرم ، ولو أن صراعاً نشب بيننا لكنت الغالبة فيما أعتقد ، فلم يكن جوستاف أقوى منى ، ولكن ما ذا تكون النتيجة ؟ على أنه لم يدع لى فرصة للتفكير ، فقـد اندفع نحو البـاب مستنجداً .

وسمعت باب مكتب والدى يفتح ، فلم أجد مندوحة من أن ألجأ إلى حجرتى وأوصدها علىَّ وأستلقى على فراشى وأبكى . كنت مصدوعة ، فحاولت ألاَّ أفكر فى شىء ، غير أنه كان يؤسينى أشد الأسى أنه لم يكن فى وسعى أن أثور صادقة على حكم والدى ، وأن أشعر مع ذلك ، بالرغم منى ، بشىء من الامتعاض لأن سارا قد عرضت جسمها على هذا النحو فبدت ، أمام والدها ، عارية لا ثوب يحجبها . ثم ، ألم يكن فى العنوان نفسه الذى اختاره المصور للوحته « المسترخية » ما يشير إلى سارا ويذكر بهذه المرأة التى وصفها الشاعر بقوله :

« حسناء فى تراخيها »

هذه الحسناء التى كانت صاحبتى تذكِّرنى بها كما أوضحت ؟

أصبحت الآن فى سواد حالك ، فقد أسدلت الستائر وأغمضت عينى ؛ ولكن صوراً من هذا الجسم الجميل الأسمر كانت تدور حولى .

وسمعت طرقاً خفيفاً على الباب ، ثم صوت والدتى العذب ينادينى :

— چنڤييف ، حبيبتى ، افتحى لى .

وأخذتنى بين ذراعيها ووضعت يدها على جبينى وهدّأتنى كما يُهدَّأ الطفل . وعلى زعمها ، لم تحضر إلا خوفاً من أن أكون متوعكة . ولم تذكر لى شيئاً مما حدث ، ولكنها عنيت بإعلامى أن والدى خرج مع جوستاف . حدث هذا يوم خميس والدراسة معطلة . ثم قالت :

— إن الجو رائع ، ويحسن أن نخرج نحن أيضاً ، ما رأيك . . . لو ذهبنا لمشاهدة معرض كيلر ؟ نستطيع أن نمضى إليه على أقدامنا فلعلَّ المشى أن ينفعك .

فقبلتها من قلبي كله ، وغسلت عينىّ ، وهمست فى أذنها وأنا أتأهب للرحيل :

— كانت سارا تقول : لا يوجد أطيب من مدام پارمنتييه ؛ ولكنها لو عرفتك لما قالت ذلك .

فلما هممنا بالدخول إلى قاعة تاجر الصور التى كانت لوحات كيلر معروضة فيها ، وقفت والدتى فجأة وقالت :

— بودى لو كنت على يقين من أننا لن نلتقى بآل كيلر . . . أو بوالدك .

كان يعتريها أحيانا خوف مفاجئ ، كأن بعضاً من نفسها يأبى أن يطاوع جرأتها الطبيعية ، ولـكن هـذه الجرأة كانت لا تلبث أن تنتصر . وقالت فى عزم وفى شىء من عبث الصبية وتحديهم :

— وبعد . . . أياً كان الأمر فسنرى ! هيَّـا بنا .

لم نجد لحسن الحظ أحداً نعرفه فى القاعة . ولحسن الحظ كذلك كانت هنالك لوحات ، بعضها يمثل مناظر من الطبيعة الحيَّـة أو الجامدة وبعضها يمثل وجوهاً . وأتاحت هذه اللوحات للزائرين أن يتفرقوا وألاَّ يظلّـوا وقوفاً أمام لوحة « الجسم العارى الفاخر » دون غيرها . وكانت هذه اللوحة معروضة فى صدر المـكان وكانت أول ما يسترعى النظر . ورأيت والدتى تتأملها دون حرج ، فاطمأنت نفسى إلى ذلك . وسمعتها تتمتم :

— ما أجملها !

كنت قد ألفت مشاهدة الأجسام العارية فى المتاحف ، وكنت أعجب دون أية مظنّة سوء بعراء « الأوداليسك » و « الينبوع » و « أوليمبيا » و « الغداء على الكلأ » ، ولكنى كنت لا أستطيع الانقطاع عن التفكير فى أن هذه الغانية التى كنت أراها عارية العرى كله، إنما كانت سارا ، صاحبتى سارا ! لذلك بدت لى هذه اللوحة بالغة النبو .

وودت لو أكون وحدى فى هذه القاعة ؛ فإننى كنت أضيق بأنظار غيرى من الزائرين . وكان يخيَّل إلىَّ أننى ما رفعت عينى إلى اللوحة إلا راقبونى ؛ ومع ذلك كنت بالرغم من ضيقى وألمى مأخوذة بجمال هذه « المسترخية » العجيب الذى كان يفعم نفسى بإحساس غريب ما شعرت بمثله قط .

وسمعت من خلفى خطواً خافتاً ، وعلى غرة شعرت بيدين رخصتين تحجبان عينى ، فالتفت فإذا به چيزيل ، وصاحت :

— يا لفرحة اللقاء !

فلما أبصرت والدتى ، قالت :

— لقد أبلغت والدتى رغبتك يا سيدتى ، فقالت لى إنها كذلك يسرّها أن تعرفك . وهى ترافقنى ، غير أننى لا أحسن القيام بتقدمة الناس .

ثم تأبطت ذراع والدتها ، وسارت بها إلينا ، وقالت فى شىء من العناء :

— والدتى . . . مدام . . . والدة صاحبتى الجديدة ؛ نعم ولـكنك لم تعرفى بعد چنڤييڤ . . . هذه هى . . .

كانت والدة چيزيل ظريفة ، فشعرت فى الحال بأنها راقت والدتى . كانت تتكلم الفرنسية فى طلاقة تامة ، ولـكن فى لـكنة أجنبية ظاهرة لا تخلو مع ذلك من ظرف ، بل لعلها كانت تبرز ما يبدو عليها من امتياز طبيعى . كنا إذ ذاك أمام اللوحة الفاخرة .

وقالت والدتى ، بعد تبادل عبارات المجاملة المألوفة :

— لا يسعنا إلا أن نقرّ للسيد كيلر بموهبة فنّية حقة .

فقالت مدام پارمنيتيه .

— نعم ، وهو على الأقل لا يخشى أن يختار نماذج جميلةً . إن المصورين المعاصرين يَبدون ، فى كثير من الأحيان ، وكأنهم يخشون الجمال .

وتساءلتُ فى قلق شديد ، أ كانت مدام پارمنتييه على علم بالفضيحة ؛ غير أن لهجتها هدّأت من روعى ، فقـد كانت لا تتيح لى أن أستشف فى كلامها تهكما ظاهراً أو خفيّاً . أمّا أن

تتبين سارا فى هذه اللوحة فلقد كان ذلك أمراً مستحيلاً . وبدت لى والدتى مطمئنة أيضا ، بعـد أن كانت تشاركنى فى قلقى ، وقالت :

— بل وكأنهم يخشون أيضا أن يصوروا لوحات تمثل شيئاً ما تمثيلاً صحيحاً ، وكأنهم يسعون بخاصة إلى تضليلنا .

لم أعد أصغى إلى والدتينا ، وبينا كانتا تتابعان حديثاً بدأ موفقا ، جذبت چيزيل جانباً .

ما الذى كانت تعرفه ؟ وسألتها فى صوت يرتعد ، وفى ارتباك واضطراب شديد .

— أكنتِ تعلمين أن سارا . . .

ولـكنها لم تدعنى أتم عبارتى إذ قاطعتنى قائلة :

— نعم ، بل لقد شاهدتها تجلس إلى والدها . (كأنما كان ذلك أمراً طبيعياً جداً .)

ونفذت هذه العبارة إلى قلبى نفاذ السكين . وإذن ، كان بين صاحبتىّ الوحيدتين اللتين اصطفيتهما دون غيرهما ، مودة ما كنت لأفطن لها . لأى سبب كانت سارا تتنحَّى عنى ؟ نعم ! ما من شك فى أننى لو كنت رأيتها عارية لشعرت ببعض الحرج ؛ ولـكن كان عليها ألا تهتم بحياء أنا مستعدة أن أتخلى عنه .

والآن كان حرجى أشد لتصورى أنها بدت عارية أمام چيزيل ، إلا أن حرجى هذا لم يكن عن حياء ، وإنما عن غيرة .

وأضافت چيزيل :

— لا تذكرى كلمة من ذلك لوالدتى ، فإنها لا ترتاب فى شئ .

ولما أخبرتها أن والدتى علمت بالأمر من مقال دنئ ، قالت :

— عسى ألا تكاشفها بشىء .

فعجلت بطمأنتها .

لدى خروجنا من المعرض دعتنا مدام پارمنتييه إلى تناول الشاى فى محل فطائر مجاور ، وكان يبدو على والدتى وعليها أنهما على وفاق ، ولم ينقطع الكلام بينهما ، على حين لبثت أنا وچيزيل فى صمت . ولدى انصرافنا أردت أن أرد إلى مدام پارمنتييه فهرست المعرض الذى كانت قد أعارتنى إياه ، ولكنها أبت أن تسترده قائلة :

— لا ياچنڤييف ، احتفظى به تذكارا لهذا اليوم الجميل .

واغتبطت للاحتفاظ به من أجل الصورة المنشورة فيه إتقان طبعها . وما أن رجعت إلى البيت حتى اختليت فى غرفتى لأتأملها دون حرج . وكان خيالى يبذل جهده فى كساء هذا الجسم

البديع لرخص بثوب سارا الذى كانت تختلف به الى الدرس ، هذا الثوب الذى كانت ترتديه فى كل يوم، والذى رأيته عليها غداة ذلك فكان أيسر علىّ أن أتمثلها مجردة منه . نعم ، كانت عينى بالرغم منى تجردها مما عليها وتتمثلها فى صورة « المسترخية » ؛ وأخذ يتملكنى اضطراب خفىّ حلّ أوصالى . وما كنت أدرى أن هذا الاضطراب إنما هو الرغبة ، فما كان يدور بخاطرى أن كائناً من كان يستطيع أن يحس برغبة إلا لكائنٍ من الجنس الآخر . وأحياناً ما كانت يدى تمتد إلى يدها الموضوعة على الدرج أمامنا دون إرادتى ، فقد كنت فقدت كل قيادى ، ثم كانت ترتد فجأة لما كانت سارا تلاحظ إقبالى . ولبثت صبيحة يوم الجمعة كلها دون أن أوجه إليها كلمة ، ودون أن أخاطب چيزيل أيضا . ولقد رأيتها لدى انصرافنا من المدرسة تمضى فى صحبة سارا ، وقلبى ينفطر من الألم وقلبى فريسة أروع الأحزان . ألم تقل لى والدتى مساء يوم الجمعة إنه لا بد من الكف عن معاشرة سارا ؟

نعم ، فلقد حضرتْ إلىّ والدتى هذا الخميسَ مساءً بعد عودتنا من المعرض بقليل ، وبدأت حديثها قائلة فى صوت بالغ الحنو كان يذوب له قلبى ويسلبنى كل مقاومة :

— چنڤييف ، بنيّتى ، حبيبتى ، لقد فكرت كثيراً فيما سأقوله لك ، إنه ليؤسينى أن أضطرّ إلى تكديرك . . .

وترددَتْ آونة ، على أننى كنت قد فطنت إلى ما ستعقب به ، وشرعت أتمتم : « لا يمكنى ، لا يمكنى » . فعاودت قولها :

— أنا لا أريد أن تخطئ الظن ، إنما فرضٌ علىَّ فى سبيل صالحك أن أسألك هذا : إن صحبتك لسارا أنا لا آمنها ، وإنى لأخشى أن تكون لك فى المستقبل مصدر أحزان شديدة ، وأن تودى بك إلى أبعد مما ترغبين .

كانت قد جلست وأخذتنى على ركبتيها كما كانت تفعل فيما مضى . فشرعت أبكى ورأسى معتمد إلى كتفها بينما كنت أقول :

— أماه ! أنت لا تدركين ، أنت لا تستطيعين أن تدركى .

ولكنها لم تكن على التأكيد بالواهمة فى عنف عاطفتى ، وهذا نفسه ما كانت توجس منه . قالت :

— چنڤييف ، بنيّتى ، أظن أننى أفهمك أبعد حدود الفهم ، ولعلنى أفهمك أحسن مما تفهمين نفسك ؛ ولذلك ينبغى علىَّ أن أحذّرك . أخشى عليك أن تمضى فى سبيل وعر سوف يكون تركه فيما بعد أصعب منه الآن .

وما من شك فى أنها لم تكن تجرؤ على مزيد إيضاح . وكان علىّ أن أفهم فكرها من خلال ما تصرِّح به . ولما كنت لا أجد حجة أرد بها حجتها ، فهت بهذه العبارة الحمقاء التى ندمت على قولها على الأثر :

— ولكن يا أماه ، لئن انقطعت عنها لكنت كأننى أخضع لوالدى .

قالت :

— إن هذا الخاطر الذميم ليس خليقاً بك ، وأنا واثقة من أنك الآن تستحين منه .

فعدت إلى القول ، وأنا أغالب نشيجى :

— ثم . . . ثم . . . كيف تريديننى على أن أفعل ؟ وأنت تعلمين أننى أراها كل يوم فى المدرسة وأنها تجلس إلى جوارى . . . ماذا أقول لها ؟ . . .

— يمكننى أن أطلب الى الناظرة أن تغير مكانك .

— لا ، لا تفعلى يا أماه ، أرجوك . وليكن فى مقدورى على الأقل أن أراها .

— ولكن هذا فيه ضررٌ لك يا بنيتى المسكينة . لَكَمْ أود أن أعينك على نفسك .

أما ما حدث فى صبيحة يوم الجمعة التالى فلقد ذكرته . ولم أستطع أن أعير الدرس أى انتباه ، ولما عدت للغذاء كان اضطرابى بالغاً حتى رأيت والدتى تجزع لحالى . أما والدى ، فكان قد ارتأى لعقابى وسيلة : وهى التظاهر بأغفال وجودى ؛ ولكن لست أدرى أى شىء كان فى إمكانى أن أرجوه خيراً من هذا ؟ وحضرت والدتى بعد الطعام إلى حجرتى حيث كنت قد اختليت بنفسى وقالت :

— چنفييف ، بنيّتى المسكينة ، هل أنت مريضة ؟ إنك ترتجفين وإنك لم تتناولى من الطعام شيئاً . . .

مريضة ، نعم ، لقد كان القلب مريضاً . ومع ذلك سكّنت روع والدتى ، ولكنى رجوتها ألا تردنى بعد ذلك إلى المدرسة . أما أن أداوم على رؤية سارا وأن أعرض عنها والنفس تصبو بجوانحها إليها ، فقد كان ذلك فوق احتمالى . وليس من شك فى أن خطر ذلك بدا عظيما لوالدتى ، لأنها ارتضت أن تبقينى إلى جانبها . وعلى ذلك ظفر والدى بنصر هيّن ، فقد كان يعارض دائما فى دراستى الثانوية . وفى زعمه أن حاجة النساء إلى العلم ليست بقدر حاجتهن إلى « رقيق الآداب » ، وأضاف إلى ذلك قوله : إن هذا الرأى على كل حال ، إنما هو رأى موليير ، ويشترك معه

فيه العقلاء من الناس . لم يكن هذا رأيي ، ولا رأى والدتى لحسن حظى . كان شغفى بالعلم عظيما ، وكنت أقبل على كل ما كان يدرس بالمدرسة إقبالا شديداً . كنت أفكر حينذاك تفكيراً مضطربا ، أليس تعليمى هو ما يسمح لى بالاستقلال فيما بعد ؟ كان امتحان البكالوريا فى العام التالى ، وكنت أنوى التقدم إليه وألا أقف عنده . وتم الاتفاق على أن يكون خروجى من المدرسة لأسباب مرضيَّة . أكان علىَّ أن أقطع ما بينى وبين چيزيل ؟ كانت والدتى قد أعجبت بمدام پارمنتييه الإعجاب كله ، كما أعجبت بچيزيل ، فرأت من الواجب علينا أن نوضح لهما أسباب تخلفى ؛ غير أن صداقة چيزيل لسارا كانت تحول دون ذلك . وحييت بضعة أيام فى ارتباك عظيم ثم رضيت أن أنزل على رأى والدتى ؛ وكنت أشعر بمعارضتها لوالدى دون انقطاع ، فكانت مقاومتى للسلطة الأبوية تجد فى خضوعى البنوى لوالدتى ما يؤيد هذه المقاومة . ولكن ، ألم تكن للصداقة أيضاً حقوقها ؟ حتى دون العهد الذى ارتبطنا به يوم إنشاء رابطة الاستقلال ؟ أى تقدير يبقى لى إزاء نفسى إن تركتهما تظنان أننى محوتهما من قلبى دفعة واحدة؟ ورجوت والدتى فى أن تأذن لى بالتحدث إلى چيزيل ، وسألتها أن تزور بنفسها مدام پارمنتييه

لتدبر خلوة أتحدث فيها إلى ابنتها دون حرج . لا أدرى ما قد تكون والدتى قالته لمدام پارمنتييه؛ غير أنها لما أن عادت من زيارتها كان ما ائتلف على محياها من فرح ومكر يزّين خديها بغينة مستملحة .

وبادرتنى بقولها :

— أتعرفين ما عرضت علىّ مدام پارمنتييه ؟ عرضت أن تعطيك كل يوم درساً فى اللغة الانجليزية ، وسوف تذهبين إليها فى ساعات المدرسة لأنها ترى ، مثلى ، أنه يجمل من أجل سارا ألا تتقابلى كثيراً أنت وچيزيل .

— وإذن لقد حدثتها عن سارا ؟ أذكرت لها . . . ؟

— يا بنيّتى ، لم يكن هناك داع لأن أذكر لها شيئاً . لقد تكفلت بذلك چيزيل غداة زيارتنا للمعرض .

— ومع ذلك كانت قد أوصتنى بألا أذكر لها شيئاً .

قالت :

— ها أنت ذى ترين أن ثقتها بوالدتها غلبت على حذرها .

وأضافت فى شىء من السذاجة :

— الحق أن مدام پارمنتييه كانت قد اطلعت على المقال الذميم قبل ذلك .

— ولكن مدام پارمنتييه لم تنه چيزيل عن رؤية سارا !

— حقاً ؛ غير أن ذلك يدل على أن آراءنا فى هذا الصدد ليست واحدة ، وعلى أنها تعرف أن چيزيل أعقل منك .

— أو أنها تحب سارا أقل مما أحبها .

— حبا أقل عنفاً ، نعم ، ولاشك .

إن كنت قد أطلت الوقوف عند هذا الحب الأول من شبابى ، فإنما ذلك يرجع إلى ما لابس يقظة حواسى من غموض . وعلى أثر ما ذكرته ألمّ بى ما أقعدنى فى الفراش ، ولعل فرويد قد يقول إن الحمى القرمزية التى انتابتنى ، واحتمى فيها كل ما اعترانى من اضطراب ، كانت أكبر عون لى ولوالدتى . وأخبرتنى والدتى فيما بعد ، أن طيف سارا ، خلال الأيام الأولى من هذيان الحمى (وكانت مرتفعة جداً) كان يلازم خيالى . ولكن ما إن تماثلت للشفاء حتى اتخذت أفكارى مجرى آخر .

٢

كانت مدام پارمنتييه أوسع من والدتى علماً ، فإن والدتى لم تشرع فى المطالعة فى انتظام وعناية إلا بعد أن تقدمت فى السن قليلا . كانت الدروس التى تلقيتها عليها تختلف اختلافاً بيّنا عن تلك التى تلقيتها فى المدرسة، وكانت هذه الدروس تنصرف إلى الحديث والمطالعة بخاصة. كانت مدام پارمنتييه تستقبلنى فى مكتبة واسعة كنت تستطيع أن ترى فيها الكتّاب الإنجليز يجاورون الكتّاب الفرنسيين أو الإيطاليين، فقد كانت تجيد هذه اللغات الثلاث على السواء. ورافقتنى والدتى فى البدء، ثم تركتنا بعد الدرس الثانى عندما قالت مدام پارمنتييه إنها لو كانت وحدها معى لشعرت بحرية أوسع وراحة أكبر . وقد كانت فى أغلب الأحيان تلزمنى بالمطالعة وتعنى بتصحيح لكنة لسانى؛ وكنت أوثر أن أسمعها تقرأ رغم أنى كثيراً ما كنت لا أفهمها كل الفهم . كان لصدى صوتها وقع فاتن يكاد يشبه ذلك الذى كان يحدثه فى قلبى صوت سارا ؛ وكانت

تؤثر الشعر على غيره وتزعم أنه كفيل بتدريبي على وزن مقاطع عبارتي وزناً صحيحاً . ولكنى ما لبثت أن أفضيت إليها بقلة ميلي إلى الأحلام والشعر ؛ وإذ ذاك تبادلنا الجدل . قالت :

— حقاً إن الزهور لا تغذى الإنسان ، ولكنها تضفى على الحياة البهجة والفرح ؛ ولئن زرعت حديقة فيها من الخضر أمتعها مذاقاً وأشدها أريجاً تكونين ولاشك قد هيأت لى أسباب الطعام ، ولكنك تكونين فى الوقت ذاته قد سلبتنى طعم الحياة .

وإذ أجبت بأنه كما أن جسمى لا يستطيع أن يتخذ من الزهور قوته ، كذلك عقلى لا يستطيع أن يتخذ من التشبيه غذاءه ، تبسّمت وعادت إلى الكلام فى شكاة :

— إن كان قد بلغ بك الأمر إلى النفور من الصور البيانية !

وهكذا ، كان يحلو لها أن تحيا فى عالم من الخيال ، ما تكاد تفكر فيه حتى تجزم بأنه موجود . وكذلك كانت تؤمن بالحياة الآخرة ، وما كانت ترجوه من ثوابها كان يعينها على احتمال شقاء الدنيا وما فيها من نقائص .

فى ذلك الوقت رغم حداثة سنى ، لم يكن شغفى بالقصص

قدر شغفى بالحقائق . ولم يكن اهتمامى بالروايات لروعة ما فيها من تصوير أو وصف قدر اهتمامى بها لما كانت تقدمه من معلومات أستقيها عن الحياة . وهذا ما يوضح أن رائدى وأنا أكتب هذه القصة هو الهداية والإرشاد فحسب ، وإن قل قدرها . ولما كنت لا أميل إلى اللهو فليس من شأنى أن أسعى به إلى غيرى ، وأحرى بى أن أقصد إلى « التحـذير » ؛ وأظنك ياسيدى تصطنع هذا اللفظ كما أصطنعه أنا هنا ، فأذن لى فى أن أستعيره منك . نعم ، وإنه لمما يثلج صدرى أن أرى ، يوما ما ، أن امرأة طالعتنى فوجدت فيما أكتب هنا ما « يحذرها » ويعصمها من بعض أوهام آذتنى وكادت تفسد حياتى .

« متحللاً من ضروب الترف العقلى منصرفاً عما وراء الطبيعة . »

طالعتُ بالأمس هذه الكلمات فى ثنايا الدراسة الرائعة التى دبجّها يراع مارت دى فيل عن ثوبان ، وهى تصورنى أحسن تصوير . وفى نفس هذه الدراسة أطالع ، فى سرور عظيم ، عبارة أخرى أستبين فيها نفسى : « ألم تـكن طبيعة عقـله ألاّ يرى إلا الواقع الملموس وأن يأبى على دخان الأحـلام الاستقرار فيه إذا ما تحتم العمل . . . » ذلك أننى على حداثة سنى إذ ذاك ، كنت لا أرتضى ألا أكون نافعـة أو قادرة

على النفع . والشعر والأدب نفسهما كانا فى نظرى ثمار حياة فراغ ، أمقتهما أشد المقت .

وبعد ، فهأنذى أنساق إلى تبيين خصائص من خاتى ما كنت لأتبينها فى نفسى أو يدركها وعيى إذ ذاك . ولقد كان لى من معارضتى مدام پارمنتييه ، رغم محبتى العظيمة لها ، عون كبير ؛ فلئن كانت المحبة ينميها الود فان اختلاف الرأى يعلمنا أن نعرف بعضنا بعضاً . هذا ، ولم يكن اختلاف الرأى بينى وبينها يشبه بوجه ما ذلك الذى كان بينى وبين والدى ، والذى كان يمتزج بازدراء يزيده خطراً ، فى حين كنت لا أكن لمدام پارمنتييه إلا كل تقدير . وكنت رغم هذا الاختلاف ، أتفاهم معها أحسن التفاهم ، وكانت لا تنى عن إظهار فرحها لنشاطى . ومع ذلك كنت فى حاجة إلى دروس أخرى غير دروسها ؛ فاستعانت والدتى بمدرس للتاريخ والجغرافيا ؛ وقبل الدكتور مارشان رغم كثرة عمله أن يخصنى كل يومين بساعة لدرس العلوم . وكنت أتلقى هذا الدرس مساءً فى منزله . وكثيراً ما كان الدرس يمتد فى حديث كنت أجد فيه فائدة تفوق ما فى درس العلوم نفسه .

كان الدكتور مارشان قد أوتى ما لم يؤته والدى ، أوتى ، قبل كل شىء ، كفاية حقة ومعرفة وثيقة وازدراءً لكل ادعاءٍ

وتصنّع . كان مظهره الخشن يخفى طبيعة شديدة الحنو ، ولم يكن إعجابى به ليمنعنى من الاختلاف معه فى الرأى أيضاً . غير أن هذا الاختلاف كان لدوافع أخرى . ولما كانت أحاديثى معه لم تنته على أثر الامتحان ، بل امتدت إلى ما بعده فى اطراد ، فقد يرجع ما أذكره عنها إلى ١٩١٤ أو بعدها بقليل . ولم أفهم بعض نواحٍ من خلقه ، كانت لا ترضينى إذ ذاك ، إلاّ بعد أن نضج فكرى قليلا .

كان إخلاصه التام ، وتنزهه الصرف عن الأغراض ، وفرط مروءته التى كان يحنو بها على آلام الغير ، هذا كله كان يقوم على أساس من الإلحاد المطلق والإنكار اليائس . أما أنا ، والشعور الدينى لم يكن قط حيًّا فىّ (ثم ، ما كان يتظاهر به والدى من التدين كان كفيلا بأن يزهّدنى فى الدين) ، فسرعان ما أصبحت لا أومن بشىء ليس من الواقع الملموس . ولكن إذا كان الدكتور مارشان يسلّم بما قدّر للبشر من شقاء عظيم ، هذا الشقاء الذى كان يقول عنه : « ليس فى وسعنا إلا أن نخفّف أقله » ، فلم يكن فى وسعى أنا أن أسلّم بأن تقف آمالنا عند هذا الحد . وكان ، كلما ذكرت له أن فى الإمكان تحسين حالتنا الاجتماعية ، يعتبرنى « خيالية » ، فكنت أضيق بذلك ، وكنت أتكلم عن هذا التحسين كما يتكلم الأحداث ، وطبيعى أن ما كنت اذكره له

فى هذا الشأن كان يثير ابتسامه . كنت أشعر بهذا كله ، ورغم ذلك كنت مصرة على رأيى ، حريصة على الاحتفاظ بشخصيتى « الخيالية » . هذا الأمل المقيم الذى راد حياتى كان فى ذلك الوقت غامضاً ، ولعله كان يجدر بى أن أتريث قليلا فى التحدث عنه ، ولكنى لم أصبر .

استعدت ما كتبته عن هذا الأمل ، وأرانى قليلة الرضا عما كتبت. فانك إن لم تكن على مذهب من المذاهب فإيمانك بأى شىء يثير الريبة ، ولا يُطمأن إليه ، ويعتبر جزافا . لقد قرأت قريباً فى مجلة أمريكية ردوداً على السؤال التالى : « بِمَ تؤمن ؟ » كان السؤال موجهاً إلى أشهر الكتّاب والعلماء ورجال الدولة والمال والصناعة . . . من جميع البلدان . ولم يُجب عليه فى جزم ويقين إلا من كانوا على المذهب الكاثوليكى ، وأما غيرهم فإنك تجد ردودهم فى حياتهم وآثارهم . قد نتردد فى مجال الكلام ونبتُّ فى مجال العمل . ولست فى حاجة إلى النظريات ، وأعتقد أننى أتبيّن تماماً ما أريده رغم أننى لا أحسن التعبير عنه . هذا ولو كنت قادرة على التعبير ببعض عبارات ما التمست هذا السرد الطويل .

كانت مدام مارشان صديقة والدتى وأليفة صباها ، وكانت

متواضعة إلى حد الانزواء حتى لتبـدو ضئيلة الشأن . وهذا على الأقل ما كنت أتبيّـنه فيها فى هذه الفـترة من حياتى ، إذ كنت قليلة الميل إلى استقصاء ما وراء المظاهر . ولئن كنت إذ ذاك أعدّ والدى مثـال الرجل الذى أكره الزواج منـه ، فإن مدام مارشان كانت فى نظرى مثال المرأة التى كنت لا أبتغى أن أكونها أبداً . ما من شئ كان يبرر لدىّ هذا الحب الذى كان الدكتور مارشان يبديه لها ، فقد كنت أراها هملا . كانت تعيش فى ظل زوجها ، وفى كنف الإخلاص له . وما من شك فى أنهمـا كانا على أتم وفاق رغم مجون الدكتور واعتبـاره الزواج « نظاماً أخرق » . وكان لا يتحرج من ذكر هذا فى حضرتى رغم حداثة سـنى ، ورغم نظرات والدى التى كان ينبعث منهـا الغضب ، فقد كان يجلّ هذا « النظام المقدس » أكبر الإجلال .

ولما كانت والدتى ترى أن الجهل بالشئ لا يجدى ، فقد حرصت على أن تسرع إلى إرشادى منذ الصبا ، ولذلك كنت على صغر سنى أعرف أن الأولاد ليسوا ثمرة ملازمة للزواج ، كما كنت أعرف أن الاتصال الجنسى ، الذى يتم به التناسل ، كثيراً ما كان يتغاضى عن موافقة الشرع والـكنيسة . ولـكن ، ما السبب فى

أن بعض الأزواج لا ينجبون ما داموا قد تزوجوا ؟ هذا السؤال كثيراً ما كان يشغل بالى ، وخاصة حينما كنت أفكر فى الدكتور مارشان وزوجه .

وأجابت والدتى لما سألتها عن ذلك :

— إن سؤالك مروع فى فضوله . أنت تعرفين أننى لم أرفض أن أجيبك إلا فيما ندر . . . ولكن ، يوجد عدد من الأزواج يؤثرون أن يظلوا بلا ولد .

— ولِمَ ؟

— لأنه ، يا بنيّتى ، توجد أسباب عديدة لذلك . منها ما هو خلقى ومنها ما هو مادى ، وهذه وتلك كلها تقديرية .

— وكيف بهم يفعلون حتى لا ينجبوا ؟

— حقاً ليس لك أن تعرفى هذا .

قالت ذلك بينما احمرت وجنتاها قليلا ، وما من شك فى أن خجلها كان لا يرجع إلى سؤالى قدر ما كان يرجع إلى رفضها الإجابة عليه . ومع ذلك ، كنت قد ألقيت هذا السؤال فى سذاجة تامة دون أن أفطن لما فيه من نبوّ . ولما كنت مازلت أجهل كنه الرغبة الجنسية واللذة ، أو أن تصورى لهما كان غامضاً مبهماً ، كان الاتصال بين الزوجين أمراً لا يسترعى انتباهى قدر ما كان يسترعيه أمر النسل .

وسألتها :

— أو تعتقدين أن الدكتور مارشان وزوجه يؤثران أن يظلاّ بلا ولد ؟

— لا أعتقد ذلك .

ثم أسرعت قائلة :

— إننا لا نظفر بكل ما نتمنى .

— أو تعتقدين إذن أنهما يتمنيان ولداً ولا يستطيعان ؟

فقالت وقد وضعت يدها على مقبض الباب وهى تهمّ بالخروج :

— ها أنت ترين يا بنيّتى خطر الشروع فى الإجابة ، إنك تريدين دائماً مزيداً من الإيضاح .

وفى الحق أن هذه العبارات القليلة التى فاهت بها والدتى تركتنى تواقة إلى المزيد ، ولما كان السؤال مايزال يتردد فى ذهنى ، عزمت مدفوعة بكل ما فى حداثة سنى من إقدام واستهتار وسذاجة أن أسأل الدكتور نفسه . كان ذلك يقتضى أن أكون وحيدة معه ، بيد أن مدام مارشان كانت تحضر معنا كل الدروس لذلك أرجأت توجيه السؤال إلى ما بعد الاجازة ، وقد قضيتها فى مقاطعة البريتانى عند أبناء عمى . . . وقطعت معظمها فى المطالعة .

إن مسائل العلاقات الجنسيّة التى قد يدهش بعض الناس أو يستأذن لإسهابى فى الحديث عنها كانت بعينها أهم ما يستأثر باهتمامى فيما كنت أطالع من كتب ؛ ولم تكن تختلط بفضولى أية رغبة حسِّية . ولئن كنت قد استسغت شعر بودلير ، فما كان ذلك إلاّ لما فى صوت سارا من فتنة وسحر . كان نوع من الخوف الغريزى يبعدنى عن الصور المثيرة ، وعن كل ما تبعثه من رغبة أو لذة . وكذلك لم أكن أنقاد لعاطفتى . . . إنما كان فكرى منصرفاً كله إلى ما يسميه الناس فى شىء من الطنطنة امتيازات المرأة . قلت إننى كنت قليلة الاهتمام بالروايات ، وكان عناء القلوب يبدو لى أنه لا يستحق هذا العناء الذى يبذله الكتّاب فى وصفه . ولكن كان حسبى أن أجد فى كتاب ما عبارةً تروقنى حتى كان الكتاب يحظى بإيثارى ؛ من ذلك كلمة وجدتها فى كتاب « چان آير » فنسختها ، بعد قراءتها على الأثر ، فى كراسة خصصتها لهذا الغرض وكتبت عليها مكان العنوان « استقلال المرأة » ذكرى لرابطتنا ولصاحبتىّ الأولين .

« من العبث القول بأن البشر عليهم أن يجدوا فى الراحة رضاً ، فإن ما يلزمهم هو العمل ؛ وهم يخلقونه خلقاً إن لم توفره

لهم الحياة . إن آلافاً مؤلفـةً من البشر قد حكم عليهم بحياة هادئة أهدأ من حياتى ، وإن الآلاف منهم لتضطرب نفوسهم فى صمت غضبا على أقدارهم . ولاأحد يدرى كم من ثورة (دون الثورات السياسية) تضطرم فى نفوس عامة الأحياء المنتشرين فى الأرض . والرأى السائد أن النساء ، عامة ، وديعـات ؛ ولـكنهن يشعرن كما يشعر الرجال ، وهن فى حاجة إلى استغلال ملـكاتهن ، ويحتجن كما يحتاج الرجال إلى ميدان للعمل يصرفن فيه جهودهن ؛ وهن يتألمن كذلك قدر ما يتألم الرجال من التقيّـد البالغ والركود المفرط . وإنه لضيق عقل أن يزعم إخوتهن الذين حباهم الحظ بأسـعد نصيب : إن عمل المرأة ينبغى أن يقتصر على الطبخ والخياطة والتطريز وغيرها من فنون التسلية . ولا سبب يدعو للحكم عليهن أو التهكم منهن إن سعين يلتمسن من العلم أو العمل نصيباً أكبر مما رسمه العرف لهن . »

لم يشغل بالى كتاب ، من بين جميع الـكتب التى قرأتها إذ ذاك ، قدر « كلاريسا هارلو » ؛ فرغم قلة شغفى بالقصص قرأت ، دون أن يفوتنى سطر ، أسفار هذا الـكتاب الخمسة . وقد كان يُعدّ فيما مضى من أشهر الـكتب ، أما الآن ففى ظنّى أنه لا يجد من يُقبل على قراءته . وما من شك فى أن أثره فى نفسى كان عظيما (إلا أنه لم

يكن تمام الأثر الذى ابتغاه المؤلف) ، ولذلك ينبغى أن أتكلم عنه . لاحظت أن كل الخطوب التى نزلت بكلاريسا إنما كانت ترجع إلى إخلاصها وخضوعها لوالديها ، وإلى احترامها بصفة خاصة لوالدها الذى لم يكن جديراً بالاحترام . وكنت أفكر أنه لولا براعة المؤلف لبدت لنا البطلة فى تواضعها المفرط شديدة الحمق . وهو إذ أضفى عليها من المحاسن أتمّها ، وصوّرها أسمى من أبيها نفساً ، قد جعل خضوع هذا الملك الكريم لسلطان هذا الإنسان الأحمق أمراً يستفزّ شعورنا أشدّ الاستفزاز .

على أن ما كان يزيد فى أسباب سخطى هو هذا الاعتبار الذى كان المؤلف يعيره للعفاف . ورغم أن فضائل كلاريسا لم تتجلّ فى صورة أوضح مما تجلّت بعد أن أصيبت فى عفافها خسّة وغدراً ، فإن ربط الشرف بالطهر كان فى نظرى يُعدّ أمراً مردوداً فى ذاته . فى ذاك الوقت لم أكن أقدر كم تتفكك أوصال النفس حينما يستسلم الجسد . هذا وقد كان يدخل فى أسباب سخطى إذ ذاك عوامل من الإصرار والتعمد ؛ وما شعرت به فيما بعد من مشاعر صادقة أعلمنى إلى أى حد كنت مختلفة عما كنت أزعم . وأيا كان الأمر . فقد كان رأيى أن المرأة تستطيع أن تكون فاضلة دون أن تكون متحفظة ؛ وأن أكبر الشرف أو أقله لا علاقة له بالاتصال

الجنسى . كان هذا كله متأثراً إلى حد كبير بما دار بينى وبين صاحبتىّ من أحاديث ؛ إذ كنا نذهب فى ازدرائنا للأوضاع ولآراء العدد الأكبر من الناس مذهباً يبلغ التحدى . ولما كانت أحاديثنا خالية من مساهمة الحس وتأثيره فيها كنا لذلك أكثر جرأة وإقداماً . كنا ، ثلاثتنا ، نقول بإمكان التغاضى عن رابطة شرعية فى الوصال . كنا ، ثلاثتنا ، نصرح برغبتنا فى الأمومة دون الزواج . ولكن إن كنت ، فيما يخصنى على الأقل ، أتحدث عن الحب بهذا اليسر وهذه الخفة فذلك أننى كنت لا أفكر إلا فى عواقبه ، وأننى كنت أجهل المتعة ولا أفطن لعواقب اللذة ، حتى كنت أظن أن فى إمكانى التصرف فى شخصى دائماً كيفما شئت . نعم ، قد كان ما خالجنى من اضطراب إلى جانب سارا خليقاً بتحذيرى ، غير أنه إن كان قد اضطرب كيانى كله فلم يكن ذلك إلا على نحو غامض أشد الغموض لا يتيح لى أن أتعرف منه هذه الرغبة ، ولو لم يأت قبل الأوان ما يعمل على تركيزها لظلّت الرغبة فى الجسم كله متفرقة مشتتة ، ولتجلّت فى أول مظاهرها فى حال من الاضطراب غير مألوفة . وبعد ، فلعل ما ذكرته عن هذه اللذة لا ينطبق إلا علىّ وحدى ، وأظن أن سارا كانت أقل منى سذاجة ، وليس من شك فى أنها كانت تضيف إلى جمالها

شيئاً من الشهوة الخفية ؛ وعندى أن ذلك هو ما أثار اضطرابى .

كنت أعرف الدكتور مارشان منذ طفولتى ، ولبثت زمناً أسائل نفسى لِمَ لم تفضله والدتى على والدى ولم تتزوجه . ولكن بعد حديث دار بينى وبينها ، ثم بعد أن اطلعت فيما بعد على يومياتها عرفت أن الدكتور مارشان إنما قدّمه إليها والدى ، وأنه فى بادئ الأمر لم يعجبها ، وهو فعلا يبدو لأول وهلة فاتر الشعور ؛ ولكننى أحسب ذلك يرجع إلى رقة قلبه ومغالبته الانقياد له ، فإنه ما يكاد يترك له القياد حتى ترى عينيه تنضحان عطفاً وحنواً . كنت أسمع والدى يدعوه « مادياً » ، ووالدتى تنعته « متشائماً » قبل أن أعرف مدلول هذين اللفظين بأمد طويل . ولما شرعت أجادله فيما بعد لم يكن لى اعتراض إلا على تشاؤمه وحده .

ولما كنت أصرح له بأن إزالة الشقاء خير من تخفيفه ، كان يقول :

— ولكن يا بنيّتى (كان يدعونى « يا بنيّتى » كما كانت تفعل والدتى) أنا لا ألومك أن تكون هذه آراءك ، فإنها آراء سنك . فى هذه السن نصبو إلى إصلاح المجتمع وتوزيع الثروة توزيعاً عادلا ؛ على أن أحسن النظم لا يجعل البشر خيراً مما هم .

ثم كان يحلو له أن يستشهد بقول شانفور : « من لم يكن في الأربعين كارهاً للناس لم يحبهم في حياته قط » . ويضيف إلى ذلك أنه حتما جاوز الأربعين .

في ذاك الوقت اتفق أن كنا وحدنا ، فقال أيضاً :

— كم من الناس نهتم بأمرهم لا لسبب إلا لأننا نراهم يتوجعون ويشقون ، فإذا أبلوا وأثروا كرهناهم ، ها هي ذي تبكي ...!

كنت في ذاك الوقت أبكي لأقل سبب ، رغم إرادتي وشدة عزمي ؛ وكنت أغضب لذلك من نفسي . وفي هذه المرة أيضاً غلبني دمعي ، ولكنني كنت أبكي حنقاً لعجزي عن الجواب ، واستياء من قصوري عن التعبير عن هذه خواطر التي وردت تترى علىّ ، وقد خيّل لي أن أغلبها كان يصدر عن القلب لا عن الرأس . لم أكن من بلاهة السن بحيث أقصر عن إدراك أن عدداً من العلل التي يتألم منها الناس لا يرجع إلى أسباب صحيحة ، ليس فيها ما يؤلم ، بقدر ما يرجع إلى آراء الناس عنها وحكمهم عليها . كنت قد انتهيت من قراءة « آدم بيد » مع مدام پارمنتييه ، وكنت أفكر خاصة في البطلة هيتي سوريل والمحنة التي مرت بها . لم أكن أرتضي اعتبارها مدينة لأنها انقادت إلى من غرّر بها ،

ولأنها تركت ولدها عن يأس لأنها كانت تنوء ولمّا تفعل فعلتها ، بعبء القضاء الذى كانت تشعر به مسلطا عليها . وفى رأيى أن الشخص الذى كان حقيقاً بالإدانة إنما هو ، أولا، عشيقها الذى هجرها ، ثم المجتمع الذى يحمّلها وزراً كان المسئول عنه من غرّر بها . كان بودى لو ذكرت حالتها مثالا ؛ غير أننى كنت أشك فى أن يكون الدكتور مارشان قد اطلع على هذا الكتاب ، لذا عدت إلى الحديث والجدل مع مدام پارمنتييه ، وسألتها :

— أكنت تدينين هيتى سوريل ؟

— لا أشعر بأن من حقى أن أدين أحداً .

— ليس هذا بجواب . إننى أعرض عليك حالة خاصة ، وأنت تلجئين إلى العموميات .

— أعتقد أننى كنت أرثى لها كما رثت لها دينا موريس ، مع اعتبارها مدينة .

— وما دينها ؟

— وفيم يجدى السؤال ؟ أول دينها أنها انقادت حتى غُرّر بها ، ثم إنها تركت ولدها .

— لم تتركه إلا مكرهة لأنها لم تجد سبيلا سواه . إن قضاء المجتمع هو الذى يدفعها إلى هذا الإثم ؛ فهى تعلم أنه لم

يعد لها ولا لولدها فى المجتمع مكان . وهذا ما أراه شنيعاً .

— إننى أرثى لها لأنها تتوب .

— وهى تتوب لأن ديناموريس تبثها الأمل بأن مغفرة الله سوف تلى التوبة ؛ ولكن المدين حقاً هو المجتمع ، وليست هيتى سوريل ، والأعجب أن هذا المجتمع يحكم عليها باسم الله .

— هامى يا جنفييف ، أنت لا يمكنك أن تقريها على هذا .

— إنى أرثى لها من كل قلبى ؛ من لا أقره هو المجتمع . . . مدام پارمنتييه ، أريد أن أعرف . . . أترين مستنكراً أن تنجب المرأة ولداً دون أن تكون متزوجة ؟

— أرى مستنكراً أن تنجب ولداً مصيره الشقاء .

— ولِمَ حتما الشقاء ؟

— كيف لا يكون شقياً ولد لا أب له ؟

— أوه ، مدام پارمنتييه ! إن هذا الكلام لا ينبغى أن يقال لى أنا ؛ ما كنتِ تكلمت على هذا النحو لو أنك عرفت أبى معرفة حسنة ؛ ثم أَمِنَ الضرورة حقاً أن يكون الأب زوجاً كيما يحبّ ولده ؟

ولكنها عاودت الكلام دون أن تجيب .

— ولد تعس ؛ أينما حلّ لن يلقى إلا صدّا وإعرضاً وهواناً .

— هذا عين ما يغضبنى ؛ ألا ترين من الشناعة أن . . .

ولكنها استطردت دون أن تسمع لى :

— ولد يشعر بأن أمه يحتقرها الناس ؛ ثم ، وهذا هو الأمرُّ ، إنه مرغم ، هو نفسه ، على احتقارها .

— كيف يسعك يا مدام پارمنتييه أن تقولى هذا القول ؟ وإذن فالمرأة فى رأيك ، كيما يحق لها أن تكون أمّاً عليها أن ترتضى ربط حياتها كلها برجل قد لا تستطيع أن تثابر على حبه .

— ما عليها إلا أن تحسن اختياره .

— لو كانت هى التى تختار ! ولكنك تعرفين تمام المعرفة أنها لا يسعها غالباً إلا أن تدع الغير يختارون لها .

— إنها حرة فى أن ترفض ، إن كان لا يروقها من يطلب زواجها .

— لعلها تتوهم فى البدء أنه يروقها ، كما فعلت والدتى على ما أعتقد .

— چنفييڤ ، ليس لك أن تحكمى على والديك . أنا لا أعرف والدك إلا قليلا ، ولكنّه بدا لى ظريفاً يوم عرفته .

— ولقد بدا لوالدتى ظريفاً لما تزوجتْه .

— إننى أرى والدتك سيدة كاملة لا شىء يعاب عليها .

— أى أنها قد ارتضت التضحية دائماً . أيرضيك أن شخصاً ، كوالدتى ، ذى كفاية حقة يضحى لمن ليس كفواً له ؟

— لا يحلّ الوئام فى أسرة دون تضحيات من الجانبين تعظّم من يضحى وترفعه .

— مدام پارمنتييه . . . ؛ لِمَ نَقْصُرُ لفظ الخيانة على عدم وفاء المرأة لزوجها ؟ أليس فى الإمكان أن نخون دون أن نرتكب الخيانة عينها ؟ ثم ألا تكون الخيانة أعظم للزوج بل وللنفس معاً إن ظلّت الزوجة وفيّة لزوجها دون أن تحبّه ؟

— أكيداً لا . . . يا للأسئلة ! قد تخبو جذوة الحب عما كانت فى أيامها الأولى ، ولكن الخيانة تبدأ عند ما نحبّ رجلا آخر . أما أنا فلم يكن لى فضل قط فى أن أظل وفيّة ؛ لأننى لم أكفّ يوما عن حب زوجى ، ولكن حتى لو فتر الحب فإن الزواج يتضمن عهداً هو عهد الوفاء للعقد .

— لذلك أوثر ألا يعقد أحد علىّ أبداً .

لا ريب فى أننى قد أوجزت فى هذا الحديث الذى كان مستفيضاً . وقد جرى فى ربيع ١٩١٤ ، وإننى لأذكر باقة عظيمة من زهور البجلة كانت على المنضدة الكبرى فى المكتبة حيث كنا جالستين ، وقد كانت تنشر عبيراً شديداً جداً حتى أن

مدام پارمنتييه سألتنى أن أفتح النافذة رغم أن الجو فى الخارج كان لا يزال بارداً .

جزت فى نوفمبر القسم الثانى لامتحان البكالوريا لأننى كنت قد رسبت فى يوليـه رسوباً لم أكن لأتوقعـه . وكان الفرح الذى أظهره والدى لمـا علم برسوبى بمثـابة سوط ألهب عزتى فضاعفت الجهد . وكانت چيزيل تستعد للامتحان نفسه فنجحت فى أول دورة . وكنت أراها من حين لآخر ؛ ولـكن مدام پارمنتييه لم تـكن تشجع لقاءنا ، فلئن كانت تجد فى حرية قولى ما تأنس إليه ، لقد كانت تخاف منها على ابنتها بعض الخوف ، ومع ذلك فلم تكن چيزيل بحيث تتأثر قليلا أو كثيراً بى أو بوالدتها رغم أنها كانت تعبدها ؛ على أنها كانت تعرف كيف تعارضها فى إصرار ودعة تفلّ العزم ، إن اقتضت الحاجة إلى ذلك ، حتى تنزل مدام پارمنتييه عن رأيها .

كنت وچيزيل نتفق فى آراء كثيرة كانت تُعتبر من أجرأ الآراء ، وكان ذلك يشعرنى بثقة عظيمة بنفسى إذ كنت أُكبر عقلها الذى كان لا يعرف سـبيلا إلى هذا التطرف الذى كثيراً ما كنت أجنح إليه . وكانت تتوخّى الأناة فى كل ما تأتيه . كان رأيهـا يسيطر من علٍ على عاطفتها ويكبح جماحها فلم أرها قط

تستسلم للغرور . ولمّا كان جمالها وعقلها يضمنان لها ضروب النجاح فى المجتمع ، كانت لهذا السبب تحجم عن غشيان المجتمعات وتصرح برغبتها فى مواصلة الدرس . كان فقه اللغة يستهويها ، وكانت تقول لى : « حسبى أن يكون ذلك ذكرى لوالدى الذى أشبهه فيما أظن شبهاً كبيراً . » وكذلك كنت عازمة على مواصلة الدرس ، لا أرتضى كچيزيل ، أن أبقى دون عمل . وإذا بنا والأيام توّطد عزمنا على العمل لضمان استقلالنا ، وعلى ألاّ نعتمد فى حياتنا على عون من أهل وزوج ، أو «من عشيق» ؛ إذ لم يكن عاراً فى رأينا ، أن نتخذ عشيقاً ، ولكن العار فى أن نكون عالة عليه .

وكنت أقول لچيزيل :

— الآن وقد اتسع مجال العمل أمام النساء فإنى أستطيع أن أؤمل النجاح فيه . وخير ما تستطيعه المرأة فى هذا المجال أن تحمل الناس على نسيان أنها ليست برجل . وغايتى هى أن أجد عملا لا يمكن أن تقوم به سوى امرأة . وأنا أومن بأن النساء قادرات على أشياء غير تلك التى يظن الناس عامة أنهن قادرات عليها ، وكذلك هن قادرات على مجهود أكبر مما تظن النساء أنفسهن أنه فى وسعهن ؛ لم تتوافر لهن إلى الآن الأسباب

لإظهار قدرتهن ؛ أصغى إلىّ : إننى أود أن أبتكر عملا يسمح لى بأن أعاون النساء بتعليمهن معرفة أنفسهن وإدراك قدرتهن .

— ولكن كيف ذلك ؟ وما السبيل إليه ؟

— لست أدرى بعد ؛ على أننى أراك لاتهزئين بى ؛ ألا يبدو لك ما أقوله بالغ الحمق ؟

— مطلقاً ؛ ولكننى أظن أن العدد الأكبر من النساء يقنعن بذلك الخضوع الذى يحتفظ به الرجال على النساء . وأول ما ينبغى الوصول إليه هو أن يرغب النساء فى ألا يرضين بهذه التبعية .

— ألا تَرَيْن أن هذا الإجلال الذى يحفّ به الرجال «الجنس اللطيف» فيه حطّة .

— نعم فيه حطة للرجال .

— وأن المرأة فى وسعها أن تصبو إلى ما هو أفضل من إثارة الشهوات ، ومن العمل على أن تكون معبودة رجل ، أو أكثر ، تسخره لها .

— فضلا عما فى هذا التسخير من إزعاج . لو لم أكن أفكر كما تفكرين لما سعيت إلى الاستزادة من العلم .

— اصغ إلىّ يا چيزيل : إننى أعتقد اعتقاداً راسخاً أنه يوجد

عدد كبير من النساء على كفاية حقة ، وأن فى النساء قدرة أعظم مما يحسبه الناس فيهن ، وأن هذه القدرة لا تُستغلّ لأنها غير معروفة ، أو لأنها لا تعرف نفسها ، أو لأنها لم تُدعَ قط إلى الآن لأن تبرز وتعمل .

— نعم ، غير أنى أعتقد كذلك أن الخضوع قد ينطوى على قدرة وفضل كثير .

— وأنا أعترض على هذا الخضوع نفسه ، فإن هذه القدرة تظل كامنة فى الخضوع لا تبرز . ولعل فضائل النساء تختلف عن فضائل الرجال ، إلا أنها ليست أقل منها . لِمَ إخضاع هذه لتلك ؟

— لو كانت النساء دون جمالهن ، أو كنّ لا يشعرن بأن أحداً يشتهيهن ، لصبون إلى ما هو خير من اجتذاب الإعجاب .

— كم أحبك يا چيزيل لأنك لا تكتفين بجمالك !

— لست أدرى أجميلة أنا حقاً ؟ أنا لا أريد أن أصرف عنايتى إلا لمزايا عقلى وعيوبه . ومع ذلك أقر بأننى كنت أتألم لو كنت دميمة ، وبأن مجهودى يكون أقل لو كنت اعتبرت أن فى العمل تعويضاً فحسب . أنا لا أبتغى للمرأة قسطاً أوفر من التعليم ، وإنما أبتغى لها رأيا سبّاقا وجرأة أعظم وعزماً أشد .

— إن القوانين لا تسمح لنا إلا بالقليل .

— نعم ، وبهذه المناسبة . . . أود لو أدرس الحقوق ، فما أروع أن تحظى بحقك كاملاً ! وأريد بصفة خاصة أن أدرس حقوق المرأة ، وأن أحيط بها إحاطة لا تقف عند حقوق المرأة فى فرنسا ؛ فإننى أود لو أجعل العدد الجم من النساء يدركن ما فى قدرتهن .

— وما يجب عليهن ، على ما أقدّر .

— طبيعى ؛ إن من كانت قدرته أعظم كان واجبه أكبر . نعم أعرف هذا ؛ ومع ذلك فما أجمل الالتزام بواجبات جديدة ! وما أروع أن تبعثى فى نفوس غيرك من النساء الرغبة فى أن يتقيدن . وأنا أعتقد أن فى كوامن النفس استطاعات وحاجات ومقدرة تجهل أمرها ، لا تزال راقدة تنتظر الحافز الذى يحثها على النهوض . وأود لو أتيح لى أن أقول لكل امرأة ما أقوله لنفسى كل صباح من أمدٍ بعيد : إن بيدك أن تفعلى .

— أن تفعل ماذا ؟

— أى شىء ! إنى أفكر فيما ذكره الإنجيل إذ قال المسيح للمرأة المقعدة : « انهضى ، خذى فراشك وامضى . » فنهضت المرأة الكسيح على الأثر ومضت .

— للأسف، ما أنت ياچنقييف بالمسيح حتى تأتى المعجزات، لن تجعلى الكسيح ينهض .

— ليس فى إمكانى أن أومن بالمعجزات ، بل لا أريد أن أومن بها . ولئن كانت المرأة قد نهضت ، فآية ذلك أنه كان فى مقدورها أن تنهض ، ولكنها كانت تجهل أن ذلك فى مقدورها ، وقد كان يلزم لنهوضها أن يأتيها أمر المسيح بالنهوض ، فكان ذلك كافيا لأن تشعر بقدرتها . ما مدى قدرة المرأة ؟ هذا أول ما أريد أن ألم به حتى أتجنّب دعوتها إلى أمر ، أو مطالبتها بأمر لا أكون واثقة من قدرتها على إتيانه . ومن الطبيعى أن أختبر فى نفسى أولا قدرتى على إتيان ذلك الأمر الذى أدعوها إليه ، ومدى تأثيره .

عندئذ جذبتنى چيزيل إليها وقبّلتنى على جبينى قائلة :

— لا يسعنى إلا أن أقول لك قول المسيح الذى ذكرت : إنهضى وامضى ، بيدك أن تفعلى .

لم يتح لى إثارة هذا الحديث الخطير ، الذى كنت عقدت النية على إثارته مع الدكتور مارشان ، إلا بعد بضعة شهور من هذا التاريخ . وكنت بعد الامتحان قد عاودت الدرس والحديث معه ؛ وكانت مدام مارشان لا تزال تحضر معنا . ولكن حدث

أن دُعيتْ إلى زيارة قريبة لها مسنة ، بينا لبث الدكتور مارشان ينتظر إجازته الصغيرة ليلحق بها . حدث ذلك فى يوليو .

أخشى أن يجد القارىء أن الحديث الذى سأرويه له يبلغ من الجرأة قدراً بالغاً بالقياس إلى فتاة فى سن السابعة عشرة . ولكننى أكرر أن كل ما استطعت حينئذ من تفكير أو قول لم يخرج عن أن يكون نظرياً . كان فكرى وحده يسير قدماً دون أن يعنى بما قد تأباه حواسى . ولم يكن المجون التى أصطنعه من طبعى ، بل كنت أتكلفه تكلفاً ، ولا بد أنى كنت أحمّل نفسى فوق طاقتها كيما يكون حديثى مثلما كان . وكنت أغتبط إذ ذاك بما أحرزه من نصر على نفسى لتغلبى على تحفظى وحيائى وتعففى . واليوم يبدو لى هذا كله أشبه بملهاة كنت أنا فى الوقت عينه المخرج الذى يخرجها ، والمؤلف الذى يدبج حوارها ، والمتفرج الذى يصفق مستحسناً إياها . وفى ذات مساء ، بينا كنت وحدى مع الدكتور مارشان فى مكتبه الذى كان يتلقانى فيه حيث جئت للقائه وأنا عاقدة العزم على إثارة هذا الحديث ، لبثت أترقب الوقت الملائم ؛ وكان الوقت يمضى سريعاً ، ففعلت مثلما فعل جوليان سوريل . قدرت لنفسى مهلةً إلى الساعة التاسعة والخمس ، أردد القول :

— لئن تركت عقرب الدقائق يعدو هذا الوقت دون أن أعرض للموضوع الذى يلازم فكرى ، لعرفت أنى جبانة وأنى لا أستطيع بعد ذلك أن أعتمد على نفسى .

وكان الدكتور فى تلك اللحظة نفسها على ما أذكر يتحدث عن الوراثة ويعرض لقوانين مندل مفصلاً الخصائص الموروثة وغير الموروثة . وكنت أنتظره حتى يكفّ لحظة عن الكلام . وهذا ما فعله فى الساعة التاسة وأربع ؛ إذ ذاك رأيتنى ، فى سرعة وقبل أن يجد سانحة للكلام ، أغمض عينى وأضم قبضتى كما كنت أفعل عند ما كنت ألقى بنفسى فى الماء من علٍ قبل أن أحسن السباحة ، وإذا بى أقول وقد اشتد خفقان قلبى حتى خفت ألا أستطيع أن آتى على عبارتى كلها :

— عمِّ مارشان (كذلك كنت أدعوه) أود أن أعرف أكنت لا تريد ولداً ، أم لم يكن فى وسعك أن يكون لك ولد ؟

وتراءى لى ثغره يفترّ عن ابتسامة مصطنعة ، وأجاب :

— حقاً إن هذا التحول مفاجىء (تلميحاً لما كان يشرح لى منذ لحظة يسيرة من ضروب التحول) .

ولما رأيته قد سكت ولم يزد شيئاً ، قلت :

— أرى أنك تفضل ألا تجيب ، أو أنك لا تجرؤ على الإجابة .

فتكلف فجأة لهجة رصينة وقال :

— يا بنيّتى ، فى وسعى أن أقول لك إن حرماننا من الولد كان الأسى الوحيد الذى شاب صفوى ، أنا وامرأة عمك — ثم قال فى شىء من الجد — نعم ، الوحيد ؛ ولكن ياله من أسى ! تمضى السنون وكلانا يرى أولاد الغير يولدون ويشبّون دون أن يكون فى مقدورنا أن نتعزى عن ذلك الحرمان . ها أنت ذى ترين أنى لا أخشى أن أحادثك فى صراحة . أما أسباب هذا . . . — وتردد بعض التردد كأنه يبحث عن كلمة « العقر » التى لفظها كارها بيننا انقبضت أسارير وجهه بعض الانقباض — فاسمحى لى ألا أذكرها ، ولا فائدة لك فى معرفتها .

فقلت :

— إن ما يهمنى هو أن أعلم أنه لا يكفى إذن ، فى هذا الأمر ، أن تريد فتستطيع .

لم يبق إلا أن أقول ما يشق قوله ؛ وحسبت أنى لن أستطيع ؛ ولكننى استجمعت شجاعتى كلها ، وقلت :

— عم مارشان ، لا بد من أن أقول لك . . . أريد أن يكون لى ولد .

فقال وهو يبتسم مرة أخرى :

— إنك مازلت صغيرة السن للزواج ، ولكن عما قريب ، وأنت على ما أنت عليه من وضاءة ، ثم بما لوالدك من صلات (قال ذلك فى شىء من السخرية ، شأنه دائماً إذا ما تحدث عن والدى) فإن الأزواج سوف يتقدمون من تلقاء أنفسهم ، ولن تكون أمامك سوى حيرة الاختيار .

— ربما . . . ولكنى لا أريد أن أتزوج .

— أوه ! أوه ! — صاح بهذا فى شىء من التهكم بينا كان يشعل سيجارة حتى يبدو أكثر اطمئناناً ، إذ كان من الواضح أن المجرى الذى اتخذه الحديث يحرجه — وقال : « إن هذا لفوضى » ، ثم شد بعض أنفاس من سيجارته وأضاف :

— وبعد ، إن هذا لا يدهشنى منك .

ولما رأيت أنه لا يضيف إلى ما قال شيئاً ، سألته :

— أتراه أمراً مستنكراً ؟

— الحق ، لا . أراه أمراً طائشاً ، وليس هذا بذاك . إنك لا شك لم تتصورى بعد كل العقبات التى تكاد تجعل هذا . . .

ولكنى لم أدعه يتمم ، وقلت فى لهجة أشد ما أستطيع هدوءاً :

— من كان عازما على ما أعزم لا تقف فى سبيله عقبات .

وعندئذ قال وقد تغيرت لهجته ، وكأنما أراد أن يضع حداً لهذا الحديث :

— يا بنيَّتى أصغى : إنك ما زلت حدثة ، سوف نتكلم عن ذلك بعد بضعة أعوام إن كنت لا تزالين مصرّة على رأيك .

ونهض معتبراً أن الحديث قد طال وعلىَّ أن أرحل ؛ ولكننى لبثت جالسة . حينئذ أخذ يضرب فى الحجرة جيئة وذهاباً ، وفجأة وقف أمامى وسألنى :

— ولكن، أمِنَ الممكن معرفة لِمَ ترفضين الزواج ؟ فإن الأمر مع ذلك أيسر .

وكان الأيسر كذلك ألاَّ أجيب ، فقد كنت لا أستطيع أن أصرّح بكل أسباب رفضى وإلاَّ لأفضى ذلك إلى جدل كثير . . . فسكتُّ . وقطع مرة أخرى بضع خطوات نحو طرف الحجرة ثم عاد إلىَّ وقال :

— ولكنك تعرفين قبل كل شىء أنه لا بد من أن تكونا اثنين لإنجاب الولد .

— أعرف ذلك .

— أتحبين أحداً ؟

— أعرف أيضاً أنه لا حاجة فى ذلك إلى الحب عينه .

— هل تتطلعين أخيراً إلى أحد ؟

كان قد وقف أمامى ينظر إلىَّ . فرفعت بصرى إليه ، وفى جهد كبير همست :

— نعم ، إليك أنت .

فانطلق يضحك ضحكا عريضاً ، بدا لى متكلفاً ، وصاح :

— هذا لعمرى . . . !

ثم نهض يطوى الحجرة فى خطاً واسعة ، وأعاد القول مرتين « هذا لعمرى » بينا كان يرفع كتفيه . والتفت الىَّ قائلا :

— ومتى استقرت هذه السخافة فى رأسك ؟

كنت قد مكثت هادئة جداً ، فسألته فى بساطة :

— سخافة . . . لِمَ ؟

فأعاد فى صوت مرتفع :

— لِمَ ؟ لِمَ ؟ . . .

ثم أضاف فى صوت منخفض ولكن فى وضوح وشىء من الجفاء :

— لأننى أحب زوجتى . والآن كفى ، أفهمتِ ؟

وخرج دون أن يودّعنى .

كان قلبي يخفق ووجهي يلتهب ، وشعرت فجأة بصداع شديد ، ومع ذلك لم أرحل على الأثر ؛ وخيراً فعلت ، إذ عاد بعد لحظات قليلة ، ودنا مني ووضع يده في حنوّ على كتفي . فلما أن نظرت إليه رأيته قد ندّى وجهه بالماء ، وقال في صوت أقرب إلى العطف :

— يا بنيّتي أصغي : كان يجب أن تفهمي أني لا أريد أن أسيء إلى امرأة عمك . لا ! ألا تدركين هذا ؟ كيف يكون لي ولد ليس منها ، وما فتئتْ تأسف أشد الأسف لأنها لم تستطع أن تنجب لي ولداً ! إن هذا ليقضي عليها .

كانت يده تداعب كتفي ؛ ولكني كنت الآن قد خفضت رأسي ، فنهضت ، فقال :

— هيّا ، فلنفترق كما يفترق الأصدقاء . ولكن . . . لا ؛ أنت لا تستحقين هذا المساء أن أقبّلك .

فصافحت اليد التي بسطها ؛ وفجأة ، في حركة لا تدفع ، وضعت على هذه اليد شفتيّ ؛ ثم وليّت .

الحق أني ، من هذه الآونة فقط ، بدأت أحب الدكتور مارشان ، أو على الأصح بدأت أتخيل أنني أحبه . وعندي أنه لو استجاب لهواي لكرهته على الفور ، ولتملكتني أشد الحيرة ولاضطررت إلى تحميل نفسي أكثر مما في وسعها ؛

إذ أن جسدى كان لا يساير قطعاً جنوح فكرى . وكذلك كان فكرى يثور على تخاذل جسمى وتحفظه ويطلب التجاوز عن موافقته. وكنت أضطرم غيظاً من شعورى بأنى بالرغم منى حيية أشد الحياء متحفظة أكبر التحفظ . يا للغرّة التى كنتها اذ ذاك ! لقد كنت أعتقد فى سذاجة أن الإنسان يستطيع أن يتصرف فى جسده وفى قلبه وفق مشيئته ، ولذا كنت أزدرى أولئك المحبين الذين يتحكم فيهم الهوى فيخضعون لسلطانه وأعزم ألاّ أحب أحداً لا أقرر حبه بمحض إرادتى . ومثلى فى ذلك كما لو كنت قررت عبثاً وحمقاً أن أمنع ثديى من أن ينهد . كان علىّ بعد أن أتعلم عن الحياة كل شىء وبخاصة أنه ينبغى ألا تحب قطعاً إن أردت أن تكون حر التصرف فى شخصك .

ورأيت الدكتور مارشان بعد هذا بوقت قليل ، كانت مدام مارشان قد عادت من بايون ، فجلستْ معنا بعض الوقت ثم انسحبت على غير عادتها ، وهذا ما حملنى على الاعتقاد بان الدكتور كان قد طلب منها أن تدعنا وحدنا . وما إن خرجت حتى قال :

— أصغى يا بنيّتى : أنا لا أريد أن يكون للحديث الذى جرى فى ذاك المساء أثر يعكر ودنا ، غير أن ذلك لا يصح إلا إن قبلتِ ألا أحمله محل الجد .

وكان جالساً إلى مكتبه يخاطبنى دون أن يرفع إلىّ بصره . وكان المصباح يسطع على جبينه الجميل ويضيئه ، وكنت أنظر إلى وجهه ويديه وجسمه كله وأسائل نفسى : أبى رغبة فى تقبيله ؟ فى أن أضمه بين ذراعىّ ؟ فى أن يطوقنى ؟ . . . ورغماً منى كنت أرانى مضطرة إلى الإجابة بالنفى . وتناول قاطع الورق العاجى من مكتبه ومرّ بحده على شفتيه ، والحق إنى ماتمنيت أن أكون مكان قاطع الورق . وأياً كان الأمر فقد قررت مع ذلك أننى كنت أحب الدكتور مارشان . وعاد إلى حديثه :

— لا كل ما ذكرتِ ، ولكن آخر ما ذكرت . . . من العبث الإيضاح . أما عن الباقى فأصغى إلىّ قليلا يا بنيَّتى : لقد حدث لى كثيراً ، وكثيراً جداً خلال حياتى المهينة ، أن أهتم بفتيات بائسات استسلمن وحَمَلن عن ضعف أو جهل أو حب ؛ وبعضهن كنّ يحملن راغبات ، وفى أغلب الأحيان ، عن أمل لا جدوى منه فى الاحتفاظ بالعشيق . ولقد كنّ جميعاً أحق بالشفقة مما تظنين . على أنى لم ألق قط امرأة ، امرأة فتية فكرتْ فى أن يكون لها ولد قبل أن تفكر فى الحب . إنما الولد نتيجة مرجوّة أو غير مرجوة وليست حتمية ، لشىء يجب أن يكون اعتباره سابقاً لاعتبار الولد ، وأن يحسب له

حساب أكبر من حساب الولد ، لشيء يلوح أنك أنت لا ترين له أى خطر . وحتى لا أجد هذا خارقاً لطبيعة الأشياء (فلما هممت بالاعتراض عليه بإشارة من يدى كرّر قوله : نعم خارقاً !) لا غنًى لى عن التفكير فى أنك ما زلت صغيرة السن بحيث . . .

فقاطعته قائلةً :

— لست صغيرة عن أن أنجب ولداً .

— لا ، طبعاً (كان ينبغى أن أقول للأسف !) ولكنك صغيرة عن أن تتكلمى عن إنجاب الولد .

وكان قد نهض وشرع يخطو فى الحجرة . وساد صمت طويل حرصت على ألا أقطعه . ثم وقف أخيراً أمامى وعاد يقول ، فى لهجة فيها سخرية وعدوان :

— ومع ذلك أود أن أدرك ما يجتذبك إلى هذا ؟ أهو الحمل ؟ أم هو الوضع ؟ . . . فى وسعى أن أؤكد لك أنه ليس فيهما ما يسرّ .

وكنت قد لبثت صامتة غير أنى كنت أجيب على كل سؤال ألقاه بحركة من رأسى تفيد النفى ، فاستطرد :

— أم هو الولد نفسه ؟ أم رضاعته ؟ أم لذة تغيير لفائفه ؟ أم لذة اللعب بالعرائس ؟

وكانت أسئلة الدكتور تبدو لى بعيدة عن الصواب ؛ وكأنه فقد رشده ، وعهدى به أعقل ما يكون . والحق أننى لم أكن قد فكرت قط فى تحليل قرارى هذا . ولكنى أعتقد أن من البواعث على اتخاذ هذا القرار بعضاً من الاحتجاج على نظام قائم كنت أرفض الاعتراف به ، وخروجاً على ما كان يسميه والدى « الآداب العامة » ، وثورة عليه هو الذى كان يمثل فى نظرى هذه « الآداب العامة » . كنت بحاجة إلى إذلاله وإهانته وحمله على الخجل والتبرؤ منى . كنت بحاجة إلى إثبات استقلالى وتحررى بعمل لا تقدر عليه سوى امرأة ، عمل كنت أريد تحمل تبعته دون أن أقدّر كل نتائجه . وحاولت ، فى شىء من الارتباك ، أن أشرح قليلا لمارشان هذا كله ، غير أن الحجج الرائعة التى كنت أعتبرها قاطعة دامغة وهى فى نفسى تراءت لى ، لما عرضتها ، واهية بلهاء . ولا شك فى أنها ما كانت تستحق أن تقابل إلا بالإشفاق .

وكدت أدهش للهجة مارشان السمحة التى اصطنعها حين قال :

— أصغى يا بنيَّتى : أتدركين ما يكون عبء الولد على امرأة مثلك تصبو إلى الحرية ؟ أى قيد هذا ! أو أية عبودية !

ولما كنت لا أجيب بشىء ، أضاف وهو يهز كتفيه :

— إنك حقاً لعنيدة .

فقلت بعد أن لبث برهة فى صمت :

— كنت أرتجى منك شيئاً آخر ، لا أن تؤنبنى .

— وما كنت ترتجين ؟ أنصيحـة . . . ؟ هاأنذا ، أسدى إليك واحدة لا لبس فيها ، وها هى ذى : فكـرى فى شىء آخر .

فى هذه اللحظة سمعت امرأة عمى تقترب . ما من شك فى أنها كانت تريد إنذارنا ، إذ كانت تحدث ضجةً شديدة فائقة ، بل لقد سألتْ فى صوت مرتفع أن نفتح لها الباب زاعمة أن ذراعيها كانتا محمَّلتين . أكانت تخشى مفاجأتنـا ؟ وفى الحال علَّلت حضورها الدائم أثناء الدرس على غير ما كنت أعلّله .

وتقدمت تحمل على صينية أكواباً وعصير برتقال ، فشربنا ، ثلاثتنا ، فى صمت أو فيما يشبه الصمت ؛ إذ كنا لا نخوض إلا فى هذا اللغو الدارج الذى كنت أعتقد أنها تلتزمه ، لأننى كنت ، أنا أيضاً ألتزمه فى حضرتها .

لم أعد أرى چيزيل ، كما ذكرت ، إلا فى فترات كانت تزداد تباعداً ؛ على أننى كنت لا أزال أحرص على رأيها كل الحرص ، فعاودت الحديث معها عن عزمى .

قالت :

— لا ، إنى لا أعارضك فيما اعترمت ؛ غير أنى أرى أننا حقاً تختلف . لقد ساءلت نفسى من أجلك ، وقلّبت الرأى طويلا ؛ وأعتقد أنى من أولئـك النساء اللواتى لا طاقة لهن إلا على حب واحـد ؛ ولذلك أتساءل : لِمَ لا أتزوج إذن بمَن سوف أحبه ؟

فأجبت :

— أما أنا ، فلا أرتضى أن أهب نفسى كلها لأحد . وإنى لأغضب لفكرة وجوب إخضاع حياتى لذلك الذى سوف يجعلنى أماً . هذا وأود أن يظل هو من جهته حراً . ألا ترتضين بدلاً من هبة النفس إعارتها ؟

— كيف يكون له تقدير عنـدك من يقبل هذه الإعارة ذات النتائج الخطيرة ؟

ولما كنت لا أجيب بشىء قالت :

— اسمعى ياچنڤييف : أنا واثقة من أن الحياة كفيلة بأن تزعزع جميع نظرياتك الرائعة .

وأضافت وهى تبتسم : ولسوف يكون ذلك خيراً .

ثم أنشدت فى صوت خافت :

أن نخطىء فيما نعتزم
هذا ما جبلنا عليه .
أدبر أمرى فى الصباح
وأخطىء طول اليوم.

فسألتها :

— ألك هذه الأبيات الجميلة ؟

أجابت فى دعابة الطفل :

— أو تظنين ذلك ؟ إنما هى رباعية صغيرة لڤولتير يحلو لى أن أرددها ؛ وهى قد تلائمك . يا عزيزتى چنقييف : سوف تنساقين يوماً إلى الغواية كما انساق غيرك من قبل ، رغم جميل ما اعتزمت ؛ أو ، وهذا هو الأدهى ، سوف تعتقدين أنك تكتشفين فيمن أغواك ذكاءً نابغاً وفضائل جمّة ، لن تكون فى الواقع إلا من بنات خيالك . ومع ذلك فإنك تعرفين تمام المعرفة طبيعة الحب : مَنْ مسّه الحب بطرف فَقَدَ كل سيطرةٍ على نفسه .

— ماذا تعنين ؟

— أظن أنه لاخوف الآن عليك وعلىَّ من التصريح . ألمْ تلحظى

أننى كنت أنا أيضاً أجنُّ بسارا ؟ فرغم ماهو معروف عنى من تعقل كنت أجنُّ بها أشد الجنون ؛ غير أن تعقلى هذا كان ينحصر فى أننى كنت أقل منك إظهاراً لجنونى ؛ على أننى ، من أجلها ، كنت أقضى الليل ساهرة . . . لا تجزعى ! لم يحدث بيننا شىء ما ؛ ولكنى لو كنت وجدت بين أحضانها ، لكنت أذوب كما يذوب السكّر . ولحسن طالعى لم تفطن سارا لهذا كله . ولئن رأيتنى أحدثك عن ذلك الآن فى هدوء ، فإنما لأسألك هذا السؤال : لو كانت سارا رجلاً ، أكنت ترتضين أن تنجبى ولداً منها ؟

كان تصريح چيزيل قد وقع منى وقعاً هزَّ مشاعرى ، فتريثت قليلا قبل الإجابة على سؤالها ، ثم قلت بلهجة قاطعة :

— لا .

فسألتنى چيزيل :

— لِمَ ؟ ثم أضافت إلى ذلك : من المفهوم أننا هنا ، نطرح جانباً كل حياءٍ وخشية وأخلاق لقنّاها ؛ على أننا على قدر ما نتنصّل منها يقتضى الأمر أن نأخذ أنفسنا بالشدة . ألا ترين ذلك أنت أيضاً ؟

— أجل ، ولئن رأيتنى أتكلف المجون فذلك ، كما تعرفين ، لا يرجع على الإطلاق إلى التماس لذة أكبر .

— وإذن أجيبي : لِمَ لا تريدين أن تنجبي ولداً يكون صورة من سارا . . . لِمَ ؟

— ذلك أن فتنة الجسم أقلّ في نظري من بعض مزايا العقل والقلب ؛ هذه المزايا عينها التي تفتقر إليها سارا وأجدها فيك أنت .

فصاحت على الفور وهي تضحك :

— إني لآسفة ألاّ يكون لي أخ .

ثم رويت لها ما جرى في حديثي إلى مارشان حتى لا أدع بيننا أقل ما يريب ؛ فعادت إلى القول في لهجتها الجدّية :

— أصغي إلي : عليك أن تتحدثي إلى والدتك في هذا كله ، فإنها على ما خبرتها خليقة بأن تفهمك أحسن الفهم .

— نعم ، وإني أفكر في هذا من زمن ، ولعلني أحدثها عن ذلك يوماً فيما بعد ؛ ولكن لن أقول لها شيئاً عما ذكرته لك عن الدكتور مارشان .

— ولِمَ ؟

— أظن من الخير ألا أقول .

كان نوع من الغريزة يحذرني من ذلك .

في شاتلرو ، في أكتوبر ١٩١٦ ، حين ذهبت لرؤية والدتي

قبل وفاتها بقليل، أتيح لى إذ ذاك فقط أن أحدثها بهذا الحديث الذى كنت قد اعتزمته من زمن طويل. وكما ذكرتُ فى بعض كلمات فى التمهيد الموجز الذى يسبق يومياتها التى صدرت تحت عنوان « مدرسة الزوجات ». كانت والدتى قد انصرفت إلى العناية بالمرضى المصابين بأمراض معدية، فى أحد المستشفيات القائمة فى الجبهة الخلفية، لا يقل خطره من حيث نوعه عن أكثر المستشفيات تعرضاً لخطر الحرب. وكنت قد رغبت فى مرافقتها إليه فى أول الأمر فرفضت، ثم قبلتْ أن أذهب لقضاء بضعة أيام إلى جوارها خلال فترة ما بين انتقال وآخر من انتقالات سيارات نقل الجرحى التى قمت بالخدمة فيها. كانت إذن، حين رأيتها، ترتدى زىّ الممرضات الذى لم تغد تفارقه؛ وكان المستشفى غاصاً بالمرضى، فلم ترض أن أدخل إليه مخافة العدوى؛ فلما اعترضت بدخولها هى، قالت ضاحكة:

— نعم، غير أننا، نحن الممرضات، قد اكتسبنا مناعة. إننى قد قضيت خمسة أشهر فى هذا المستشفى.

كان ذلك، كما ذكرت، قبل وفاتها بأيام قلائل. وبدت لى متعبة مرهقة بالعمل والسهر... ولكن لما قلت لها أنها ينبغى

أن تستريح قليلا اعترضت قائلة إنها لم تكن قطعاً فى أتم صحة إلا منذ لم يعد لها فسحة للتفكير فى نفسها ، وكذلك الجند . ثم أضافت : إن ذلك يصدق عليك أيضاً .

وفى الواقع كنت أشعر أنى أحسن حالا منذ صرفت جهودى كلها إلى العمل فى نقل الجرحى . كان اضطرابى وهواجس نفسى تبدو لى اليوم نائية . لم أعد أفكر فيها ، أو إن فكرت فلكى أضحك منها . وأخذت أحدث والدتى عن الدكتور مارشان ، فى هدوء نفسى تام ، قلت :

— أريد أن أعرف رأيك فيه .

— رأيى أنه طبيب من أبرع الأطباء ؛ ثم هو فضلاً عن هذا رجل فاضل .

— نعم ، هذا ما يقوله كل الناس عنه ؛ وإنما أريد رأيك الخاص .

فأطرقت ساعةً لا تنبس ، ناظرةً إلى قدميها وهى تبتسم . كنا فى الحديقة العامة من المدينة ، وكان اليوم صحواً رغم تقدم الخريف والجو أدنى إلى الدفء . وطار بجوارنا حمام كان يلتقط خبزاً ألقاه إليه أحد المتنزهين ، فنظرت إلىّ وهى تبتسم ابتسامة عريضة جعلتْ أسارير وجهها تتقبّض قليلا

دون أن تستطيع مغالبة هذا التقبّض . وبدأت قولها فى صوت يرتعد قليلا :

— أساورك يوماً شكٌ ما فى أنى أحب الدكتور مارشان ؟ لعل تصريحاً كهذا من أم لابنتها هو ولا شك . . .

ولم تجد كلمة تتمم بها عبارتها واستطردت :

—هذا سرٌ لم أقله لأحد ، وما كنتُ لأقوله لك لو أن علىّ أن أخجل منه . سر لا خطر له مادمت لم أحاول قط استمالته . . . على أننى لما غدوت لا أحرص على تقدير والدك ، أى لما أن انقطعت عن تقديره (وأظننى لست أطلعك بهذا على جديد) قد احتجت إلى تقدير الدكتور مارشان ، وهذا التقدير قد عاوننى فى لحظات قاسية عسيرة .

— وإذن ، أنت لم تحدثيه قط ؟ لِمَ ؟ . . . (كانت قد أومأت برأسها بالنفى إجابة على سؤالى الأول ، ولكنها لم تجب على سؤالى الثانى .) وهل أنت واثقة من أنه لم يساوره شك فى شىء ما ؟

فأطرقت لحظة أخرى ، ثم قالت :

— يوجد مع ذلك شخص قد ساوره الشك فى أن هناك شيئاً . . . وهو زوجته .

— مدام مارشان ؟

— نعم ياعزيزتى . ومن أجلها لم أقل شيئاً قط . لم أكن أريد إيلامها .

— أو تدرى هى ، على الأقل ، بما ضحيت ؟

— ولكن يا جنفييف ، أنا لم أضح بشىء ما ؛ لقد كان كل شىء هكذا على أحسن ما يكون .

فسألتها مرة أخرى ، فى شىء من قلة الصبر :

— وهل أنت واثقة من أنه هو كان لا يفطن لشىء ؟

فكفَّت عن الابتسام وقالت :

— تقريباً .

وقبّلتنى على جبينى ، ثم عاودت الابتسام ، وأشاحت بيدها كأنما تريد أن تطرد هذه الذكريات ، وأضافت :

— يا بنيَّتى العزيزة ، لِمَ أقصّ عليك هذا كله اليوم ؟ أيدهشك منى ذلك ؟ أو تذكرين أن رأيك كان قد استقر (ولست أدرى لماذا) على أننى كنت أحب بورجفيسلدورف ذلك الإنسان البائس ؟

— نعم ، لقد كان ذلك بلاهة منى ، غير أننى كنت فى حاجة إلى أن أتخيل أنك تحبين أحداً غير والدى .

فقالت ، وكأنها تلومني في رفق :

— صه ! لقد قلت لي في ذلك اليوم أشياء مروّعة .

— كل ما أذكره هو أنني كنت حانقة ، إذ كنت أعتقد أنك كنت تضحين من أجلي .

فقالت في جد عجيب :

— حتى لو كان الأمر كذلك يا چنڤييڤ ؟

— ذلك أني أجزع من التضحية . . .

— إنك تتكلمين كمن لم يَبْلُ الحبّ بعد . إني أشعر بشيء من البرد ؛ لنمش ، فإن ساعة العودة إلى المستشفى أوشكت أن تحين .

كانت ريح خفيفة قد بدأت تهب ، وتساقطت عن أشجارها أوراق لا حياة فيها .

فنهضنا .

وقلت لها مدفوعة بعزم مفاجيء :

— ما زال عندي ما أقوله لك . أو تعرفين ما قلتُ يوماً للدكتور مارشان ؟ قلت له إني أريد ولداً منه .

ورأيتها تتراجع إلى الخلف كمن دفعتها صدمة ، وقالت :

— ولكن يا چنڤييڤ !

قالت ذلك فى لهجة يتعذر وصفها ، وكأنها فى نفس الوقت تمتعض ، ولكن فى تكلف قليل وقلق ودهشة :

— أنا لا أفهمك .

فاستطردتُ فى جفاء :

— نعم : أن يجعلنى أماً .

فقالت فى لهجة سادها اللوم هذه المرة :

— ماذا ألمَّ بك حين ذاك ؟

— لا أدرى ، إنما هى فكرة خطرت ببالى .

— و . . . بِمَ أجابك ؟

كان فى لهجتها هذه المرة رنّة من القلق ؛ فأجبت :

— قال إننى كنت أتحدث كطفل قليل الحياء فَقَدَ صوابه ، وهو يرفض أن يعتبرنى جادة ، ثم . . .

— ثم ماذا ؟

— ثم وأخيراً لا يريد ؛ لأن . . .

— لأن ماذا ؟ هلمى ، لا تخشى الكلام .

— لأنه يحب زوجته .

ثم أردفتُ وأنا أرمقها بعينى :

— على أننى اليوم أدرك أن ذلك لم يكن وحده السبب .

فقالت فى همس :

— لعله كذلك .

وبدا لى أن شفتيها كانتا ترتعدان . آه ! لكم تراءت لى فى هذه الآونة ، تلك العواطف الرقيقة ، التى لم تبح بها والدتى ولم يبح بها الدكتور مارشان وزوجه ، صادقة جديرة بالاحترام ، أصدق وأجدر مما كانت إثرتى تدفعنى اليه . تلك العواطف التى نسجت فى خفاء ، من خيوط رفيعة واهية تصل قلباً بقلب فكنت . . . دون وعى أشتبك بها فى مضيّ قدماً . . . هذا ما كنت أريد أن أذكره لها قبل فراقها ؛ ولكنها ابتسمت فى حنو ووضعت أصبعها لا على شفتيها وإنما على شفتىَّ ووجَّهت إلىَّ نظرة أدركت منها أننا فى غنًى عن الكلام . إذ ذاك أخذتها بين ذراعىَّ وقبَّلتها بكل ما أملك من قوة ، ثم ودّعتنى .

وكان أن قدِّر لى ألا أراها بعد .

مطبعة الكاتب المصرى شركة مساهمة مصرية

[redacted]
جيد ،اندريه بول غيوم
مدرسة الزوجات، يليها روبير وجنفييف
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01031987

American University of Beirut

[redacted]

General Library

843
G453e A